رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المصفى

من صفات الدعاة

عبد الحميد البلالي

١-٣

دار القرا للنشر والتوزيع

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المصباحي
من
صفات الدعاة

بسم الله الرحمن الرحيم

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المصفى من صفات الرعاة

عبد الحميد البلالي

الجزء الأول

دار
للنشر والتوزيع

al-belali@hotmail.com

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

النسخة الكاملة

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م

الطبعة الثانيه

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشيخ أحمد القطان

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على قائدي وقدوتي ومعلمي وأميري محمد رسول الله .

أما بعد :

فهذا كتاب قيم يحتاجه الدعاة المربون ، يؤنس الجليس ، ويرقق القلب ، ويقوم السلوك . صغير في مظهره ، كبير في مخبره . أسأل الله أن يجزي مؤلفه عنا خير الجزاء وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم . وإني حرصت أن أضمن المقدمة ما ذكره أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في صفات الدعاة الصالحين ـ نسأل الله أن نكون منهم ـ فالدعاة هم : (منطقهم الصواب ، وملبسهم الاقتصاد ، ومشيهم التواضع . غضّوا أبصارهم عمَّا حرم الله عليهم ، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم . نزلت أنفسهم فهم في البلاء كالتي نزلت في الرجاء . عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم . فهم والجنة كمن رآها فهم معذبون ، قلوبهم

محزونة وشرورهم مأمونة . حاجاتهم خفيفة وأنفسهم عفيفة . صبروا أياماً قصيرة أعقبتهم راحة طويلة . أرادتهم الدنيا فلم يريدوها وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها . أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلا فاذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا اليها طمعاً ، واذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا اليها مسامع قلوبهم ، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم . أما النهار فحلماء علماء أبرار أتقياء لا يرضون من أعمالهم القليل ولا يستكثرون الكثير . فهم لأنفسهم متهمون ومن أعمالهم مشفقون اذا زُكِّيَ أحدُهم قال : أنا أعلم بنفسي من غيري وربي أعلم بي من نفسي . اللهم لا تؤاخذني بما يقولون واجعلني أفضل مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون . فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين وحزماً في لين ، وايماناً في يقين ، وحرصاً في علم ، وعلماً في حلم ، وقصداً في غنى وخشوعاً في عبادة ، وتجملاً في فاقة ، وصبراً في شدة وطلباً في حلال ، ونشاطاً في هدى ، وتحرجاً عن طمع . يمسي وهمّه الشكر . ويصبح وهمه الذكر ، تراه قريباً أمله ولله خاشعاً قلبه ، قانعة نفسه ، سهلاً أمره ، حريزاً دينه ، ميتة شهوته مكظوماً غيظه ، الخير منه مأمول ، والشر منه مأمون . إن كان في الغافلين كتب في الذاكرين . وإن كان في الذاكرين لم يكتب في الغافلين ، يعفو عمن ظلمه ويعطي من حرمه ، ويصل من قطعه . بعيداً فحشه ليناً قوله ، غائباً منكره ، حاضراً معروفه ، مقبلاً خيره ، مدبراً شرّه ، في الزلازل وقور ، وفي المكاره صبور ، وفي الرخاء شكور ، يعترف

بالحق قبل أن يشهد عليه لا يضيع ما استحفظ ولا ينسى ما ذكّر ، ولا ينابر بالألقاب ، ولا يضار بالجار ولا يشمت بالمصائب ولا يدخل في الباطل ولا يخرج من الحق إن صمت لم يغمّه صمته ، وإن ضحك لم يعل صوته . نفسه منه في عناء والناس منه في راحة) -

[أحمد القطان]

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد ،

ففي وقت قد تكالبت فيه قوى الشر جميعها بشتى ألوانها وأشكالها على الحركة الاسلامية ، يتنافسون فيما بينهم للقضاء عليها ، مبررين هذه الحرب بمبررات تشبه إلى حد بعيد تلك التي يستعين بها لاعبو العرائس المتحركة على الأطفال الذين ينظرون لتلك العرائس وينصتون للاعبيها مصدقين مبرراتهم لحبك نهاية القصة على تلك الصورة التي شاهدوا ، ويحسبون أنها قضية مسلمة لا جدال فيها . فيذهب الأطفال يحدثون أهليهم بما شاهدوا بانفعال بادٍ في تعابير وجوههم وأيديهم وهم يشرحون ذلك ولا يدرون أن وراء تلك العرائس أصابعَ كانت تتحكم في تحركاتهم وتحبك نهاية القصة .

وفي وقت يصدق فيه حديث رسول الله (ﷺ) الذي يقول فيه : **سيأتي على الناس سنوات خدّاعات ، يصدّق فيها الكاذب ، ويكذّب فيها الصادق ، ويؤتمن فيها الخائن ، ويخوّن فيها الأمين ، وينطق فيها الرويبضة . قيل • وما الرّويبضة ، قال : الرجل التافه يتكلم في أمر العامة**[1] .

وفي وقت يكذب الداعية إلى الله الصادق فيما يقول وما يدعو إليه ، لا يبتغي من وراء دعوته عرضاً من الحياة الدنيا ، ويصدق المفسد الذي يسرق أموال الناس ، ويحرق قيمهم ، ويسلخهم من شخصيتهم الإسلامية الأصيلة حتى يجعلهم دون شخصية تميزهم ؛ فليس لهم إلا اتباع أعداء الله من يهود أو نصارى يتبعونهم بكل شيء ولو دخلوا جحر ضب لدخلوا وراءهم .

ويُخَوَّنُ فيها ذلك الداعية الذي نذر نفسه في سبيل المساهمة لإخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، ويتهم بعد ذلك بأنه خان الوطن وخان الشعب وتآمر على قتل السلطان . ويؤمر به فيؤخذ من بين أهله لا يمهلونه حتى يلبس ثيابه . ويحاكم بتهمة قوله : (لا إله إلا الله محمد رسول الله) قولا باللسان وإيماناً بالجنان وعملاً بالأركان ، ويصدر الحكم بالاعدام لتلك الجريمة الشنيعة التي ارتكبها ذلك الإرهابي (جريمة الإيمان بالله) ولا يشفع له إلا

---

(١) صحيح الجامع الصغير ٣٥٤٤

(الكفر بالله والإيمان بالطاغية) .

ويؤتمن فيها ذلك الذئب المتآمر على ذلك الشعب المسكين ، يخطط لقتلهم وسلبهم أخص حقوقهم ، ويخرج قوانين لعبادته ، ويتركهم يتمرغون في مآسيهم ، يلهيهم بالحديث في الأرزاق عما يقوم به من مظالم ، وويل للذي يفطن منهم لتلك اللعبة فينظر إلى المظالم ، ويقوم بفضحها بين الناس ، فإن مصيره إلى السجن ، فلا يجوز الكلام بأمر العامة في قانون الطغاة إلا للرويبضة .

في وقت تحتاج فيه الحركة الاسلامية لوقفة تأمل ومراجعة شاملة لكل شيء لتحديد أدق للداء ليسهل وصف الدواء . تخرج هذه السلسلة من (المصفى من صفات الدعاة) علها تساهم في جزء يسير من تحديد الداء المختص في المنتمين للحركة الاسلامية ، ووصف الدواء الناجح على شكل إعادة للصفات الأصيلة للدعاة ، من القرآن والسنة المطهرة وسير علماء السلف رضوان الله عليهم ، ومن سار على دربهم من علماء ودعاة هذا العصر ، ملتزمة ما صح من حديث وأثر وما وثق من فقيه وداعية . وأسميتها (المصفى من صفات الدعاة) لأن صفات الدعاة كلها لا يستطيع جهد يسير كجهدي حصرها لأنها هي الإسلام كله ، ولكن أردت التركيز على أهمها بالنسبة للداعية ، وأسأل الله السميع العليم ، أن يعينني ويمد في عمري لحصر ما أستطيع من صفات الدعاة ، وأن يكون هذه الجهد خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يكون معيناً للدعاة في المضي في

طريقهم الشاق طريق الدعاة ، الذي لا بد لسالكه من الثبات دون الالتفات عن جانبيه للوصول إلى ما وعد الله ، إن الله لا يخلف الميعاد .

عبد الحميد البلالي

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الجزء الأول

قال الله عز وجل :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب ٢١] .

قال رسول الله (ﷺ) :

﴿ يُجَاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه في النار فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون أي فلان ما شأنك ؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه ﴾* البخاري .

---

* الحديث رقم ٧٦ في باب ما جاء في صفة النار ج ٤ من صحيح البخاري ص ٢٤٦ ط ـ عالم الكتب .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

توطئـة . . .

إنه من اللحظة الأولى التي تضع فيها قدمك قدمك في طريق الدعوة فإن نظرة الناس تجاهك تبدأ بالتغير ، فأنت الذي كان لا يؤبه لكلماتك وأفعالك ولا لهمسك أو صراخك ، ابتدأ الناس الذين يحيطون بك بتحليل كل كلمة أو فعل يصدر منك ، قبلت بذلك أم أبيت ؛ لأنه كما يقول ابن خلدون في مقدمته : (المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده ، والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال في من غلبها وانقادت إليه[1] والكمال ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : هو نوعية ومقدار ما يملك الانسان من مبادىء .

القسم الثاني : الكمال في السلاح والساعد .

فأنت وإن كنت قد عدمت الكثير من النوع الثاني لظروف ليس هذا المجال لذكرها فإنك تملك من القسم الأول ما يؤهلك للاتباع من قبل الآخرين مهما ضؤل هذا المقدار ما دام المتبع فاقداً حتى

---

(١) مقدمة ابن خلدون ١٣٣ ط ـ الشعب .

ذلك المقدار . فبذلك يسمى ذلك الانسان المتبوع (قدوة) .

القدوة الحسنة من أهم وسائل الدعوة إلى الله وأكثرها فاعلية ؛ فإن جمعاً من الناس يتوقف عن العمل بما يسمع حتى يرى واقعاً ماثلا أمامه فتزداد قناعته أن ذلك الأمر ليس من باب المعجزات التي لا يمكنه فعلها إنما هي من باب الممكنات التي يتيسر فعلها .

قال الامام الشاطبي في الموافقات (اذا وقع القول بياناً فالفعل شاهد له ومصدق . . وبيان ذلك . . أن العالم إذا أخبر عن إيجاب العبادة الفلانية أو الفعل الفلاني ، ثم فعله هو لم يخل به في مقتضى ما قال فيه ، قوى اعتقاد إيجابه ، وانتهض العمل بـه عند كـل من سمعه بخبر عنه ورآه يفعله[1] .

وتظهر النتيجة العكسية عندما يخالف الفعل القول ، بأن يظهر شعور في نفس المدعو بأن ذلك الأمر غير ممكن العمل به ، فيعمل بالحرام ويترك الحلال معتمداً على ما شاهده من ذلك المحدث الذي يعتبره في تقديره من القدوات من أجل ذلك كانت (القدوة الحسنة) من أوائل الصفات الدعوية التي لا بد للداعية من الاتصاف بهـا . ويقتضي ذلك معرفة أهميتها وشروطها ومبطلاتها ثم يتعلم فن التربية بواسطة القدوة الحسنة .

---

(١) الموافقات ٣/٣١٧ .

الصفة الأولى :

القدوة الحسنة

وبعد أن تم للشيطان ما يريد من احتناك ذرية آدم إلا قليلا ، وبعد أن ذاب بنو آدم في بهرج المادية الحديثة ، وقبلوا أن يتمرغوا في وحل الجاهلية النتن ، ارتفعت أيادٍ وظهرت أصوات من بين أنقاض هذه الجاهلية المردية ، بعضها خافت والبعض الآخر مدوٍ ، تنادي بمنقذ ينقذها مما هي فيه ، فهبت فرق الإنقاذ لهذه المهمة الصعبة ، وفشلت جميع الفرق في عمليات الإنقاذ ولم يفلح إلا فريق واحد ، كانت فيه صفة يتميز بها عن باقي الفرق ، ألا وهي (القدوة الحسنة) .

تعـــريف :

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[1] .

قال القرطبي في تفسيره : (الأسوة القدوة ، والأسوة ما يتأسى به أي يتعزى به فيقتدي به في جميع أحواله)[2]

ويقول الشيخ عبدالرحمن السعدي : (الأسوة نوعان : أسوة حسنة ، وأسوة سيئة . فالأسوة الحسنة في الرسول (ﷺ) ، وأما الأسوة بغيره إذا خالفه فهو الأسوة السيئة ، كقول المشركين حين دعتهم الرسل للتأسي بهم ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾[3] .

وأخرج عبد بن حميد بسند صحيح عن قتادة في قوله ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[4] . (أي قادة في الخير ودعاة هدى يؤتم بنا في الخير)[5] .

ونخلص من هذا أن القدوة الحسنة تنطبق على من يتبع ما جاء به محمد (ﷺ) وطبقاً لذلك يكون متبوعاً في كلامه وأفعاله ،

---

(١) الأحزاب ٢١ .

(٢) تفسير القرطبي ٨/٥٢٣٧ ط ـ الثقافة .

(٣) تفسير كلام المنان ٦/٢٠٨ .

(٤) الفرقان ٧٤ .

(٥) فتح الباري ١٣/٢٥١ .

ويكون متبوعاً إما لسبب تفوق بعلم أو بعبادة أو لقدمه في طريق الحق ، وكلها تندرج تحت اتباع الرسول (ﷺ) ، وعلى مقدار هذا الاتباع تزداد نسبة الاتباع أو تنقص .

أ) أهمية القدوة :

ويعتصر قلب الامام ابن القيم حزناً على ما يرى من أوعية للعلم ، يسيرون على الأرض ، ولكنه يرى نفرة الناس منهم فيصفهم أدق وصف ويذكر سبب تلك النفرة ، مبيناً أهمية القدوة الحسنة في حياة الناس فيقول :

(علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم فكلما قالت أقوالهم للناس : هلموا ، قالت أفعالهم : لا تسمعوا منهم فلو كان ما دعوا اليه حقاً ، كانوا أول المستجيبين له . فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قطاع الطرق)[٦] .

وتكمن أهمية القدوة في العملية التربوية في الأسباب التالية :

١ ــ إن المثال الحي المرتقى في درجات الكمال يثير في نفس البصير العاقل قدراً كبيراً من الاستحسان والاعجاب والتقدير والمحبة . ومع هذه الأمور تتهيج دوافع الغيرة لديه ، فإن كان

---

(٦) الفوائد ص ٦١ .

عنده في الأصل ميل إلى الخير ، وتطلع إلى مراتب الكمال ، وليس في نفسه عقبات تصده عن ذلك ، أخذ يحاول تقليد ما استحسنه وأعجب به ، بما تولد لديه من حوافز قوية تحفزه لأن يعمل مثله ، حتى يحتل درجة الكمال التي رآه يحتلها[٧] .

٢ ــ إن القدوة الحسنة المتحلية بالفضائل الممتازة تعطي الآخرين قناعة بأن بلوغ هذه الفضائل من الأمور الممكنة ، التي هي في متناول القدرات الانسانية وشاهد الحال أقوى من شاهد المقال[٨] .

٣ ــ إن مستويات الفهم للكلام عند الناس تتفاوت ، ولكن الجميع يتساوى أمام الرؤية بالعين المجردة لمثال حي ، فإن ذلك أيسر في إيصال المفاهيم والمعاني التي يريد الداعية المربي إيصالها للمقتدى . يقول ابن بطال معلقاً على الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : اتخذ النبي ﷺ خاتماً من ذهب ، فاتخذ الناس خواتيم من ذهب ، فقال النبي ﷺ : (**إني اتخذت خاتماً من ذهب فنبذه وقال : اني لن ألبسه أبداً ، فنبذ الناس خواتيمهم**)[٩] .

(فدل ذلك على أن الفعل أبلغ من القول)[١٠] .

---

(٧) الأخلاق الاسلامية ١/٢٠٣ .

(٨) الأخلاق الإسلامية ١/٢٠٤ .

(٩) البخاري ـ الفتح ٧٢٩٨ .

(١٠) فتح الباري ١٣/٢٧٥ .

٤ ـ إن الأتباع بشكل عام والأتباع الذين يربيهم القدوة بشكل خاص ، ينظرون إليه نظرة دقيقة دون أن يعلم هو أنه تحت رقابة مجهرية ، فرب عمل يقوم به لا يلقى له بالاً يكون في حسابهم من الكبائر وذلك أنهم يعدونه قدوة لهم ، ولقد سمعنا عن قدوات ملأت سمعتهم البلاد وسقطوا من أعين الناس في لحظات بسبب كلمة أو تصرف لم يكن متناسباً مع مكانتهم كقدوات للآخرين ، ولقد تنبه لخطورة هذا الأمر الفقيه أبو المنصور الدمياطي فأخذ يحذر القدوات قائلا :

أيها العالم إياك الزلل ... واحذر الهفوة ، فالخطب جلل
هفوة العالم مستعظمة ... إن هفا أصبح في الخلق مثل
وعلى زلته عمدتهم ... فبها يحتج من أخطأ وزل
لا تقل يستر علمي زلتي ... بل بها يحصل في العلم الخلل
إن تكن عندك مستحقرة ... فهي عند الله والناس جبل
فإذا الشمس بدت كاسفة ... وجل الخلق لها كل الوجل
وترامت نحوها أبصارهم ... في انزعاج واضطراب وزجل
وسرى النقص لهم من نقصها ... فغدت مظلمة منها السبل
وكذا العالم في زلته ... يفتن العالم طراً ويضل
يقتدى منه بما فيه هفا ... لا بما استعصم فيه واستقل
فهو ملح الأرض ما يصلحه ... إن بدا فيه فساد وخلل[11]

---

(١١) المدخل ـ لابن الحاج ١/١٠٧ ، ١٠٨ .

نعم إنه لخطب جلل أدرك جلله أبو جعفر الانباري صاحب الإمام أحمد عندما أخبر بحمل الامام أحمد للمأمون في الأيام الأولى للفتنة .

(فعبر الفرات فاذا هو جالس في الخان ، فسلم عليه وقال :

يا هذا ، أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك ، فوالله لئن أجبت الى خلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله وان أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير ، ومع هذا فإن الرجل ـ يعني المأمون ـ ان لم يقتلك فأنت تموت ، ولا بد من الموت فاتق الله ولا تجبهم إلى شيء . فجعل أحمد يبكي ويقول : ما قلت فأعاد عليه فعجل يقول : ما شاء الله ، ما شاء الله)[١٢] .

ب) شروط القدوة :

وتمر الأيام عصيبة على الإمام أحمد ، ويمتحن فيها أشد الامتحان ولم ينس نصيحة الانباري ، فها هو المروزي أحد أصحابه يدخل عليه أيام المحنة ويقول له (يا أستاذ قال الله تعالى : **ولا تقتلوا أنفسكم** فقال أحمد : يا مروزي اخرج ، انظر أي شيء ترى . قال : فخرجت إلى رحبة دار الخليفة فرأيت خلقاً من الناس لا يحصي عددهم إلا الله والصحف في أيديهم والأقلام والمحابر في أذرعتهم ، فقال لهم المروزي : أي شيء تعملون ؟ فقالوا : ننظر ما يقول أحمد

---

(١٢) مناقب الامام أحمد ٣١٤ .

فنكتبه ، قال المروزي : مكانكم . فدخل إلى أحمد بن حنبل فقال له : رأيت قوماً بأيديهم الصحف والأقلام ينتظرون ما تقول فيكتبونه فقال : **يا مروزي أضل هؤلاء كلهم ! أقتل نفسي ولا أضل هؤلاء**)[١٣] .

ومن أبرز أسباب أهمية القدوة أنها تساعد على تكوين الذاتية في المتربي دونما توجيه خارجي وهذه بالتالي تساعد المتربي على أن يكون من المستويات الجيدة في الدعوة :

١ ـ الايمان بالفكرة :

وهكذا تتجلى أهمية القدوة في حياة الدعاة ، وإنها لا تتكون في نفس الداعية حتى يكون هو أول من يؤمن بما يقول ، ثم يترجم هذا الايمان إلى عمل . . وفي ذلك يقول سيد رحمه الله : آمن أنت أولا بفكرتك ، آمن بها الى حد الاعتقاد الجاد ! عندئذ فقط يؤمن بها الآخرون !! وإلا فستبقى مجرد صياغة لفظية خالية من الروح والحياة ! لا حياة لفكرة لم تتقمص روح انسان ، ولم تصبح كائناً حياً دب على وجه الأرض في صورة بشر ! كذلك لا وجود لشخص ـ في هذا المجال ـ لا تعمر قلبه فكرة يؤمن بها في حرارة واخلاص)[١٤] .

وهذا فيما نحسبه هو الشرط الأول والأرضية التي ينطلق منها

---

(١٣) مناقب الامام أحمد ٣٣٠ .

(١٤) أفراح الروح ٢٥ ، ٢٦ .

الداعية لاستيفاء الشروط الأخرى حتى يكون بمستوى القدوة الذي نريد .

٢ ــ تعلم العلم :

فإذا كان العلم ضرورياً لكل مسلم ، فالداعية القدوة هو أكثر الناس حاجة لتعلم العلم ؛ لذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (**تعلموا قبل أن تسودوا**)[١٥] ، فالسيادة في الدعوة تحتاج إلى علم يتأكد فيه القدوة من صحة خطواته ، ويصحح فيه خطوات الآخرين .

٣ ــ حسن الخلق :

ومع إقرارنا بأنه لم يقرب من منزلة القوة إلا من حاز من الأخلاق ما أهله لأن يصل إلى هذه المنزلة إلا أن هناك أخلاقاً بارزة يحتاجها الداعية القدوة دائماً وبغيرها يصبح من المتعذر عليه النجاح في دعوة الناس والتعامل مع نفسياتهم المتعددة تعدد المعادن ، ومن أهمها ـ الصبر بجميع أنواعه ، والرحمة والرفق والتواضع والمخالطة ، هذا بجانب أخلاق كثيرة تتفرع من هذه الأخلاق يستعين بها الداعية القدوة على المحافظة على هذه المنزلة ومن ثم النجاح المستمر في دعوة الناس .

٤ ــ موافقة العمل للقول :

ويعتبره الشيخ عبدالكريم زيدان صاحب (أصول الدعوة)

---

(١٥) البخاري ـ فتح الباري ١/١٦٥ .

أصلاً من أصلين ترتكز عليهما (القدوة الحسنة) حين يقول : وأصول السيرة الحسنة التي بها يكون الداعي المسلم قدوة طيبة لغيره ترجع إلى أصلين كبيرين : حسن الخلق ، وموافقة العمل للقول . فإذا تحقق هذان الأصلان حسنت سيرة الداعي وكانت سيرته الطيبة دعوة صامتة إلى الإسلام ، وإن فاته هذان الأصلان ساءت سيرته ، وصارت دعوة صامتة منفرة عن الإسلام . فليتق الداعي ربه في هذا الأمر الخطير ولا يكون منفراً عن دين الله بسيرته وهو يريد الدعوة إليه بقوله)[١٦] .

٥ ــ عدم الانقطاع عن الأعمال :

عدم الانقطاع عن عمل ما ، كان يأمر به ، دون مبرر شرعي أو نسيان وترجع خطورة هذا الانقطاع إلى أمرين ، الأول هو دخوله في دائرة الذين يقولون ما لا يفعلون ، والأمر الثاني هو إحساس المتربي بعدم جدية ذلك الأمر وأهميته .

٦ ــ التثبت من صحة النقول :

سواء كانت أحاديث للرسول ﷺ عليه وسلم أو كلمات للصالحين . فالقدوة ما سمي بذلك إلا أنه هو المثال الذي يحتذى به ، فإذا كان القدوة لا يتثبت من صحة النقول يكون المقتدون كذلك ويقعون حتماً في إحدى الدائرتين التفريط أو الإفراط ذلك أن ما جاء به قدوتنا جميعاً محمد بن عبدالله ﷺ هو (الوسط) وكل ما زاد عليه

---

(١٦) أصول الدعوة ٤٦٨ .

أو نقص منه فهو في إحدى تلك الدائرتين .

٧ ــ الابتعاد عن المباحات :

يقول الامام ابن القيم : قال لي يوماً شيخ الاسلام ابن تيمية (**قدس الله روحه**) في شيء من المباح : هذا ينافي المراتب العالية ، وإن لم يكن تركه شرطاً في النجاة . ثم يقول ابن القيم : (**فالعارف يترك كثيراً من المباح إبقاء على صيانته ، ولا سيما إذا كان ذلك المباح برزخاً بين الحلال والحرام**)[١٧] .

إنها الصيانة التي نريدها للداعية القدوة وهو يزاول عملية الصعود في مدارج السالكين فحذارِ وأنت تصعد من أن تستهويك بعض مناظر الأرض الجذابة ، فتقف برهة أو تلتفت للوراء لإشباع رغبة النظر فتتأخر عن الصعود ، ذلك إن لم تهو إلى الأرض بعد أن صعدت منها .

وعملية الصعود هذه علم كيف يتقنها (يحيى بن يحيى) الذي أهداه الإمام مالك جزاءً على ذلك لقب (عاقل أهل الأندلس) وذلك أنه قد رحل إلى الإمام مالك وهو صغير وسمع منه وتفقه (وكان مالك يعجبه سمته وعقله ، روى أنه كان يوماً عند مالك في جملة أصحابه إذ قال قائل : قد حضر الفيل ، فخرج أصحاب مالك لينظروا إليه

---

(١٧) مدارج السالكين ٢/٢٦ .

غيره (أي وبقي يحيى مكانه) فقال لـه مالـك : لم تخرج فترى الفيل ، لأنه لا يكون بالأندلس ، فقال له يحيى : **إنما جئت من بلدي لأنظر إليك وأتعلم من هديك وعلمك ولم أجيء لأنظر إلى الفيل فأعجب به مالك وسماه (عاقل أهل الأندلس)**[١٨] .

إنه من المباح مشاهدة حيوان غريب . . ولكن وقت الداعية القدوة أضيق من أن يشغل شيئاً منه في مباح لا يجني من ورائه شيئاً لقضيته التي تشغله ليل نهار .

وإنه من المباح مشاهدة برنامج تلفزيوني خالياً مما حرم الله ، ولكن عندما يعلم الأتباع أنك ترى ذلك لا يرون بأساً في مشاهدة التلفزيون فيقعون في مشاهدة المحذور شرعاً وذلك بسبب عدم اكتمال الفهم الحقيقي للورع والتقوى والابتعاد عن الشبهات وما شابه ، وخاصة إذا كانوا في أيام البداية .

وإنه من المباح شراء سيارة ثمينة ذات منظر جذاب بطولها وعرضها وما بداخلها من وسائل للترفيه ، ولكن . . لا يدري ذلك المربي القدوة أن وراءه أتباعاً ينظرون إليه نظرة المناقض لكلامه الذي كان يقوله لهم وما زال ، عن الزهد وحقارة الدنيا وفتنتها ، فينخفض مستوى التلقي عند أولئك الأتباع دون أن يشعر المربي .

وأشياء كثيرة من المباح نقترفها أمام من نربيهم ، ثم نشتكي

---

(١٨) طبقات الفقهاء ١٥٢ .

من سلبية (غير أصلية) طرأت عليهم . دون علمنا بأننا من المتسببين في نشوء السلبية بسبب سهو عن محاسبة دائمة للنفس حتى تكون في حمى مما توشك أن ترتع فيه من مزالق .

٨ ــ المحاسبة الدائمة :

فعلى الداعية القدوة أن يعي أنه تحت رقابة دقيقة ممن يقوم بتربيتهم ، أو ممن يتخذونه قدوة لهم ، فيحاسب نفسه على كل كلمة أو تصرف ، صغر أم كبر ، حتى يتجنبه في مرات أخرى ، وحتى يكون على مستوى القدوة الذي لا يحيد عنه ، وهذا لا يتأتى إلا بمحاسبة دائمة مع شعور دائم بأنه موضع قدوة .

جـ) مبطلات القدوة :

وكما أن للشعائر التعبدية كالوضوء والصلاة والصيام والزكاة والحج مبطلات تبطلها ، فكذلك للقدوة مبطلات تبطلها سواء بسواء ، وأول هذه المبطلات :

١ ــ مخالفة العمل للقول :

ولا نستغرب عندما يطلق (ابن الحاج) على الخطورة التي تترتب على ذلك (السم القاتل) ويعلل ذلك بأن (الغالب على النفوس الاقتداء في شهواتها وملذاتها وعاداتها أكثر مما تقتدي به في التعبد الذي ليس لها فيه حظ . فإذا رأت ذلك من عالم وإن أيقنت أنه محرم أو مكروه أو بدعة ، تعذر نفسها في ارتكابها لذلك إن سلمت

من سم الجهل ، تقول لعل لهذا العالم ، العلم بجواز ذلك لم نطلع عليه أو رخص فيه العلماء فإذا رأت من هو أفضل منها في العلم والخير يرتكب شيئاً من ذلك ، فأقل ما فيه من القبح (الاستصغار والتهاون) بمعاصي الله تعالى وهو (السم القاتل)[١٩] .

وما ذكره ابن الحاج هي النتيجة الرئيسية التي تترتب على اقتراف هذا المبطل ، وتتبعها نتائج أقل منها أو مساوية لها من حيث الحجم ، وعليه كان عقاب الذي يخالف عمله قوله في الآخرة أشد العقاب .

روى البخاري في صحيحه قول الرسول ﷺ : (**يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه في النار فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون أي فلان ما شأنك ؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**)[٢٠] .

وتذكر أن المدعوّين (يريدون أن يروا فيك المعنى السامي الذي تتكلم فيه ، هم لا يريدون من يقول لهم خذوا قولي واتركوا فعلي ، بل يريدون رؤية أفعال تطابق أقوالاً)[٢١] .

---

(١٩) المدخل ـ لابن الحاج ١/١٠٧ .

(٢٠) البخاري ـ الفتح ٣٢٦٧ .

(٢١) مجلة المجتمع ـ العدد « ٤٩٣ » ـ الملتقى التربوي .

٢ ـ عدم الالتزام بالقول :

وتختلف عن سابقتها بأن هذه لا تكون فيمن يخالف عمله قوله متعمداً ، وإنما تكون فيمن لا يطبق ما يقول ، وليس على صفة الدوام ، وذلك لأسباب منها :

أ ـ عدم تقدير حجم العمل المترتب على قوله .

ب ـ عدم معرفة نوع العمل المترتب على قوله .

جـ ـ الحماسة غير الواعية .

د ـ عدم تقدير القوة التي يمتلكها لأداء ذلك العمل .

ومن ثم يواجه بذلك العمل فلا يستطيع أن يطبق ما قاله ودعا إليه ويتضح ذلك في قول ابن عباس رضي الله عنه : (كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لوددنا أن الله عز وجل دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به ، فأخبر نبيه ﷺ أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به ، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم أمره فقال الله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾[٢٢] .

ونغوص إلى أعماق أخرى من القرآن الكريم ليزداد المعنى وضوحاً في قول الله تعالى في بني اسرائيل : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ

---

(٢٢) تيسير العلي القدير ٤/٣٥٤ ، ٣٥٥ .

إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٢٣) .

(إن الحماسة الجماعية قد تخدع القادة لو أخذوا بمظهرها ، فيجب أن يضعوها على محك التجربة قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة فقد تقدم الملأ من بني إسرائيل - من ذوي الرأي والمكانة فيهم - إلى نبيهم في ذلك الزمان ، يطلبون اليه أن يختار لهم ملكاً يقودهم إلى المعركة مع أعداء دينهم الذين سلبوا ملكهم وأموالهم ومعها مخلفات أنبيائهم من آل موسى وآل هارون ، فلما أراد نبيهم أن يستوثق من صحة عزيمتهم على القتال ، قال لهم ﴿ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ﴾ استنكروا عليه هذا القول وارتفعت حماستهم إلى الذروة وهم يقولون له :﴿قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا﴾، ولكن هذه الحماسة البالغة ما لبثت أن انطفأت شعلتها ، وتهاوت على مراحل الطريق كما تذكر القصة وكما يقول السياق بالاجمال ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾(٢٤) .

---

(٢٣) البقرة ٢٤٦ .

(٢٤) الظلال ١/٢٦٢ .

٣ ـ الزلل بجميع صوره القولية والفعلية :

٤ ـ الانتصار للنفس :

والانتصار للنفس ، ظاهرة تنبىء عن عدم إخلاص لما يحمل من معاني سامية ، محاولا إخفاء الحقيقة في سبيل عدم الوقوع في دائرة الإحراج التي يعتبرها مساً لكرامته ومكانته بين متبعيه ومتى ما أحس الأتباع بهذه الصفة في المتبوع ، أزالوا ذلك الموصل الذي يوصل الكلمات والمعاني والمشاهدات إلى القلب وجعلوا للكلمات والمشاهدات مخارج تخرج منها كما دخلت ويمنعونها أن تستقر في قلوبهم فلا يدخل في القلوب إلا الخالص المخلص .

فهذا رسول الله ﷺ ـ قدوتنا جميعاً ـ يمر بقوم على رؤوس النخل فيقول (**ما يصنع هؤلاء ؟**) فقالوا : يلقحونه فقال رسول الله ﷺ (**ما أظن يغني ذلك شيئاً**) فأخبروا بذلك فتركوه . فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال : (**إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فإني إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به ، فإني لن أكذب على الله عز وجل**)[٢٥] .

بهذا التجرد الخالص لله وحده دون إشراك أي شيء معه يكون القدوة ناجحاً في دعوته وتكون كلماته مؤثرة مليئة بعنصر البناء فهو معترف بخطئه بأدب جم وتواضع ندر أن تراه بين الناس . فكيف لا

---

(٢٥) مسلم ٢٣٦١ .

يتبع قوم قدوتهم . وهو على هذا المستوى من التجرد البين للحق ، دون إشراك أي خاطرة للنفس تدعوه للانتصار .

د ـ كيف تتم التربية بالقدوة :

وتكون هذه التربية بتعريض الوجدان لخبرات ومشاهد يحس فيها حلاوة الفضائل الأخلاقية ، ومرارة الرذائل الأخلاقية ، إن الوجدان الأخلاقي ينمو ويتضخم بمختلف الخبرات والمشاهد التي تفجر فيه انفعالات استحسان الفضائل والكمالات الأخلاقية . عند تذوق حلاوتها والشعور بالمسرات التي تحصل بسببها ، وتفجر فيه انفعالات استقباح الرذائل والنقائض الأخلاقية عند تذوق مرارتها والشعور بالآلام التي تحصل بسببها)[٢٦] .

ونحن نقتطف هنا بعض الزهور من الروضة النبوية ، لنرى كيف استخدم الرسول ﷺ (القدوة الحسنة) في تربية أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ كأسلوب متميز عن باقي الأساليب في الدعوة .

ـ قوموا فانحروا :

يتبين في هذا المثال مدى فاعلية التربية الصامتة في تربية الأتباع ، ففي صلح الحديبية وبعد أن فرغ الرسول ﷺ من قضية الكتاب قال للصحابة رضي الله عنهم (**قوموا فانحروا ، ثم احلقوا**)

---

(٢٦) الأخلاق الإسلامية ١/ ١٩٥ .

يقول الراوي : فوالله ما قام منهم رجل واحد حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد ، قام فدخل على أم سلمة ، فذكر لها ما لقي من الناس فقالت أم سلمة : يا رسول الله : أتحب ذلك ؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنتك ، وتدعو حالقك فيحلق لك ، فقام ، فخرج ، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك : نحر بدنته ، ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غماً[٢٧] .

ـ إنها صفية :

فلا بد للقدوة أن يوضح بعض التصرفات التي يقوم بها للأتباع خاصة تلك التي تحتمل التأويل السيىء ، ومثالاً على ذلك ، اضطرار الداعية القدوة أحياناً أن يخفف من صلاة السنة أو أن يتكلم مع امرأة من محارمه أمام المتربي فإن لم يوضح للأتباع سبب تلك التصرفات ، فان ذلك يجعل المدعو يطبق تماماً ما رأى من قدوته ظاناً أن ذلك هو الصواب ، فتراه يخفف في صلاة السنة ولا يتورع عن مكالمة أية امرأة .

ولم تفت على مربي الرعيل الأول ﷺ أهمية هذا الأمر عندما جاءت صفية زوج الرسول ﷺ رضي الله عنها إلى رسول الله ﷺ

---

(٢٧) زاد المعاد ٣/ ٢٩٥ .

تزوره في اعتكافه في المسجد في العشر الأواخر من رمضان فتحدثت عنده ساعة ثم قامت تنقلب فقام النبي ﷺ معها يقلبها ، حتى إذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة مرّ رجلان من الأنصار فسلما على رسول الله ﷺ ، فقال لهما النبي ﷺ (**على رسلكما**[٢٨] **إنما هي صفية بنت حيي**) فقالا : سبحان الله يا رسول الله ، وكبر عليهما ، فقال النبي ﷺ : (**ان الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم ، واني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً**)[٢٩] .

يقول ابن حجر : وفيه التحرز من التعرض لسوء الظن والاحتفاظ من كيد الشيطان والاعتزار ، ويقول ابن دقيق العيد : (**وهذا متأكد في حق العلماء ومن يقتدى به فلا يجوز لهم أن يفعلوا** فعلا يوجب سوء الظن بهم وإن كان لهم فيه مخلص لأن ذلك سبب إلى ابطال الانتفاع بعلمهم ، ومن ثم قال بعض العلماء : ينبغي للحاكم أن يبين للمحكوم عليه وجه الحكم إذا كان خافياً نفياً للتهمة)[٣٠] .

ـ أنا النبي لا كذب :

إن مئات الكلمات والمواعظ والخطب الرنانة في الثبات ، لا تفعل فعل موقف الرسول ﷺ في حنين ، وجنود المسلمين يفرون

---

(٢٨) أي على هنيتكما في المشي فليس هنا شيء تكرهانه .

(٢٩) البخاري ـ الفتح ٢٠٣٥ .

(٣٠) فتح الباري ٤/ ٢٨٠ .

والأعداء يرشقونهم بالنبل .

أيعظهم بالثبات في مثل هذا الموقف ؟ إن الجنود في مثل تلك الحالة من الهلع والخوف لفي أشد الحاجة لموقف من القدوة يرجعهم إلى الجادة التي انحرفوا عنها ، فهذا هو العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه شاهد عيان يروي ماذا فعل القائد القدوة في ذلك الموقف الحرج قال : شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين ، فلزمت أنا وأبوسفيان بن الحارث بن عبدالمطلب رسول الله ﷺ فلم نفارقه ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي ، فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قِبَلَ الكفار ، قال عباس : وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها إرادة ألا تسرع وأبوسفيان آخذ بركاب رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : أي عباس نادِ أصحاب السمرة فقال عباس ـ وكان رجلا صيتاً ـ فقلت بأعلى صوتي أين أصحاب السمرة[٣١] . وفي رواية ثانية ـ فنزل واستنصر وقال : أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب[٣٢] . وماذا كانت نتيجة هذا الموقف من الرسول ﷺ القدوة ؟

يقول العباس : فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة

---

(٣١) مسلم ١٧٧٥ .

(٣٢) مسلم ١٧٧٦ .

البقر على أولادها ، فقالوا : يا لبيك يا لبيك)[٣٣] .

ـ لم تراعوا :

إن الأمثلة الفذة في تاريخ الاسلام التي ضربها الصحابة ومن تبعهم ، رضوان الله عليهم . بالاقدام والشجاعة ما هي إلا نتاج تربية القدوة الأول ﷺ .

عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس ، وكان أجود الناس وكان أشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قِبَلَ الصوت . فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً وقد سبقهم إلى الصوت وهو على فرس لأبي طلحة عرى في عنقه السيف وهو يقول (لم تراعوا . لم تراعوا)[٣٤] .

إن المرء ليقف مشدوهاً لهذه الشجاعة النادرة ، ينطلق الناس قبل الصوت مجرد سماعهم له ، فيجدون القدوة قد سبقهم بل وقد رجع وهم في بداية الانطلاق ، إن هذه الدعوة الصامتة للشجاعة هي التي خرجت أعمى كابن أم مكتوم ـ يصر على الجهاد ويحمل الراية ويقاتل حتى يقتل ، وهي التي خرجت أعرج ـ كعمرو بن الجموح ـ يبكي لأنه أعفى من الجهاد ـ ثم يطلب بإلحاح مشاركة المجاهدين ويقول : (إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة) ويقاتل حتى

---

(٣٣) مسلم ١٧٧٥ .

(٣٤) مسلم ٢٣٠٧ .

يقتل ، ونماذج غيرها لا نستطيع حصرها .

كرهت أن يحبسني :

وها هم الصحابة رضوان الله عليهم يرون قدوتهم ، يطبق ما يقول فيرون ترجمة عملية للأقوال تؤكد المعاني التي يريد الرسول ﷺ تربيتهم عليها .

روى البخاري في صحيحه عن عقبة قال : (صليت وراء النبي ﷺ بالمدينة العصر ، فسلم ، ثم قام مسرعاً فتخطى رقاب الناس إلى بعض حجر نسائه ، ففزع الناس من سرعته فخرج عليهم فرأى أنهم عجبوا من سرعته فقال : ذكرت شيئا من تبر[٣٥] عندنا فكرهت أن يحبسني ، فأمرت بقسمته)[٣٦] .

ترى هل كان التأثير هو ذاته لو اكتفى الرسول ﷺ بدعوتهم للانفاق دون رؤيتهم هذا الاهتمام والتخطي للرقاب بعد الصلوات لمجرد تذكره لقليل من الذهب كان عنده ؟؟

ينزغ الشيطان في نفوس بعض المربين أن الانفاق أمام المتربي من الرياء فيحجم عن أصل من أصول العملية التربوية وبالتالي يفاجأ هذا الأخ بظهور علامات من الشح على من يربيهم مع أنه أعطاهم دروساً

---

(٣٥) ذهب غير مصاغ .

(٣٦) البخاري ـ الفتح ٨٥١ .

كثيرة عن الإنفاق ، وينسى (حقيقة) وهي هل رأوا واقعاً عملياً للإنفاق من مربيهم ؟

هـ ـ صفحات مملوءة بالقدوات :

لا يظن ظان أننا نتكلم عن مثاليات لا يمكن تحققها في واقع الناس . فإن تاريخنا مليء بنماذج من القدوات عقمت الأمم أن تأتي بمثلهم ولولاهم لما استحق تاريخنا أن يسمى بتاريخ ، ونتصفح صفحات التاريخ لنقف عند بعض الصفحات التي اختبأت بين آلاف الصفحات لتكون جواباً لذلك الظان .

ـ لا يخاف إلا الله :

قال ابن المبارك ـ لقد كنا يوماً في المسجد الجامع فوقعت حية فسقطت في حجر أبي حنيفة ، فهرب الناس غيره ما رأيته زاد على أن نفض الحية وجلس[٣٧] .

ولنا أن نتصور لو أن أبا حنيفة هرب من الحية كما هرب الآخرون ، هل كانوا سيصغون له عندما يعظهم ويربيهم ؟ وعل سيتجرأ أن يربيهم على معاني الشجاعة والجهاد ؟

ـ قدوات يموتون في حديدهم :

يوسف بن يحيى البويطي ، خليفة الإمام الشافعي ، (وكانت الفتاوى ترد على البويطي من السلطان ، فمن دونه وهو متبوع في

---

(٣٧) أخبار أبي حنيفة ص ٣ .

صنائع المعروف كثير التلاوة ، لا يمر يوم ولا ليلة غالباً حتى يختم ، فسعى به من يحسده وكتب فيه إلى ابن أبي دؤاد بالعراق فكتب إلى والي مصر أن يمتحنه ـ أي يسأله هل القرآن مخلوق أم غير مخلوق[٣٨] وهي بدعة المعتزلة ، وكان على رأسهم ابن أبي دؤاد ـ فامتحنه فلم يجب ـ أي بخلق القرآن ـ فقال له : قل فيما بيني وبينك ، قال : (**إنه يقتدي بي مائة ألف ولا يدرون المعنى**) وكان أمر أن يحمل إلى بغداد في أربعين رطل حديد ـ يقول الربيع صاحب الشافعي ـ ولقد رأيته على بغل وفي عنقه غل وفي رجليه قيد وبين الغل والقيد سلسلة حديد وهو يقول ـ إنما خلق الله الخلق بكن فإذا كانت مخلوقة فكأن مخلوقاً خلق بمخلوق ، ولئن أدخلت عليه لاصدقنه ـ **ولأموتن في حديدي هذا حتى يأتي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم**[٣٩] .

ـ عز الخطيب وذل العلوي :

والتجرد من عبودية العبيد وعبودية المال وإخلاصها لله صفة لازمة للداعية المربي ومن دونها يصبح من المتعذر عليه أن ينشر دعوته ، إذ إن الناس جبلوا على اتباع المتجرد الذي لا ينوي بعمله إلا وجه الله .

فقد جاء في ترجمة الخطيب البغدادي ، أنه (دخل عليه بعض العلوية وفي كمه دنانير فقال للخطيب فلان يسلم عليك ويقول لك

---

(٣٨) رأى السلف في هذه المسألة ـ أن القرآن كلام الله غير مخلوق لأنه لو كان مخلوقاً لجرى عليه ما يجري للمخلوق من التغير .

(٣٩) طبقات الشافعية ١ / ٢٧٥ .

اصرف هذا في بعض مهماتك ، فقال الخطيب : لا حاجة لي فيه ، وقطب وجهه ، فقال العلوي : كأنك تستقله ونفض كمه على سجادة الخطيب وطرح الدنانير عليها فقال : هذه ثلثمائة دينار ، فقام الخطيب محمراً وجهه وأخذ السجادة وصب الدنانير على الأرض وخرج من المسجد[٤٠] .

وحركة (نفض السجادة) التي لم تستغرق دقيقة واحدة من الخطيب ، ربت أتباعه الذين كانوا في المسجد على معاني العزة وحقارة العبودية لغير الله ، ظهرت في قول أحدهم (ما أنسى عز خروج الخطيب وذل ذلك العلوي وهو قاعد على الأرض يلتقط الدنانير من شقوق الحصير ويجمعها)[٤١] .

ـ درساً في الورع :

هذا هو الحافظ عبدالعظيم المنذري صاحب (مختصر صحيح مسلم) يعطي درساً عملياً في الورع لصاحبه الحافظ الدمياطي (فقد خرج من الحمام وقد أخذ منه حرها فما أمكنه المشي فاستلقى على الطريق إلى جانب حانوت . فقال له الدمياطي : يا سيدي ، أنا أقعدك على مسطبة الحانوت ـ وكان الحانوت مغلقاً ـ فقال وهو في تلك الشدة : **بغير إذن صاحبه كيف يكون وما رضي**)[٤٢] .

---

(٤٠) طبقات الشافعية ٣/١٤ .

(٤١) طبقات الشافعية ٣/١٤ .

(٤٢) طبقات الشافعية ٥/١٠٩ .

ـ الشافعي الصغير :

جاء في ترجمة أبو العباس البغدادي والمسمى بالشافعي الصغير أنه (ما زالت عناية الوزير به حتى رشحه للقضاء فامتنع أشد الامتناع ، فقال : إن امتثلت ما مثلته لك وإلا أجبرتك عليه ، قال : افعل ما بدا لك ، فأمر الوزير حتى سمّر عليه بابه ، وعاتبه الناس على ذلك فقال : أردت أن يتسامع الناس أن رجلا من أصحاب الشافعي عومل على تقليد القضاء بهذه المعاملة وهو مصر على إبائه زهداً في الدنيا)[٤٣] وكانت هذه الحادثة خير واعظٍ للناس الذين عاصروها بالزهد في الدنيا .

وبعد . . فمعاذ الله أن نستخلص من هذه الدراسة إهمال دور الكلمة في العملية التربوية ، إنما أردنا إخراج بعض المعاني التي غارت في الأرض ، ليتذكر فيها من نسي ويعلم فيها من جهل أهمية القدوة في العملية التربوية .

---

(٤٣) طبقات الشافعية ٢/٩٢ .

قال الله تعالى :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران ١٥٩] .

قال رسول الله ﷺ :

(ان الله رفيق يحب الرفق ويرضاه ويعين عليه ما لا يعين على العنف) الطبراني عن معدان (ص ج ص ١٧٦٦) .

توطئـــة . . .

يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه :
(القلوب وحشية فمن تألفها أقبلت عليه) .

يصور القلوب وكأنها دواب وحشية لا تعرف الألفة في طبعها ، تنفر إذا قرب منها إنسان وتهرب بعيداً بعيداً ، أو أنها بدافع الدفاع عن النفس تهجم عليه لتؤذيه ، فمن كان صاحب فطنة في ترويض هذه الوحوش وتأليفها فإنه يستطيع باذن الله أن يقلب طبيعتها الوحشية إلى طبيعة أليفة فتقبل عليه وتلتصق فيه كما تلتصق الهرة إذا مسحت على ظهرها مداعباً .

إن القدوة وحدها لا تكفي في النجاح في جذب قلوب الناس التي من طبيعتها ـ كما قال الإمام علي رضي الله عنه ـ إنها وحشية . فلا بد من مبالغة في الرفق والمداراة للنفسيّات المتعددة تعدد المعادن ولا بد من رفق يناسب كل معدن من هذه المعادن ، حينها تتجمع القلوب على ذلك الداعية كما يتجمع النمل على قطعة تمر ملقاة في مكان من الأمكنة لما ترى فيه من رفق ورأفة باعوجاج نفسياتها وانحناء طباعها واتباع لأهوائها .

(الصفة الثانية) :

الـــرفق

الرفق هذه الكلمة الجميلة التي رفقت بها كثيراً قبل إيرادها في هذه الورقات ، ووضعتها بيسر على الخطوط كي يتلاءم معناها مع مكانها الذي وضعت فيه ، وحتى تصل للأخ المربي لينة سهلة يستطيع بعدها استثمار معانيها وترجمتها إلى واقع حي مع من يدعوهم ويربيهم .

١ ـ ضرورة الرفق في حياة الدعاة :

يقول الله سبحانه وتعالى مخاطباً نبيه ﷺ ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾(١) .

---

(١) آل عمران ١٥٩ .

يقول سيد قطب رحمه الله : فالناس في حاجة إلى كنف رحيم وإلى رعاية فائقة وإلى بشاشة سمحة وإلى ود يسعهم ، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم ، في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء ويحمل همومهم ولا يعنيهم بهمه ، ويجدون عنده دائماً الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضاء وهكذا كان قلب رسول الله ﷺ)[٢] .

ويضع شيخ الاسلام ابن تيمية الرفق في المرتبة الثانية بعد شرط الفقه ، ويليه الحلم في الشروط الأساسية التي يتحلى بها الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر (الداعية) ثم يورد قول أحد علماء السلف (لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به فقيهاً فيما ينهي عنه ، رفيقاً فيما يأمر به رفيقاً فيما ينهى عنه ، حليما فيما يأمر به حليما فيما ينهي عنه)[٣] .

٢ ـ الرفق بأخذ هذا الدين :

إن الرفق في أخذ هذا الدين هو العامل الرئيسي في تكوين صورة متزنة عند الداعية المسلم ، وإن صورة الاتزان هذه تكمن في التعامل مع الفطرة وعدم معارضتها بما لا تطيق .

---

(٢) الظلال (١/ ٥٠١) ط ـ الشروق .

(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠).

وإن الأيام تخبرنا على مدى التاريخ الاسلامي ، أنه ما من مسلم يأخذ هذا الدين بصورة غير طبيعية بها نوع من العنف مع نفسه وفطرته ، إلا نتج عن ذلك إحدى نتيجتين : إما الجنون أو الارتداد ، وهناك نتيجة ثالثة نابعة من النتيجة الأولى ، وهي التقوقع وعزلة الناس وهو مرض نفسي ناتج من ذلك الأخذ غير المتزن ، لذلك كله حذر الرسول ﷺ حينما قال : « **إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق** »[٤] .

الرفق في أخذ تعاليمه ، والرفق في تطبيقها ، ولا يظن ظان أن هذا إشارة إلى فعل بعض ما نهى عنه بحجة الرفق بأخذ هذا الدين ، إنما الحديث يتعلق بالأوامر دون النواهي (**ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، ما أمرتكم به فإفعلوا منه ما استطعتم**)[٥] .

وكذلك لا يظن ظان أن الشدة بأخذ هذا الدين وترك الرفق من التقوى ، وذلك أنه (جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال أحدهم : أما أنا فأصلي الليل أبداً وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر . وقال آخر أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، فجاء رسول الله ﷺ فقال : (**أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن**

---

(٤) أخرجه أحمد (٣/١٩٩) عن أنس ، وحسنه الألباني (ص .ج . ص ٢٢٤٢) .

(٥) مسلم (١٣٣٧) .

سنتي فليس مني)[٦] .

وقوله ﷺ : (**إن الدين يسر ولن يشادّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه ، فسددوا وقاربوا وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة**)[٧] .

قال ابن حجر ـ والمشادّة بالتشديد ، المغالبة يقال شاده يشاده مشادة إذا قاواه ، والمعنى لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب .

وقال ابن المنير ـ في هذا الحديث علم من أعلام النبوة ، وقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متنطع في الدين ينقطع ، وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة فإنه من الأمور المحمودة بل منع الإفراط المؤدي إلى الملال أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل أو إخراج الفرض عن وقته ، كمن بات يصلي الليل كله ويغالب النوم إلى أن غلبته عيناه في آخر الليل فنام عن صلاة الصبح في الجماعة أو إلى أن خرج الوقت المختار أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة)[٨] .

---

(٦) البخاري (فتح الباري ٥٠٦٣) السلفية .

(٧) البخاري (فتح الباري ٣٩) السلفية .

(٨) فتح الباري (ج ١ ، ص ٩٤).

٣ ـ الرفق بالحيوان والنبات والجماد :

والرفق بعد ذلك صفة من صفات الدعاة ، ومستوى معين لا يبلغه إلا من تجسمت فيه هذه الصفة في جميع حالاتـه ، فإنـه لا يتصور أن يمتلك داعية هذه الصفة مع المدعوّين ! ، وهو ما زال عنيفا مع الحيوان والنبات والجماد .

وحتى تتأصل صفة الرفق فيه لا بد أن تزول صفة العنف منه ويستبدلها بالرفق ، وعندما يجتاز تلك المرحلة ـ يكون للإنسان عنده الأولوية بالرفق من الحيوان ، ولعل هذا أحد الأسرار في تربية الله تعالى لرسله على ذلك ، فما أرسل رسولا إلا كان راعيا .

ونلاحظ من خلال أحاديث كثيرة توجيه الرسول ﷺ للصحابة بالرفق بالحيوان كمرحلة ضرورية لا بد للداعية من اجتيازها . فعن عائشة زوج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال : (**ان الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه**) وفي رواية أخرى ، ركبت عائشة بعيراً فكانت فيه صعوبة فجعلت تردده فقـال لها رسـول الله ﷺ : (**عليك بالرفق**) ثم ذكر مثله[٩] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (**بينما رجل يمشي فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج فإذا**

---

(٩) مسلم (٢٥٩٤) .

هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي ، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه ، ثم رقى فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له ، قالوا يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً ؟ قال : في كل كبد رطبة أجر)[١٠] .

قال ابن حجر (وفيه الحث على الإحسان إلى الناس لأنه إذا حصلت المغفرة بسبب سقي الكلب فسقى المسلم أعظم أجراً)[١١] .

بل إن الأمر ليصل إلى أن يغفر الله لامرأة تزاول أرذل المهن وهي من أرذل الأمم بسبب تمثلها بصفة الرفق للحيوان .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **(بينما كلب يطيف بركيه[١٢] قد كاد يقتله العطش إذ رأته بغي من بغايا بني اسرائيل فنزعت موقها فاستقت له به ، فسقته إياه فغفر لها به)**[١٣] .

ويأخذ الرسول ﷺ بيد الأخ الداعية ليرفعه إلى درجة أخرى من درجات الرفق ليتعلم فيها كيف يرفق وهو يقوم بعملية ذبح الحيوان .

---

(١٠) البخاري (فتح الباري ٢٣٦٣) السلفية .
(١١) فتح الباري (ج ٥ ، ص ٤٢) .
(١٢) الركيه : البئر .
(١٣) مسلم (٢٢٤٥) .

فعن شداد بن أوس قال : سنتان حفظتهما عن رسول الله ﷺ قال : (**إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح ، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته**)[١٤] .

قال الامام النووي : (وليحد بمعنى وليرح ذبيحته بإحداد السكين وتعجيل إمرارها وغير ذلك ، ويستحب أن لا يجد السكين بحضرة الذبيحة وألّا يذبح واحدة بحضرة أخرى ولا يجرها إلى مذبحها . وقوله ﷺ (**فأحسنوا القتلة**) عام في كل قتيل من الذبائح[١٥] .

ويرتقي الأخ الداعية إلى مستوى أبعد من ذلك ليصغي إلى النبي الحبيب ﷺ يعلمه فيه صورة أخرى من هذا الخلق الحميد ، صورة الرفق في العقاب .

وهو يقول : (**نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة ، فأمر بجهازه فأخرج من تحتها ثم أمر ببيتها فأحرق بالنار فأوحى الله إليه ، فهلا نملة واحدة**)[١٦] .

صورة تؤدي بالأخ الداعية أن ينكسر قلبه على نملة غرقت

---

(١٤) مسلم (١٩٥٥) .

(١٥) شرح النووي (١٣/١٠٧) .

(١٦) البخاري (فتح الباري ٣٣١٩) .

بالماء فيمد أنامله لها فيخرجها ويضعها بعيداً عن الخطر ، هكذا يربي الرسول ﷺ أتباعه ليبلغوا مستوى الرفق بالانسان .

٤ ـ عندما تنضج الثمار :

إن هذه المراحل التي يجتازها الداعية لكي يصل إلى مستوى الرفق بالإنسان لهي كالبذور عندما تغرس في التربة ثم تظهر علامات النمو عليها بانشقاقها وخروج خط أخضر مائل إلى اصفرار ، ما يلبث حتى يكون وريقات ثم ساق لينة ثم تنمو كشجرة ذات أغصان وثمار ، ولندع سيد رحمه الله يحدثنا عن هذا النمو فيقول : (عندما تنمو في نفوسنا بذور الحب والعطف والخير ، نعفي أنفسنا من أعباء ومشقات كثيرة ! إننا لن نكون في حاجة إلى أن نتملق الآخرين لأننا سنكون يومئذ صادقين مخلصين ، إذ نزجي إليهم الثناء ، إننا سنكشف في نفوسهم عن كنوز من الخير وسنجد لهم مزايا طيبة نثني عليها حين نثني ونحن صادقون . ولن يعدم إنسان ناحية خيرة أو مزية حسنة تؤهله لكلمة طيبة ولكننا لا نطلع عليها ولا نراها إلا حين تنمو في نفوسنا بذرة الحب ، كذلك لن نكون في حاجة لأن نحمل أنفسنا مؤونة التضايق منهم ولا حتى مؤونة الصبر على أخطائهم وحماقاتهم لأننا سنعطف على مواضع الضعف والنقص ولن نفتش عليها لنراها يوم تنمو في نفوسنا بذرة العطف ! وبطبيعة الحال لن نجشم أنفسنا عناء الحقد عليهم أو عبء الحذر منهم ، فإنما نحقد على الآخرين لأن بذرة الخير لم تنم في نفوسنا نمواً كافياً ونتخوف منهم لأن عنصر

الثقة في الخير ينقصنا)[١٧] .

٥ ـ مداراة وليست مداهنة :

تحت ترجمة (المداراة مع الناس) أورد الإمام البخاري حديث عائشة (إنه استأذن على النبي ﷺ رجل فقال : (**ائذنوا له فبئس ابن العشيرة ، أو بئس أخو العشيرة . فلما دخل ألاَنَ له الكلام فقلت له يا رسول الله : قلتَ ما قلتَ ، ثم ألَنْتَ له في القول . فقال : أي عائشة إن شر الناس منزلة عند الله من تركه ـ أو ـ ودعه الناس اتقاء فحشه**)[١٨] .

قال ابن بطال : المداراة من أخلاق المؤمنين وهي خفض الجناح للناس ولين الكلمة وترك الإغلاظ لهم في القول وذلك من أقوى أسباب الألفة وظن بعضهم ان المداراة هي المداهنة فغلط لأن المداراة مندوب إليها ، والمداهنة محرمة ، والفرق أن المداهنة من الدهان وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه ، وفسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه ، والمداراة هي الرفق بالجاهل في التعليم وبالفاسق في النهي عن فعله وترك الاغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه ، والانكار عليه بلطف

---

(١٧) أفراح الروح (ص ١٢ ، ١٣) .

(١٨) البخاري (فتح الباري ٦١٣١) .

القول والفعل ولا سيما إذا احتيج إلى تألفة ونحو ذلك[١٩] .

٦ ـ الرفق بالتبليغ :

وكأني أرى الإمام ابن القيم أمامي تبدو علامات الحزن في قسمات وجهه ، يخرج الزفرات من جوفه لشدة ما رأى من إعراض الناس عن الالتزام بهذا المنهج فيتعجب ويقول : (**مَن أعجب الأشياء أن تعرفه ثم لا تحبه وأن تسمع داعية ثم تتأخر عن الإجابة وأن تعرف قدر الربح في معاملته ثم تعامل غيره ، وأن تعرف قدر غضبه ثم تتعرض له : وأن تذوق ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلب الأنس بطاعته ، وأن تذوق عصرة القلب ، عند الخوض في غير حديثه والحديث عنه ثم لا تشتاق إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته ، وأن تذوق العذاب عند تعلق القلب بغيره ولا تهرب منه إلى نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه ، وأعجب من هذا علمك أنك لا بد لك منه وأنك أحوج شيء إليه وأنت عنه معرض وفيما يبعدك عنه راغب**)[٢٠] .

ولعل شيئا من العجب يزول حين نعلم أن فلانا من الناس لم يعرض إلا بسبب أحد الدعاة الذي لم يراع مسألة الرفق في تبليغه للدعوة ، وتاريخ الدعوة ينبئنا بكثير من حوادث الاعراض بسبب اختفاء عنصر الرفق في تبليغ الدعوة ، لذلك كله لم يكن غريبا على ابن مسعود رضي الله عنه عندما قال له رجل يا أبا عبدالرحمن ،

---

(١٩) فتح الباري (ج ١٠ ، ص ٥٢٨) .

(٢٠) الفوائد (ص ٤٧) .

لوددت انك ذكرتنا كل يوم ، وكان يذكر الناس في كل خميس ـ فرد عليه تلميذ النبوة بجواب مليء بفقه الدعوة . (**أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم وأني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا**)[٢١] .

يخاف السآمة على جيل التابعين فكيف بجيل القرن العشرين !!! ولا ينفرد ابن مسعود بهذا الفقه دون الصحابة ، بل ان ذلك سمة بارزة فيهم رضوان الله عليهم جميعا .

فهذا عمر رضي الله عنه يقول على المنبر :

(**أيها الناس لا تبغضوا الله إلى عباده ، فقيل كيف ذاك أصلحك الله ؟ قال يجلس أحدكم قاصاً فيطول على الناس حتى يبغض إليهم ما هم فيه ، ويقوم أحدكم إماما فيطول على الناس حتى يبغض إليهم ما هم فيه**)[٢٢] .

وهذا ابن عباس رضي الله عنه يقول :

(**حدث الناس كل جمعة فإن أكثرت فمرتين ، فإن أكثرت فثلاثاً ، ولا تمل الناس من هذا القرآن ولا تأت القوم وهم في حديث فتقطع عليهم حديثهم ، وقال انصت فإذا أمروك فحدثهم وهم يشتهونه وإياك والسجع في الدعاء فإني عهدت رسول الله ﷺ وأصحابه لا يفعلونه**)[٢٣] .

---

(٢١) البخاري (فتح الباري ٧٠) .

(٢٢ ، ٢٣) الآداب الشرعية (ج ٢ ، ص ١٠٨) .

ولم يبتعد ابن حجر عن فهم الصحابة كثيراً عندما استخلص من حديث ابن مسعود (**استحباب ترك المداومة في الجد في العمل الصالح خشية الملال ، وإن كانت المواظبة مطلوبة لكنها على قسمين : إما كل يوم مع عدم التكلف ، وإما يوما بعد يوم فيكون يوم الترك لأجل الراحة ليقبل على الثاني بنشاط ، وإما يوم الجمعة ويختلف باختلاف الأحوال والأشخاص والضابط الحاجة مع مراعاة وجود النشاط**[٢٤] .

وإن أخذت بأقوال الصحابة وفقههم فإنك في مأمن من أن تكون من النفر الستة الذين ذكرهم ابن عبدالبر حين قال : كان يقال ستة إذا أهينوا فلا يلومون إلا أنفسهم ، الذاهب إلى مائدة لم يدع إليها ، وطالب الفضل من اللئام ، والداخل بين اثنين في حديثهما من غير أن يدخلاه فيه ، والمستخف بالسلطان ، والجالس مجلساً ليس له بأهل ، والمقبل بحديثه على من لا يسمع منه ولا يصغي إليه)[٢٥] .

٧ ـ الرفق مع أهل الكتاب :

يقول الله تعالى : ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ

---

(٢٤) فتح الباري (ج ١ ، ص ١٦٢) .

(٢٥) الآداب الشرعية (ج ٢ ، ص ١٠٨) .

أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾(٢٦) .

يقول صاحب الظلال : وذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عوداً فهؤلاء هم الذين يصلحون لحملها إذن والصبر عليها . . فهم عليها مؤتمنون وذلك لكي تعز هذه الدعوة عليهم وتغلو بقدر ما يصيبهم في سبيلها من عنت وبلاء ، وبقدر ما يضحون في سبيلها من عزيز وغال فلا يفرطوا فيها بعد ذلك مهما تكن الأحوال) ثم يقول (ثم لكي يشعر المعارضون لها في النهاية أنه لا بد فيها من خير ، ولا بد فيها من سر يجعل أصحابها يلاقون في سبيلها ما يلاقون وهم صامدون فعندئذ ينقلب المعارضون لها إليها . . أفواجا . . في نهاية المطاف)(٢٧) وهي كذلك فرصة يربى فيها الداعية نفسه على تحمل أذى أهل الكتاب ويتعلم كيف يحلم عليهم ، ليس خضوعاً ومذلة إنما نظرة علوية خالية من الكبر مليئة بعزة الإيمان ، ويستشعر أنهم في وحل الجاهلية .

عن عائشة رضي الله عنها أنَّ يهود أتوا النبي ﷺ فقالوا : السام عليكم ، فقالت عائشة : عليكم ولعنكم الله وغضب الله عليكم قال . . **مهلاً يا عائشة ، عليك بالرفق ، وإياك والعنف والفحش . قالت : أو لم تسمع ما قالوا ؟ قال : أو لم تسمعي ما قلت رددت**

---

(٢٦) ال عمران (١٨٦) .

(٢٧) الظلال (ج ١ ، ص ٥٣٩) .

عليهم ، فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم في)[٢٨] .

٨ ـ الرفق مع الجهال :

عن يحيى بن سعيد قال : سمعت أنس بن مالك قال : جاء أعرابي فبال في طائفة المسجد ، فزجره المسجد ، فنهاهم النبي ﷺ فلما قضى بوله أمر النبي ﷺ بذنوب من ماء فأهريق عليه[٢٩] .

إنها قمة من قمم الرفق لا يبلغها إلا من اتصل بمشكاة النبوة اتصالا لا يعرف الملل ، وذلك نابع من استشعار الرسول ﷺ بأن هذا التصرف الشاذ لا ينتج إلا من جاهل ـ ولنا أن نسأل أنفسنا ـ هل سيكون لنا نفس الموقف الذي وقفه الرسول ﷺ من الأعرابي إذا ما شاهدنا يوما تصرفا شاذاً من أحد الناس ؟ وهل سنرفق به ولا نعنفه وننصحه بهدوء أن يقلع عن ذلك ؟ أم أننا سنسيء الظن فيه ، ونحسبه قد تعمد ذلك ونثور كما ثار الصحابة رضوان الله عليهم في بداية الأمر !!

وقبل التسرع بالاجابة على هذه التساؤلات دعونا نستمع لصاحب الفتح وهو يقول : (**أمرهم بالكف عنه للمصلحة الراجحة وهو دفع أعظم المفسدتين باحتمال أيسرهما ، وتحصل أعظم المصلحتين بترك أيسرهما ، وفيه الرفق بالجاهل وتعليمه ما يلزمه من**

---

(٢٨) البخاري (فتح الباري ٦٠٣٠) .

(٢٩) البخاري (فتح الباري ٢٢١) .

غير تعنيف إذا لم يكن ذلك منه عناداً ، ولا سيما إن كان ممن يحتاج إلى استئلافه)[٣٠] .

وهي ليست الصورة الوحيدة من صور الرفق بالجاهل في سيرة الرسول ﷺ . فعن أنس رضي الله عنه قال : **كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجذبه بردائه جذبة شديدة فنظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ . وقد أثر بها حاشية الرداء من شدة جذبته ، ثم قال : يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء**[٣١] .

وبشيء من الصراحة نسأل أنفسنا إذا ما صادف جاهل أحدنا في حياته اليومية وتجاوزه بسيارته بصورة خطرة مما اضطر هذا الأخ أن يتلافى الحادث بصورة خطرة أيضاً . . هل سيسبه ويكيل عليه اللعنات أم أنه سيدعو له بالهداية ويسامحه وإن كان الحق عليه ؟؟

ونثب من محكمة النفس إلى عالم السيرة مرة أخرى لنرى الرسول ﷺ يصور لنا أعلى قمة من قمم الرفق بالجاهل فيقول : (**يحكى أن نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول اللهم اغفر لقومي فإنهم لايعلمون)**[٣٢] . يسيئون له ويدعو لهم ويلتمس لهم

---

(٣٠) فتح الباري (ج ١ ، ص ٣٢٤) .

(٣١) متفق عليه .

(٣٢) متفق عليه .

عذر الجهل ، إنها ذروة التجرد لله ، لايغضب إلا لله ولا يحب إلا لله ولا يبغض إلا لله ولا يجعل مكاناً في نفسه للانتقام من معذبي الجسد ، حتى لايكون غضبه لنفسه (**اللهم اغفر لقومي فإنهم لايعملون**) .

وإنه مستوى رفيع يصله قليل من الدعاة نحسب أن الإمام أحمد كان أحدهم ، ولا نزكي على الله أحداً .

قال بلال الآجري : صحبت أبا عبـدالله ونحن راجعون من الجامع فذكرت أبا حنيفة ، فقال بيده هكذا ونفضها ، فقلت : كان بول أبي حنيفة أكبر من ملء الأرض مثلك ، فنظر إلي ثم قال : **سلام عليكم** ـ فلما كان من السحر بكرت إليه فقلت : يا أبا عبدالله إن الذي كان مني كان على غير تعمد فأنا أحب أن تجعلني في حل ، فقال : **ما زالت قدماي من مكانهما حتى جعلتك في حل**[٣٣] .

لكن سر رد الرسول ﷺ للاعرابي وتبسمه مع الأعرابي الآخر وسر دعاء ذلك النبي لقومه بالمغفرة بعد أن أدموه وسر جواب الامام أحمد للشاتم يكشفه الإمام الثوري وهو (**استشعار الداعية أنه طبيب يعالج مرضى**) فيتصف بصفات الطبيب وأن المدعوّين مرضى فيصبر على صفاتهم كمرضى ـ إذ يقول : (العالم طبيب هذه الأمة) .

وتابعه بكشف هذا السر الإمام ابن القيم في تعريفه للنصيحة قال (هي إحسان إلى من تنصحه بصورة الرحمة له والشفقة عليه والغيرة

---

(٣٣) مناقب الامام أحمد (ص ٢٢٢) .

له وعليه فهو إحسان محض يصدر عن رحمة ورقة ومراد الناصح بها وجه الله ورضاه والإحسان إلى خلقه ، فيتلطف في بذلها غاية التلطف ويحتمل أذى المنصوح ولامته ويعامله معاملة الطبيب العالم المشفق على المريض المشع مرضاً وهو يحتمل سوء خلقه وشراسته ونفرته ويتلطف في وصول الدواء إليه بكل ممكن فهذا شأن الناصح) .

٩ ـ الرفق مع المبتدىء :

وهذه هي الخلاصة التي أردنا أن يصلها الداعية من خلال مروره بأنواع الرفق التي ذكرناها .

نقول : إنها خلاصة ، لأن الداعية في هذه المرحلة يبتدىء بدعوة الناس على منهج مدروس منظم على أسس تربوية مستقاة من الكتاب والسنة ، مسورة بحزام الرفق الذي أردنا أن نصل اليه في هذه المرحلة .

فالمدعو إذا صادف داعية لا تتوفر فيه صفة الرفق فإن ذلك يكون له فتنة ، ولعله يرد على أعقابه بعد إذ هداه الله ، بسبب عنف لاقاه من ذلك الداعية (**إنما تتولد الدعاوى من فساد الابتداء ، فمن صحت بدايته صحت نهايته ، ومن فسدت بدايته فربما هلك**)[٣٤] والتيسير من الرفق وخاصة في الابتداء ، فعندما بعث الرسول ﷺ أبا موسى

---

(٣٤) الرفائق (ص ٤١) .

الأشعري ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما إلى اليمن كان أول ما أوصاهما به أن (**يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا**)[٣٥] .

والحكمة من هذا التوجيه ما ذكره صاحب الفتح (**والمراد تأليف من قرب إسلامه وترك التشديد عليه في الابتداء ، وكذلك الزجر عن المعاصي ينبغي أن يكون بتلطف ليقبل وكذا تعليم العلم ينبغي أن يكون بالتدريج لأن الشيء إذا كان في ابتدائه سهلاً حبب إلى من يدخل فيه وتلقاه بانبساط وكانت عاقبته غالبا الازدياد ، بخلاف ضده ـ والله أعلم**)[٣٦] .

وقبس آخر نقتبسه من مشكاة النبوة يبين أسلوب الرسول ﷺ في تعليم الصحابة عملياً كيف يتم الرفق مع المبتدىء .

فعن معاوية بن الحكم السلمي ، قال : صليت مع رسول الله ﷺ فعطس رجل من القوم فقلت : يرحمك الله ، فرماني القوم بأبصارهم ، فقلت : واثكل أمّاه ، ما شأنكم تنظرون ؟؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ، فعرفت أنهم يصمتوني ، فلما رأيتهم يسكتوني لكني سكت ، قال : فلما صلى رسول الله ﷺ عليه وسلم بأبي وأمي ما ضربني ولا سبني ثم قال : (**إن هذه الصلاة لا يحل فيها شيء من كلام الناس هذا ، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**) .

---

(٣٥) البخاري (فتح الباري ٦١٢٤) ، الروح (٢٥٧) .

(٣٦) فتح الباري (ج ١ ، ص ١٦٣) .

وفي رواية أخرى (قال : فما رأيت معلما قط أرفق من رسول الله ﷺ)[٣٧] .

ويتبين من خلال الحديث الشعور النفسي لدى المدعو عندما يواجه بتصحيح خطئه بالعنف ، وأنه كاد أن يفتن فثبته الله بإدراك الرسول ﷺ له بكلمة رفق .

وبعد أن طفنا بالداعية في هذه الرحلة على مناطق الرفق ووصل معنا إلى المنطقة الأخيرة نستأذنه بالدخول على الإمام أبي بكر محمد بن حسين الآجري ، الذي قال فيه الحافظ الذهبي في التذكرة (**كان عالما عاملا صاحب سنة واتباع**) .

ونجلس بين يديه جلوس طلاب العلم إلى شيخهم لنستمع إليه وهو يخبرنا بأخلاق الداعية العالم مع من يربيهم فيقول (فأما أخلاقه مع مجالسيه فصبور على من كان ذهنه بطيئاً عن الفهم حتى يفهم عنه ، صبور على جفاء من جهل عليه حتى يرده بحلم ، يؤدب جلساءه بأمس ما يكون من الأدب لا يدعهم يخوضون فيما لا يعنيهم ويأمرهم بالانصات مع الاستماع إلى ما ينطق به من العلم لا يعنف السائل بالتوبيخ القبيح فيخجله ولا يزجره فيضع من قدره ، يقبل على من يعلم أنه محتاج إلى علم ويترك من يعلم أنه يريد الجدل والمراء وإذا سئل عن علم لا يعلمه لم يستح أن يقول لا أعلم ، وإن أفتى بمسألة فعلم أنه

---

(٣٧) أبو داود (٩٣٠ ، ٩٣١) .

أخطأ لم يستنكف أن يرجع عنها)[٣٨] .

١٠ ـ الرفق بالتكاليف :

وبعد سماعنا موعظة الآجري ، وانطلقنا ندعو الناس ونربيهم ، لا يفوتنا ونحن نربيهم أن نسبة الطاعة في الابتداء ضئيلة فلذلك هم ليسوا مستعدين لتنفيذ كل أمر وتبدأ تظهر ظاهرة (الاعتذار) وأسباب هذه الظاهرة كثيرة ، إلا أن من أهمها تحميل المبتدىء من التكاليف ما لا يطيق ، فلذلك يبتدىء بالاعتذار حياءً من الرفض المطلق ، وهي ظاهرة خطيرة وصفة من صفات المنافقين قد تؤدي بالمدعو إلى أن يترك هذه الدعوة المباركة ، وعليه فالواجب ألا نكلفهم من العبادات والقراءات والأعمال مالا يتناسب مع مستوياتهم .

يقول الطبري : (**المراد بالأمر بالتيسير فيما كان من النوافل مما كان شاقا لئلا يفضي بصاحبه إلى الملل فيتركه أصلا أو يعجب بعمله فيحبط فيما رخص فيه من الفرائض كصلاة الفرض قاعداً للعاجز والفطر في الفرض (يعني رمضان) لمن سافر ، فيشق عليه**)[٣٩] .

---

(٣٨) أخلاق العلماء (ص ٥٢) .

(٣٩) فتح الباري (ج ١٠ ، ص ٥٢٥) .

١١ ـ نتيجة الرفق :

أ ـ حب الناس للدعوة وانجذابهم اليها .

عن مالك بن الحويرث قال : أتيت النبي ﷺ في نفر من قومي فأقمنا عنده عشرين ليلة ، وكان رحيما رفيقا فلما رأى شوقنا إلى أهالينا قال : ارجعوا فكونوا فيهم وعلموهم وصلوا ، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم)[٤٠] .

وليس النفر فقط بل الكل يتأثر بالرفق وينضمون لصفوف الدعاة .

يرسل سيد رحمه الله إلى أخته أمينة رسالة ضمنها خلاصة تجاربه في حقل الدعوة ، وكأنه أراد بذلك أن يجعل من هذه الرسالة قواعد عملية ، ثبت صحتها بعد الممارسة ، فيذكر في ثنايا رسالته : حقيقة النفس الانسانية وواجب الدعاة نحوها ، فيقول : (**عندما نلمس الجانب الطيب في نفوس الناس ، نجد أن هناك خيراً كثيراً قد لا تراه العيون أول وهلة .**

شيء من العطف على أخطائهم ، وحماقاتهم شيء من الود الحقيقي لهم ، شيء من العناية (غير المتصنعة) باهتماماتهم وهمومهم ثم ينكشف لك النبع الخير في نفوسهم ، حين يمنحونك حبهم ومودتهم وثقتهم في مقابل القليل الذي أعطيتهم إياه من نفسك ، متى

---

(٤٠) البخاري (فتح الباري ٦٢٨) .

أعطيتهم إياه في صدق وصفاء وإخلاص ، هذه الثمرة الحلوة ، إنما تتكشف لمن يستطيع أن يشعر الناس بالأمن من جانبه ، بالثقة في مودته ، بالعطف الحقيقي على كفاحهم وآلامهم وعلى أخطائهم وعلى حماقاتهم كذلك . . وشيء من سعة الصدر في أول الأمر كفيل بتحقيق ذلك كله أقرب مما يتوقع الكثيرون)[٤١] .

ب ـ عون الله :

عن خالد بن معدان عن أبيه عن النبي ﷺ قال : « إن الله رفيق يحب الرفق ويرضاه ويعين عليه ما لا يعين على العنف »[٤٢] .

وعن عائشة زوج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال : « **يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق مالا يعطي على العنف ومالا يعطي على ما سواه** »[٤٣] .

جـ ـ دخول الخير :

عن عائشة أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « **إذا أراد الله عز وجل بأهل بيت خيراً أدخل عليهم الرفق** »[٤٤] .

وعن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال : **ومن أعطي حظه من الرفق**

---

(٤١) أفراح الروح (ص ١١ ، ١٢) .

(٤٢) رواه الطبراني ـ قال الهيثمي ـ ورجاله رجال الصحيح أ . هـ . مجمع الزوائد (١٨/٨) .

(٤٣) مسلم (٢٥٩٣) .

(٤٤) أحمد (٧١/٦) وصححه الألباني (ص . ج . ص ٣٠٠) .

فقد أعطي حظه من الخير ، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير »[٤٥] .

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « ما أعطي أهل بيت الرفق إلا نفعهم »[٤٦] .

د ـ دعوة الرسول ﷺ :

عن عائشة عن الرسول ﷺ قال : « اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به »[٤٧] .

هـ ـ انتصار الدعوة :

عن عائشة زوج النبي عن النبي ﷺ قال : « إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه »[٤٨] .

---

(٤٥) الترمذي (٢٠١٤) وحسنه الأرناؤوط (جامع الأصول ٢٦٣٩) .

(٤٦) رواه الطبراني ـ قال الهيثمي ـ ورجاله رجال الصحيح غير ابراهيم بن الحجاج السامي وهو ثقة (مجمع الزوائد ٨/ ١٩) .

(٤٧) مسلم (١٧٢٨) .

(٤٨) مسلم (٢٥٩٤) .

يقول الله عز وجل :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد ٢٨] .

يقول الرسول ﷺ :

(تعرض الفتن على القلوب عودا عودا ، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين ، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه) مسلم (١٤٤) .

توطئـــة . . .

وفي تلك الجولة التي قام بها الداعية ليصل إلى القلوب المغلقة فيفتحها ، والتي تعلم من خلالها المسالك الرئيسية لتلك القلوب بمعرفته (للرفق) وبعد مرتفعات ومنخفضات وجبال ووديان من التجارب خاضها ليصل ذلك الطريق المؤدي إلى القلوب المقفلة بأقفال بعضها صغير الحجم سهل الكسر والبعض الآخر يحتاج إلى عدة ومدة لكي يفتح ، وأخرى قد تجمع عليها الصدأ فصعب فتحها . وقلوب قد غطى عليها الران الأسود فدثرت فلا يعلم لها معالم وأخرى قد بان لها بعض المعالم وتحتاج إلى عملية تنظيف وصيانة شاملة تستعمل فيها المعاول لإزالة ذلك الران وأخرى قد سقطت وبها الرمق الأخير تريد شربة ماء حتى تحيا مرة أخرى ويعود لها النبض ، وأخرى قد تأثرت بوباء أمراض قلوب كانت بقربها فكانت تحتاج إلى نجدة تنتشلها من بين ذلك الوباء وأمام السور الذي تقطن فيه تلك القلوب أدرك الداعية أن أمامه مهمة صعبة ولكنها مفروضة عليه ولا بد له من فتح وتنظيف وانتشال وتقوية ما استطاع من تلك القلوب بعد أن استطاع أن يصل إليها عن طريق الرفق .

الصفة الثالثة :

هواة تقوية القلوب

وكما إن لكل إنسان هواية يهواها ويمارسها ، فمنهم من يهوى لعب الكرة وآخر المصارعة وآخر المراسلة وآخر جمع طوابع البريد وآخر الرحلات ، إلا أن هناك صنفاً من الناس لا يهتمون لما يهتم به عامة الناس من سفاسف الأمور ، ولا يهوون ما يهوى الآخرون ، إنما يسعون لممارسة هوايات ، لو قلتها للعامة لقالوا عنهم مجانين . لا يبغون من وراء هذه الهوايات سمعة أو مادة ، إنما يبغون زراعة أشجار جذورها في الأرض وفروعها في السماء . تؤتي أكلها كل حين ، ثم هم لا يطلبون قصوراً ومراكبَ تنشأ على الطين وترجع إلى الطين . إنما يطلبون قصوراً تنشأ على أرض كثبانها من المسك وحصباؤها من اللؤلؤ ، ولبناتها من الذهب والفضة .

إنها أرقى أنواع الهوايات ، وهي التي تتركز على تلك المضغة التي في جسد الإنسان ، التي إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب . يقومون بسكب أنواع من المقويات والمنشطات في القلوب المريضة والغافلة والزائفة والغليظة والقاسية والمغلقة والمختومة والمطبوعة والمكنونة واللاهية ، وحتى القلوب المطمئنة والسليمة والمنيبة والوجلة والمخبتة واللينة والخاشعة ، التي تنتابها أحياناً بعض حالات الضعف .

ويتفننون في تفريغ هذه المقويات ، كل على قدر حاجته ، فتقوى تلك القلوب وتستيقظ بعدما كانت في سبات دام لحظة أو ساعات .

وقبل أن نلتقي بهؤلاء الهواة ، لا بد لنا من معرفة ما يتعاملون معه وما تتركز عليه هوايتهم ، وعوامل ضعفها وتقويتها .

١ ـ صفة القلب :

القلب ما سمي بذلك إلا لكثرة تقلبه من حال إلى حال وهو كما وصفه الرسول ﷺ (**مثل القلب مثل الريشة ، تقلبها الرياح بفلاة**)[١] . فهنا يصور لنا الرسول ﷺ القلب وكأنه ريشة لخفته

---

(١) رواه ابن ماجه رقم (٨٨) واحمد (٤٠٨/٤) وصححه الألباني ص .ج . ص ٥٧٠٩) .

ولتأثير الفتن عليه ، صغيرها وكبيرها ، تماما مثل الريشة التي تؤثر فيها أقل النسمات فتغير اتجاهها . ولاستيقان الرسول ﷺ لهذه الحقيقة كان يكثر من دعاء : (**لا ومقلب القلوب**)[٢] .

يقول الإمام ابن حجر : إن الله يتصرف في قلوب عباده بما شاء لا يمتنع عليه شيء منها ولا تفوته إرادة .

وقال الراغب : تقليب الشيء تغييره من حال إلى حال ، والتقليب التصرف وتقليب الله القلوب والبصائر صرفها من رأي إلى رأي[٣] .

٢ ـ أنواع القلوب :

يقول الرسول ﷺ : (**تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين ، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيا لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه**)[٤] .

---

(٢) أخرجه البخاري ـ الفتح (٧٣٩١) ـ كتاب التوحيد .

(٣) فتح الباري ١٣/٣٧٧ ـ السلفية.

(٤) أخرجه مسلم (١٤٤) كتاب الايمان .

ويتبين من الحديث أن القلوب تنقسم إلى قسمين ، قلوب سوداء وقلوب بيضاء وتختلف درجات السواد والبياض في كل قسم بمقدار ما أشرب من فتن ، وعليه فإن كل قسم من هذين القسمين يضم أنواعا من القلوب .

القسم الأول ـ البيضاء :

ويأبى صاحب هذا القلب أن يفتح مسامات قلبه لغير الحق ، وإذا تعرض لفتنة ، انكمشت مساماته إلى درجة الانغلاق التام بسبب إنكاره لها فينكت في قلبه نكتة بيضاء ، ومع توالي الفتن التي هي كأعواد الحصير في تتابعها ، ومع استمرار الإنكار لها ينتشر البياض على قلبه ، حتى يغطيه ، ثم يكتسب خاصية الصلابة حتى يكون (مثل الصفا) . . قال القاضي عياض (ليس تشبيهه بالصفا بيانا لبياضه لكن صفة أخرى لشدته على عقد الإيمان وسلامته من الخلل ، إن الفتن لم تلصق به ولم تؤثر فيه كالصفا ، وهو الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء)[٥] . ومع ذلك فقد تنتاب صاحب هذا القلب ، فترات من الضعف والغفلة الآنية ، تلك الغفلة التي شبهها الرسول ﷺ بالسحابة ، إذ يقول : (**ما من القلوب قلب إلا وله سحابة كسحابة القمر ، بينما القمر يضيء إذ علته سحابة فأظلم ، إذ تجلت**)[٦] .

---

(٥) شرح مسلم للنووي ٢/١٧٢ .

(٦) أخرجه الطبراني ، وحسنه الألباني (ص . ج . ص ٥٥٥٨) .

إن أحجام السحب ليست واحدة ، فمرة نراها ممتدة طويلة تغطي ذلك القمر المضيء لفترة ثم تنجلي ، وأخرى نراها صغيرة جداً لا تغطي تلك الأنوار المنبعثة من القمر إلا للحظات وأخرى نراها معتمة ، وأخرى بيضاء شفافة يرى من ورائها القمر ، وهذه الأنواع المتعددة من السحب ، هي ذاتها تمثل العوارض التي تعترض أصحاب القلوب البيضاء .

يصف الإمام ابن القيم تلك العوارض ، أن (**منها ما يكون سريع الحصول سريع الزوال ومنها ما يكون سريع الحصول بطيء الزوال ، ومنها ما يكون بطيء الحصول سريع الزوال ومنها ما يكون بطيء الحصول بطيء الزوال**)[٧] ولكنها كلها تزول بإذن الله وتنجلي السحابة عن القمر المضيء فتعود أشعته تخترق القلوب وتنير لأصحابها معالم الحق .

ولهذا السبب اختلفت أنواع القلوب البيضاء ، واختلفت معها أساليب هواة تقويتها ، ولتأكيد قول الرسول ﷺ : (**القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض**)[٨] .

أ ـ القلوب المطمئنة :

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ

---

(٧) الفوائد ص ٢٥١ .

(٨) أخرجه أحمد وصححه احمد شاكر (٦٦٥٥) .

أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[٩] .

يقول الإمام ابن القيم : الطمأنينة سكون القلب إلى الشيء وعدم اضطرابه وقلقه فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن . فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه . واضطرابه وقله من شكه[١٠] . فإن صاحب هذا القلب لا يضطرب ولا يقلق عندما يصاب بمصيبة وابتلاء بسبب ما يعتقد أن ذلك فتنة من الله واختبار .

ب ـ القلوب السليمة :

يقول الله سبحانه وتعالى :﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[١١]

قال سعيد بن المسيب (القلب السليم الصحيح هو قلب المؤمن ؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض) .

وقال أبو عثمان السيادي (هو القلب الخالي من البدعة المطمئن إلى السنة) .

وقال الحسن (سليم من آفة المال والبنين) .

وقال الجنيد (السليم في اللغة ، اللديغ فمعناه أنه قلب

---

(٩) الرعد ٢٨ .

(١٠) التفسير القيم ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

(١١) الشعراء ٨٩ .

كاللديغ من خوف الله) وقال الضحاك (السليم الخالص)[١٢] .
فصاحب هذا القلب هو من تجمعت فيه هذه الصفات ، فهو ذو قلب سليم خالص من آفات المال وفتنته وجواذب الدنيا وفتنتها ، خال من البدع مطمئن إلى السنة ، خائف من الله .

جـ ـ القلوب المنيبة :

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾[١٣] .

قال القرطبي : مقبل على الطاعة . وقال أبوبكر الوراق (علامة المنيب أن يكون عارفا لحرمته وموالیا له ، متواضعاً لجلاله تاركاً لهوى نفسه)[١٤] .

وقال الإمام ابن القيم : (وحقيقة الإنابة عكوف القلب على طاعة الله ومحبته والإقبال عليه)[١٥] .

د ـ القلوب الوجلة :

يقول الله سبحانه وتعالى :﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[١٦] .

---

(١٢) تفسير القرطبي ٧/ ٤٨٣٠ .
(١٣) ق ٣٣ .
(١٤) تفسير القرطبي ٩/ ٦١٩١ .
(١٥) الفوائد ص ٢٤ ـ النفائس .
(١٦) الأنفال ٢ .

يقـول الشوكـاني : الوجـل ، الخوف والفـزع ، والمراد أن حصـول الخوف من الله والفـزع منه عنـد ذكره هـو شأن المؤمنين الكاملي الايمان المخلصين لله)[١٧] .

قال السدى : (إذا أراد أن يظلم مظلمة قيل له اتق الله ، كف ووجل قلبه)[١٨] ونستخرج من ذلك أن صاحب هذا القلب يتفاعل مع الموعظة ويخاف عندما يذكر بالله ويكف عن المظلمة لحساسيته الكبيرة ومحاسبته لنفسه تخـوفا من عقـاب الله ، وهذا الصنف من الناس يعتبر أرقى أنواع المدعوّين .

هـ ـ القلوب المربوطة :

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾[١٩] .

قـال الشوكـاني : (فيجعلها صـابرة قـوية ثـابتة في مـواطن الحرب)[٢٠] .

و ـ القلوب المخبتة :

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾[٢١] .

---

(١٧) فتح القدير ٢/٢٨٥ .

(١٨) تفسير القرطبي ٤/٢٨٠١ .

(١٩) الأنفال ١١ .

(٢٠) فتح القدير ٢/٢٩١ .

(٢١) الحج ٥٤ .

قال الشوكاني : (أي تخشع وتسكن وتنقاد)[٢٢] .

وقال (المخبتين من عباده أي المتواضعين الخاشعين المخلصين وهو مأخوذ من (الخبيت) وهو المنخفض من الأرض ، وقيل : إن المخبتين هم الذين لا يظلمون غيرهم وإذا ظلمهم غيرهم لم ينتصروا)[٢٣] .

ز ـ القلوب الخاشعة :

يقول الله سبحانه وتعالى :﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[٢٤] .

يقول القاسمي (أي تلين وترق وتخلص قلوبهم لذكر اسمه الكريم) .

وقال أبوالسعود (ومعنى الخشوع له ، الإنقياد التام لأوامره ونواهيه والعكوف على العمل بما فيه من الأحكام)[٢٥] .

ح ـ القلوب المقشعرة اللينة :

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ

---

(٢٢) فتح القدير ٣/٤٦٣ .

(٢٣) فتح القدير ٣/٤٥٢ .

(٢٤) الحديد ١٦ .

(٢٥) محاسن التأويل ١٥/٥٦٨٤ .

ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[٢٦] .

قال الزجاج : إذا ذكرت آيات العذاب اقشعرت جلود الخائفين لله (ثم تلين جلودهم وقلوبهم) إذا ذكرت آيات الرحمة .

وقال قتادة : هذا نعت أولياء الله نعتهم بأنها تقشعر وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم ، إنما ذلك في أهل البدع وهو من الشيطان)[٢٧] .

وقال القرطبي : (معنى لين القلب رقته وطمأنينته وسكونه)[٢٨] .

ونستطيع أن نقول بعد استعراض القلوب البيضاء : إن نشاط وحركة هواة تقوية القلوب تكاد أن تكون محصورة في هذا الصنف من القلوب إلا أن بعض أنواع القلوب السوداء يشاء الله وهو المتصرف بالقلوب أن يحوله إلى أبيض مصداقا لقول الرسول ﷺ (**وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**)[٢٩] .

وتتعدد أنواع الأسباب التي يتحول على أثرها ذلك القلب من

---

(٢٦) الزمر ٢٣ .

(٢٧) فتح القدير ٤/٤٥٩ .

(٢٨) تفسير القرطبي ٨/٥٦٩٤ .

(٢٩) مسلم (٢٦٤٣) كتاب القدر .

السواد إلى البياض إلا أنه كثيرا ما يكون سبب التحول هو عنصر من عناصر أولئك الهواة ، لذلك فإننا نستعرض الصنف الآخر من القلوب ليكون لدينا بعد ذلك جدول كامل لأنواع القلوب نستطيع عليلاً أثره أن نتعرف على طبيعة العمل والهواية التي يقوم بها أولئك الهواة . وكذلك يساعد على توسيع دائرة المعرفة بأصناف المدعوّين .

القسم الثاني ـ القلوب السوداء :

وصاحب هذا القلب مسامات قلبه مفتوحة للفتن ، يتضم ذلك من قوله ﷺ : (**فأي قلب أشر بها**) .

قال الإمام النووي : (**دخلت فيه دخولاً تاماً وألزمها وحلت فيه محل الشراب ـ ومنه قوله تعالى :** ﴿ وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ ﴾[٣٠] أي حب العجل . ومنه قولهم (ثوب مشرب بحمرة) أي خالطته الحمرة مخالطة لا انفكاك لها)[٣١] .

وعليه استحق أن ينكت فيه نكتة سوداء ، ومع تكرار الفتن التي تعرض عليه وما يقابلها من عملية الامتصاص ، التي يقوم بها قلبه ، ينتشر السواد على أجزاء قلبه حتى يغطيه . فيكون (كالكوز مجخيا) أي كقدح الماء عندما ينكفىء ، يقول الإمام النووي : (وهو وصف

---

(٣٠) البقرة ٩٣ .

(٣١ ، ٣٢) شرح مسلم للنووي ٢/١٧٢ ، ١٧٣ .

آخـر من أوصـافـه بـأنـه قلب نكس حتى لا يعلق بـه خيـر ولا حكمة)[٣٢] . ويشتد سواده حتى يعمى فلا (يعرف معروفا ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه) .

ولاختلاف درجات الفتن واختلاف درجات الامتصاص من قلب إلى قلب ، نرى أنواعا كثيرة من هذا الصنف ، أولها :

أ ـ القلوب الغليظة :

يقـول الله سبحانـه وتعالى : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[٣٣] . يقـول الإمـام القـرطبي : (وغلظ القلب ، عبارة عن تجهم الوجه ، وقلة الإنفعال في الرغائب وقلة الإشفاق والرحمة ، ومن ذلك قول الشاعر :

يبكي علينـا ولا نبكي على أحد لنحن أغلظ أكبادا من الابل[٣٤]

ب ـ القلوب الزائغة :

يقـول الله سبحانـه وتعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾[٣٥] .

قال القرطبي : (الزيغ الميل ، ومنه زاغت الشمس ، وزاغت الأبصار ويقال زاغ يزيغ زيغا ، إذا ترك القصد ، ومنه قوله تعالى :

---

(٣٣) آل عمران ١٥٩ .

(٣٤) تفسير القرطبي ٣/١٤٩٠ ـ الثقافة .

(٣٥) آل عمران ٧ .

﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾[٣٦] وهذه الآية تعم كل طائفة من كافر وزنديق وجاهل وصاحب بدعة)[٣٧] أي أنه يعرف الحق ويميل عنه ابتغاء الفتنة .

جـ ـ القلوب الغافلة المغفلة :

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾[٣٨] .

يقول الشيخ السعدي : (غفل عن الله ، فعاقبه بأن أغفله عن ذكره)[٣٩] .

ويقول ابن كثير : (أي شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا)[٤٠] .

ويقول القرطبي : (يعني من ختمنا على قلبه عن التوحيد)[٤١] . وفي اللغة (أغفله) أي تركها وسها عنه[٤٢] .

---

(٣٦) الصف ٥ .

(٣٧) تفسير القرطبي ٢/١٢٥٤ ـ الثقافة .

(٣٨) الكهف ٢٨ .

(٣٩) تفسير كلام المنان ٥/٣٠ .

(٤٠) تيسير العلي القدير ٣/٧٢ .

(٤١) تفسير القرطبي ٦/٤٠٠٨ .

(٤٢) لسان العرب ٢/١٠٠٢ ـ دار لسان العرب .

ويمكن الجمع بين هذه التفاسير بأن القلوب الغافلة ، هي التي تركت وسهت عن ذكر الله بسبب التعلق بالدنيا ، فعاقب الله أصحابها بأن ختم على قلوبهم عن التوحيد فلا يعرفوا موجبات التوحيد وما تقتضي كلمة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) حتى يستحقوا العذاب يوم القيامة .

د ـ القلوب القاسية :

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾[٤٣] .

يقول القرطبي : (القسوة ، الصلابة والشدة واليبس وهي عبارة عن خلوها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى)[٤٤] .

ويشبه الإمام ابن القيم القلب القاسي وكأنه من معدن صلب . لم تقوَ درجات الحرارة الدنيوية من زواجر ومواعظ وعبر أن تلينه فما بقى إلا نار جهنم كي تذيبه فيها ، فيقول : (ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله ، خلقت النار لإذابة القلوب القاسية ، أبعد القلوب من الله القلب القاسي ، إذا قسى القلب قحطت العين ، قسوة القلب من أربعة أشياء ، إذا جاوزت قدر الحاجة ، الأكل والنوم والكلام والمخالطة ، كما أن البدن إذا مرض

---

(٤٣) البقرة ٧٤ .

(٤٤) تفسير القرطبي ١/٣٩٣ .

لم ينفع فيه الطعام والشراب فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجح فيه المواعظ)[٤٥] .

وهذا يؤكد بأن هواة تقوية القلوب ليس من هوايتهم التركيز على هذا النوع من القلوب الذي لا تنفع معه المواعظ ولا يوجد مكان فيها لاستقرار النصيحة .

هـ ـ القلوب المغلفة :

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ ﴾[٤٦] .

قال القرطبي : (أي عليها أغطية وهو مثل قوله تعالى : ﴿ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ ﴾ وحكى أهل اللغة ـ غلفت السيف جعلت له غلافا . فقلب أغلف أي مستور عن الفهم والتمييز[٤٧] .

ويقول صاحب الظلال : (قالوا : إن قلوبنا مغلفة لا تنفذ إليها دعوة جديدة ، ولا تستمع إلى داعية جديد)[٤٨] .

وهذا الصنف أنفسهم يقولون : إن قلوبنا مغلفة عن سماع الحق ، فهم يرفضون مبدأ سماع النصيحة فضلا عن التأثر والانتفاع بها ، وهم يعتبرون من أغلظ أنواع المدعوّين .

---

(٤٥) الفوائد ١٣٨ .

(٤٦) البقرة ٨٨ .

(٤٧) تفسير القرطبي ١/٤١٨ .

(٤٨) الظلال ١/٨٩ .

و ـ القلوب المريضة :

يقـول الله سبحانـه وتعالى : ﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾[٤٩] .

قال قتادة والسدي : (أي شك ونفاق وقيل : تشوف لفجور وهو الفسق والغزل ، قال عكرمة وهذا أصوب وليس للنفاق مدخل في هذه الآية)[٥٠] .

وقال ابن كثير (أي خيانة وفساد)[٥١] .

يقول الإمام ابن تيمية : مرض القلب هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره وإرادته ، فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق ، أو يراه على خلاف ما هو عليه ، وإرادته بحيث يبغض الحق النـافع ويحب البـاطل الضـار . والمريض يؤذيـه مالا يؤذي الصحيح ، فيضره يسير الحر والبرد والعمل ونحو ذلك من الأمور التي لا يقوى عليها لضعفه بالمرض[٥٢] .

يقول في تفسير الآية : ﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾* هو مرض الشهوة فإن القلب الصحيح لو تعرضـه له المـرأة لم يلتفت

---

(٤٩) الأحزاب ٣٢ .

(٥٠) تفسير القرطبي ٨/٥٢٥٩ .

(٥١) تيسير العلي القدير ٣/٤٩٠ .

(٥٢) مجموع الفتاوي ١٠/٩٣ .

* الأحزاب ٣٢ .

إليها ، بخلاف القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه ، فإن خضعن بالقول طمع الذي في قلبه مرض[٥٣] .

وما أكثر هذا الصنف الذي تكلم عنه شيخ الإسلام ، وهو ذاته الصنف الذي تكلم عنه الله سبحانه وتعالى في صدر سورة البقرة في قوله : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾[٥٤] الذين قال لهم الدعاة ﴿ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ﴾[٥٥] فردوا عليهم ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾[٥٦] فبسبب مرض قلوبهم انقلبت الصورة عندهم فأصبح المنكر معروفا والمعروف منكرا .

ز ـ القلوب المختومة :

يقول الله سبحانه وتعالى :﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ﴾[٥٧] .

يقول ابن كثير (أي فلا يسمع ما ينفعه ، ولا يعي شيئاً يهتدي به ولا يرى حجة يستضيء بها ولهذا قال تعالى : ﴿ فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[٥٨] .

---

(٥٣) مجموع الفتاوي ١٠/ ٩٥ .

(٥٤) البقرة ١٠ .

(٥٥ ، ٥٦) البقرة ١١ .

(٥٧) الجاثية ٢٣ .

(٥٨) تيسير العلي القدير ٤/ ١٦٠ .

ويقول سيد (فانطمست فيه تلك المنافذ التي يدخل منها النور وتلك المدارك التي يتسرب منها الهدى وتعطلت فيه أدوات الإدراك بطاعة الهوى طاعته العبادة والتسليم)[٥٩] .

ح ـ القلوب المطبوعة

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾[٦٠]

قال أبو إسحق : معنى ختم وطبع في اللغة واحد وهو التغطية على الشيء والاستيثاق منه ، فلا يدخله شيء .

قال ابن القيم : (الختم والطبع يشتركان فيما ذكر ويفترقان في معنى آخر وهو ان الطبع ختم يصير سجية وطبيعة فهو تأثير لازم لا يفارق)[٦١] .

وقال الشوكاني : أي صاروا بسبب اصابتنا لهم بذنوبهم وطبع على قلوبهم لا يسمعون ما يتلوه عليهم من أرسله الله إليهم من الوعظ والإعتذار والإنذار)[٦٢] .

---

(٥٩) الظلال ٥/ ٣٢٣٠ .

(٦٠) الأعراف ١٠٠ .

(٦١) شفاء العليل ٩٢ .

(٦٢) فتح القدير ٢/ ٢٢٨ .

ط ـ القلوب المكنونة :

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ ﴾(٦٣) .

يقول الإمام ابن القيم : (وهي جمع كنان ـ وأصله من الستر والتغطية فذكروا غطاء القلب وهو الأكنة ، وغطاء الأذن وهو الوقر ، وغطاء العين وهو الحجاب ـ والمعنى إنا في ترك القبول منك بمنزلة من لا يفقه ما تقول ولا يراك)(٦٤) .

فهذا الصنف من الناس لا يكتفي بما قاله الصنف الآخر (**قلوبنا غلف**) إنما يتجاوز ذلك ويبدي عدم حبه للسماع بل وعدم رغبته حتى في رؤية الداعية ، فمجرد رؤيته تنغص عليه لذاته الدنيوية ، وهذا أيضاً يعتبر من أشرس أنواع المدعوّين ، ويبدو أنه نفس الصنف الذي واجهه نوح عليه السلام حيث يقول : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ﴾(٦٥) .

ي ـ القلوب العمي :

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾(٦٦) .

---

(٦٣) فصلت ٥ .

(٦٤) شفاء العليل ٩٣ .

(٦٥) نوح ٧ .

(٦٦) الحج ٤٦ .

العمى هو انعدام الرؤية ، وعليه قال مجاهد : (لكل إنسان أربع أعين ، عينان في رأسه لدنياه وعينان في قلبه لآخرته ، فإن عميت عينا رأسه وعميت عينا قلبه فلم ينفعه نظره شيئا)[٦٧] وهو تبلد حسي بحيث لا يدرك صاحبه مواطن الحق والعبرة .

ق ـ القلوب المقفلة :

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[٦٨] .

يقول ابن كثير : (أي بل على قلوب أقفالها فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه)[٦٩] .

وقال مقاتل : (والأقفال استعارة لانغلاق القلب عن معرفة الحق وإضافة الأقفال إلى القلوب للتنبيه على أن المراد بها ما هو للقلوب بمنزلة الأقفال للأبواب ، ومعنى الآية أنه لا يدخل في قلوبهم الإيمان ولا يخرج منها الكفر والشرك)[٧٠] .

ل ـ القلوب اللاهية :

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ

---

(٦٧) تفسير القرطبي ٧/٤٤٦٩ .

(٦٨) محمد ٢٤ .

(٦٩) تيسير العلي القدير ٤/١٨٩ .

(٧٠) فتح القدير ٥/٣٨ .

إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾[٧١] .

يقول الشوكاني : (والمعنى ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث في حال من الأحوال إلا في الإستماع مع اللعب والإستهزاء ولهوة القلوب)[٧٢] .

وقال القرطبي : (أي ساهية قلوبهم ، معرضة عن ذكر الله ، متشاغلة عن التأمل والتفهم)[٧٣] ويمكن أن تحدد من خلال هذه النصوص شخصية صاحب هذا القلب فإنه يستمع إلى الموعظة باستخفاف يصحبه إستهزاء بالواعظ والموعظة ، على صورة إنشغال يفتعله كاللعب وغيره أثناء الموعظة .

م ـ القلوب الزانية :

يقول الرسول ﷺ : (**العين تزني والقلب يزني ، فزنا العين النظر وزنا القلب التمني والفرج يصدق ما هنالك أو يكذبه**)[٧٤] .

ويؤكده ويعضده الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن الرسول ﷺ قال : (**كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة فالعينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه**

---

(٧١) الأنبياء ٢ ، ٣ .

(٧٢) فتح القدير ٣٩٧/٣ .

(٧٣) تفسير القرطبي ٤٣٠٨/٦ .

(٧٤) أخرجه أحمد ٣٢٩/٣ وصححه أحمد شاكر (٨٣٣٨) .

الكلام واليد زناها البطش والرجال زناخا الخطا والقلب يعوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه)[٧٥] .

يقول الشيخ الساعاتي : (زنا القلب التمني ـ أي يهوى وقوع ما تحبه النفس من الشهوة)[٧٦] .

إن التمادي في تمني ما تقع فيه النفس من الشهوة قد ينقل أحد القلوب البيضاء إلى هذا الصنف إذا لم تسعفه توبة ترفعه عن ذلك

٣ ـ أسباب الأمراض :

قبل أن نلتقي مع جمهرة هواة التقوية ، نلتقي بأحد شيوخ هذه المدرسة (الإمام ابن القيم) نقتطف من وقته القليل ليشخص لنا سبب أمراض القلوب فيقول : (أنزه الموجودات وأطهرها وأنورها وأشرفها وأعلاها ذاتا وقدرا وأوسعها عرش الرحمن جل جلاله ولذلك صلح لاستوائه عليه . وكل ما كان أقرب إلى العرش كان أنور وأنزه وأشرف مما بعد عنه .

ولهذا كانت جنة الفردوس أعلى الجنان وأشرفها وأنورها وأجلها ، لقربها من العرش ، إذ هو سقفها ، وكل ما بعد عنه كان أظلم وأضيق ولهذا كان أسفل سافلين شر الأمكنة وأضيقها وأبعدها

---

(٧٥) مسلم ٢٦٥٧ .

(٧٦) الفتح الرباني ١٦/٧٣ .

من كل خير ، وخلق الله القلوب ، وجعلها محلا لمعرفته ومحبته وإرادته ، قال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(٧٧) .

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(٧٨) .

وقال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾(٧٩) .

فهذا من المثل الأعلى وهو مستو على قلب المؤمن فهو عرشه وإن لم يكن أطهر الأشياء وأنزهها وأطيبها وأبعدها من كل دنس وخبث لم يصلح لإستواء المثل الأعلى عليه معرفة ومحبة وإرادة ، فاستوى عليه مثل الدنيا الأسفل ومحبتها وإرادتها والتعلق بها فضاق وأظلم وبعد من كماله وفلاحه ، حتى تعود القلوب على قلبين . قلب هو عرش الرحمن ففيه النور والحياة والفرح والسرور والبهجة وذخائر الخير ، وقلب هو عرش الشيطان ، فهناك الضيق والظلمة والموت والحزن والغم والهم ، فهو حزين على ما مضى ، مهموم بما يستقبل مغموم في الحال)(٨٠) .

---

(٧٧) النحل ٦٠ .

(٧٨) الروم ٢٧ .

(٧٩) الشورى ١١ .

(٨٠) الفوائد ص ٤٠ النفائس .

وبعد هذا الإستهلال البديع ، يضع الإمام ابن القيم أيدينا على السبب الرئيسي في أمراض القلوب وعتمتها ، ألا وهو فقدانه الكثير من المثل الأعلى وهو (معرفته ومحبته والإيمان بإرادته) الأمر الذي جعلها ليست مهيأة أن يستقر عليها ويستوي ذلك النور ، وفي ابتعاد النور تتسرب الظلمة وما يصاحبها من أمراض مختلفة .

أ ـ الشرك :

ومع ازدياد الأمراض التي تنتاب ذلك القلب يبدأ القلب بالضعف رويداً رويداً حتى يستسلم للموت ، وفي ذلك يخاطب الإمام الجيلاني تلك القلوب الميتة ، بألم وحسرة منبعثة من حرصه على أن يكون أولئك من جنود الإسلام لا من موتى الإسلام ، فقد آلمه أن يرى أجساداً بلا قلوب ، فلم يستطع أن يكتم غضبه ، أو يتمالك نفسه حيال هذا المنظر فصاح فيهم (يا موتى القلوب ، يا مشركين بالأسباب ، يا عابدين أصنام حولهم وقواهم ومعايشهم ورؤوس أموالهم وسلاطين بلادهم وجهاتهم التي ينتهون إليها ، إنهم محجوبون عن الله عز وجل ، كل من يرى الضر والنفع من غير الله عز وجل فليس بعبد له ، وهو من رأي ذلك منه فهو اليوم في نار المقت والحجاب وغدا في نار جهنم ، ما يسلم من نار الله عز وجل إلا المتقون الموحدون والمخلصون التائبون)[٨١] .

---

(٨١) الفتح الرباني ص ١٠٨ .

فإننا نلاحظ هنا أن الإمام الجيلاني يحمل أسباب الأمراض التي تصيب القلوب بسببين رئيسيين وهما ، الإشراك بالأسباب والإشراك بالعبادة . فالشرك بالأسباب هو اعتقاد الإنسان أن السبب بذاته هو المؤثر دون قدرة الله عز وجل فيه ، كأن يعتقد أن الدواء بذاته هو الذي يشفي دون أن يكل ذلك إلى قدرة الله ، أو أن يعتقد أن فلانا من الناس يضر أو ينفع دون أن يعتقد أن الله هو الضار والنافع وأن ذلك الإنسان إنما كان سببا من الأسباب التي قدرها الله لقضاء قدره .

وأما الشرك بالعبادة ، فمعلوم أنه لا معبود بحق سوى الله ، وأن من معاني العبادة ، الإنقياد والطاعة والذل والخضوع والمحبة .

فإن انقاد الإنسان أو أطاع أو ذل أو خضع أو أحب لغير وجه الله فإنه أشرك في عبادته لله ، وإن كل من أشرك مع الله آلهة أخرى في العبادة فإنه يعرض قلبه للمرض ثم يعقبه الموت المحقق .

ومع ازدياد ظاهرة عبادة العبيد والخوف منهم ورجاء الخير منهم يشتد المرض حتى يموت القلب ، فإذا مات وتوقفت النبضات إنقلب لونه إلى السواد دليلا على الموت ، وفي ذلك يقول الإمام الجيلاني : (لا تبع الدين بالتين ، لا تبع دينك بتين السلاطين والملوك والأغنياء وأكلة الحرام ، إذا أكلت بدينك اسود قلبك وكيف لا يسود وأنت تعبد الخلق)[٨٢] .

---

(٨٢) الفتح الرباني ص ٢٤٤ .

ب ــ حب الدنيا :

ولم نملّ ونحن نصغي للإمام الجيلاني وهو يحدثنا عن أسباب أمراض القلوب ، وآثرنا قبل مغادرتنا أن نستمع إليه يذكر سبباً آخر من أسباب صدأ القلوب فيقول : (القلب يصدأ ، فإن تداركه صاحبه بما وصف النبي ﷺ وإلا انتقل إلى السواد ، يسود لبعده عن النور ، يسود لحبه الدنيا والتحويز عليها من غير ورع لأن من تمكن من قلبه حب الدنيا ، زال ورعه فيجمعها من حلال وحرام ، يزول تمييزه في جمعه يزول حياؤه من ربه عز وجل ومراقبته)[٨٣] .

ويشبه فساد القلب بسبب طلب الدنيا بفساد العسل إذا أضيف له الخل فيقول : (لا تطلب الدنيا ولا تغضب لشيء منها فإن ذلك يفسد قلبك كما يفسد الخل العسل)[٨٤] .

ويلازم فساد القلب وقسوته ضياع الحكمة ونسيانها ، وذلك ما أراد تأكيده الإمام قبل مغادرتنا له عندما قال : (فرحك بالدنيا وإقبال الخلق عليك ينسيك الحكمة ويقسى قلبك)[٨٥] .

جـ ــ مخالطة أصحاب البدع :

وطبيعة الإنسان أنه يتأثر بالحسن والسيء ، وتختلف نسبة

---

(٨٣) الفتح الرباني ص ١٠٦ .

(٨٤) الفتح الرباني ص ٢٤٤ .

(٨٥) الفتح الرباني ص ٢٣٥ .

التأثر من شخص لآخر إلا أنه لا يسلم أحد من التأثر . لذلك قال الرسول ﷺ : (**الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**)[٨٦] . يقول الإمام المباركفوري : (على دين خليله) أي على عادة صاحبه وطريقته وسيرته ، قال الغزالي : (مجالسة الحريص ومخالطته تحرك الحرص ومجالسة الزاهد ومخاللته ، تزهد في الدنيا لأن الطباع مجبولة على التشبه والإقتداء بل الطبع من حيث لا يدري)[٨٧] .

ولهذا السبب حذر الإمام الحسن البصري من مجالسة أهل البدع لسبب مرض قلوبهم خوفاً على الجليس من التأثر بالمرض فقال : (ولا تجلس إلى صاحب بدعة فإنه يمرض قلبك يفسد عليك دينك)[٨٨] .

ولَئن كان صاحب البدعة في زمان الحسن ، المعتزلي والجهمي والرافضي وغيرهم من فرق الضلال ، فإن في زماننا هذا أهل البدعة ، هم الشيوعي والمادي والإباحي والماسوني وصاحب التغريب وغيرهم ، فإن الجلوس مع هؤلاء يضعف القلب ويفسده .

---

(٨٦) أخرجه الترمذي (٢٤٨٤) ـ التحفة ـ وصححه الألباني الأحاديث الصحيحة (٩٢٧) .

(٨٧) تحفة الأحوذي ٤٩/٧ .

(٨٨) الحسن البصري ص ٤١ .

د ـ كثرة الضحك :

يقول الرسول ﷺ : (**لا تكثروا الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب**)[٨٩] وما موت القلب إلا نتيجة واحدة من نتائجه ، فقد عدد نتائجه الإمام الحسن فكانت أربعة ، فاسمعه حين يقول : (ابن آدم ، أقلل الضحك ، فإن كثيره يميت القلب ، ويزيل البهجة ، ويسقط المروءة ويزري بذي الحال)[٩٠] .

هـ ـ كثرة الأكل :

وفيها يقول الإمام الشافعي : (ما شبعت منذ ست عشرة سنة ، إلا شبعة أطرحتها ، لأن الشبع يثقل البدن ، ويقسي القلب ، ويزيل الفطنة ، ويجلب النوم ، ويضعف صاحبه عن العبادة)[٩١] .

ولا تنتهي أسباب أمراض القلوب إلى هذا الحد ، فإن كل معصية تسبب مرضاً من أمراض القلب . ثم لا يكفي معرفة الأسباب دون معرفة العلاج الذي غالباً ما يكون عكس الأسباب .

٤ ـ علاج أمراض القلوب :

أ ـ القرآن الكريم :

فعلى رأس هذه الأدوية ، القرآن الكريم الذي أنزله الله هدى

---

(٨٩) ابن ماجه ٤١٩٣ ـ قال البوصيري في الزوائد : اسناده صحيح .

(٩٠) الحسن البصري ص ٨٨ .

(٩١) آداب الشافعي ١٠٦ ـ العلمية .

وشفاء ورحمة ونوراً ومنهاجاً للعالمين ، وهو الذي تتفرع منه جميع الأدوية لجميع الأمراض .

يقول الإمام ابن تيمية : (فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للارادات الفاسدة حتى يصلح القلب فتصلح إرادته ، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي ويتغذى القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده كما يتغذى البدن بما ينميه ويقومه)[٩٢] .

يكون علاجاً عندما نقرؤه ونتدبره ونعمل به ثم ننشره بين الناس ، أما الإقتصار على القراءة فقط لا يمكن أن يكون علاجاً لمرض القلوب .

ب ـ تقبل الموعظة :

وبعد قراءة القرآن لا بد من فتح القلب للمواعظ والحكم فهي بداية العلاج والنقطة البيضاء التي ستنطبع على القلب المريض ، وكما يقول الإمام ابن تيمية : (فالقلب يموت بالجهل المطلق ويمرض بنوع من الجهل فله موت ومرض ، وحياة وشفاء ، وحياته وموته ومرضه وشفاؤه أعظم من حياة البدن وموته ومرضه وشفائه فلهذا مرض القلب إذا ورد عليه شبهة أو شهوة قوت مرضه ، وإن حصلت له

---

(٩٢) مجموع الفتاوي ١٠/٩٦ ـ الرسالة .

حكمة وموعظة كانت من أسباب صلاحه وشفائه)[٩٣] .

أما إن تكبر عن سماع الموعظة وأبى إلا أن يغلق قلبه عن سماعها فإنه يزيد في مرض قلبه بزيادة جهالته ويسارع بذلك في القضاء التام على قلبه .

جـ ـ التوبة والاستغفار :

وعندما يستمع بقلب مفتوح للموعظة والحكمة ، فإنه لا بد وأن يتوب إلى الله عما اقترفت يداه معلناً بذلك بداية عملية الإحياء في قلبه المريض . وفي نفس الوقت فإنه يبدأ بعملية أخرى وهي ترك المعاصي التي شبهها الإمام ابن تيمية : (بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن ومثل الدغل في الزرع ، فإذا استفرغ البدن من الأخلاط الرديئة ، كاستخراج الدم الزائد ، تخلصت القوة الطبيعية واستراحت فينمو البدن ، وكذلك القلب إذا تاب من الذنوب كان استفراغاً من تخليطاته حيث خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، فإذا تاب من الذنوب تخلصت قوة القلب وإرادته للأعمال الصالحة ، واستراح القلب من تلك الحوادث الفاسدة التي كانت فيه)[٩٤] ، وكان الرسول ﷺ يعد الغفلة والفترة عن ذكر الله من الذنوب فيسارع للاستغفار من ذلك ، وفي ذلك يقول : (إنه ليغان على قلبي حتى استغفر الله في اليوم مائة

---

(٩٣) مجموع الفتاوي ١٠/٩٤ .

(٩٤) مجموع الفتاوي ١٠/٩٧ .

مرة)[٩٥] . يعد ذلك من التخليط الذي لا بد من التخلص منه كي يبقى قلبه نقياً طاهراً من كل ما يعكر عليه صفو العبودية ، وكأن المعاصي بمثابة الميكروبات التي تعيق الجسم من النمو السليم ، ولا يكون تأثير التوبة والاستغفار مساوياً لتأثير المطهر الذي يطهر الجسم من الميكروب حتى تتمثل فيها الندم والعزم على عدم العودة للمعاصي وترك المعاصي .

د ـ التدبر والخشوع :

ومع خلو القلب من المعاصي بعد التوبة والاستغفار ، يكون القلب قد تهيأ لاستقرار الكلمات الطيبة فيه متأثراً متفاعلاً مع تلك الكلمات لا يقتصر في التدبر والخشوع على السماع ، إنما يتعداه حتى وهو يتحدث إذا ذكر عظمة الله .

جاء في ترجمة الإمام أبي العباس ابن القاص صاحب التصانيف المشهورة التخليص والمفتاح وأدب القاضي ، أنه (كان من أخشع الناس قلباً إذا قص فمن ذلك ما يحكي أنه كان يقص على الناس بطرطوس فأدركته روعة مما كان يصف من جلال الله وعظمته وملكوته من خشية ما كان يذكر من بأسه وسطوته ، فخر مغشياً عليه ومات)[٩٦] .

---

(٩٥) مسلم ٢٧٠٢ ـ كتاب الذكر

(٩٦) طبقات الشافعية ٢/١٠٣ .

هـ ـ الحيـاء :

ومع انبعاث الحيـاة في عروقـه ، وعودة النبض إليـه ، ينشأ الحياء الذي يمنعه من الميل عن الطريق المستقيم (فإن حياة القلب هي المانعة من القبائح التي تفسد القلب ، ولهذا قال النبي ﷺ : (**الحياء من الإيمان**)[٩٧] فإن الحي يدفع ما يؤذيه ، بخلاف الميت الذي لا حياة فيه فإنه يسمى وقحاً ، والوقاحة الصلابة ، وهو اليبس المخالف لرطوبة الحياة . فإذا كان وقحاً يابساً صليب الوجه لم يكن في قلبه حياة توجب حياءه ، وامتناعه من القبح كالأرض اليابسة لا يؤثر فيها وطء الأقدام بخلاف الأرض الخضرة . ولهذا كان الحي يظهر عليه التأثر بالقبح وله إرادة تمنعه عن فعل القبح)[٩٨] .

و ـ زكـاة القلوب :

وينتقل بعد ذلك من مرحلة العلم إلى مرحلة العمل والتطبيق وذلك بتزكية نفسه أولا ثم التهيؤ لتزكية نفوس الناس . . يقول الإمام ابن تيمية : (والزكاة في اللغة النماء والزيادة في الصلاح ، يقال زكا الشيء إذا نما في الصلاح ، فالقلب يحتاج أن يتربى فينمو ويـزيد حتى يكمل ويصلح كما يحتاج البدن أن يربى بالأغذية المصلحة له ، ولا بد مع ذلك من منع ما يضره فلا ينمو البدن إلا باعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره كذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه

---

(٩٧) رواه أحمد ـ وصححه الألباني ص . ج ص ٣١٩٢ .

(٩٨) مجموع الفتاوي ١٠/ ١١٠ .

ودفع ما يضره وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا)[٩٩] .

فيحرص على الازدياد من الطاعات ، كالصلاة والصيام والصدقات ومساعدة الضعيف من إنسان أو حيوان حتى يقرب من الله فيحبه فيكون سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ورجله التي يمشي بها .

ز ـ الشجاعة :

وبعد أن فتح قلبه للموعظة وتاب إلى الله وتدبر وخشع ونما فيه خلق الحياء ، ثم زكى نفسه ليتقرب إلى الله ، لم يبق أمامه إلا نشر هذه الدعوة وتزكية قلوب الآخرين ، كي يهيىء نفسه ليكون من هواة تقوية القلوب وأول ما يحتاجه للإنذار ، الشجاعة وهي (حرارة القلب وغضبه وقيامه وانتصابه وثباته فإذا رأته الأعضاء كذلك أعانته ، فإنها خدم له وجنود كما أنه إذا ولى ولت سائر جنوده[١٠٠] .

٥ ـ الشيوخ يربون الهواة :

إن المهمة التي أنيطت بجيل التأسيس لهي من أصعب المهام في تاريخ الدعوة الإسلامية ، إن المهمة الرئيسية التي كان الرسول ﷺ يربيهم عليها ليست تقوية قلوب ضعفت بسبب فتنة من الفتن ،

---

(٩٩) مجموع الفتاوي ١٠/٩٦ .

(١٠٠) الروح ص ٢٣٦ .

إنما لإحياء قلوب قد ماتت منذ أمد بعيد ، وغلفت بأغلفة أحدها أسود من الآخر من الشرك والكفر والجهل ، فعندما ربى الرسول ﷺ مصعب بن عمير وأرسله إلى المدينة لم يكن ليقطف ثمرة قد أينعت وحان قطافها ، إنما لغرس بذور لم تكن موجودة بالأصل في تلك الأرض .

ونما ذلك الغرس ، وتغلغلت الجذور في الأرض وتضخم الجذع وكثرت الأوراق ، وازدهرت شجرة الإيمان ثم أخرجت الثمار ، فكانت ثماراً طيبة . ثم خلف من بعدهم خلف انفتحت الدنيا عليهم ، فحادت قلوب بعضهم عن الجادة التي مهدها جيل التأسيس (رضوان الله عليهم) وذلك ما كان يخشاه الرسول ﷺ على صحابته عندما قال : (**إن مما أخاف عليكم بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها**)[١٠١] .

الإمام الحسن البصري :

ولكن شاء الله أن يخرج من جيل التابعين الذين التقوا مع جيل التأسيس بعض العناصر التي قامت بمهمة تكميلية لمهمة الصحابة (رضوان الله عليهم) بعد أن رأوا كلمات الرسول ﷺ تتحقق في جيلهم ، وخوفاً من ازدياد تلك الظاهرة ، قاموا بإنشاء مدارس لتربية روادها على فن تقوية القلوب التي فتنت بالدنيا وزينتها ، وكان من

---

(١٠١) متفق عليه ، واللفظ لمسلم ، رقم (١٠٥٢) كتاب الزكاة .

أبرز شيوخ هذه المدرسة التابعي الجليل ـ الحسن البصري ـ فها نحن نراه يخطب في الناس ليكتشف النوعيات التي تريد الانضمام لهذه المدرسة الجديدة مبيناً لهم الخطوط العامة التي ستقوم عليها تلك المدرسة ، وحاثاً لهم بالإنضمام لها ، فيقول : (أيها الناس ، إني أعظكم ولست بخيركم ولا أصلحكم ، وإني لكثير الإسراف على نفسي ، غير محكم لها ولا حاملها على الواجب في طاعة ربها ، ولو كان المؤمن لا يعظ أخاه إلا بعد إحكام أمر نفسه لعدم الواعظون ، وقل المذكرون ، ولما وجد من يدعو إلى الله جل ثناؤه ، ويرغب في طاعته وينهي عن معصيته ، ولكن في اجتماع أهل البصائر ومذاكرة المؤمنين بعضهم بعضاً حياة لقلوب المتقين واذكار من الغفلة ، وأمن من النسيان ، فالزموا ـ عافاكم الله ـ مجالس الذكر ، فرب كلمة مسموعة ، ومحتقر نافع)[١٠٢] .

وفي تصريح آخر يبدو أنه كان خاصاً لرواد المدرسة ، كان واضحاً فيه الأمر ، والمهمة التي يريدهم من أجلها ، قال :

(حادثوا هذه القلوب فإنها سريعة الدثور)[١٠٣] .

وكأنه أراد أن يوضح أهمية المتابعة والاستمرار في عملية تقوية القلوب بسبب سرعة ما يصيب القلوب من ميكروب الدثور إذا لم تداركها أيادي هواة التقوية بالصيانة الدائمة لإزالة ذلك الميكروب .

---

(١٠٢) الحسن البصري ص ٩٠ .

(١٠٣) الحسن البصري ص ١٠٠ .

واستمرت مدرسة الحسن بتخريج رجال هذه الهواية ، حتى اتسع نطاقها مما جعل قتادة يقول : (ما جالست رجلاً فقيهاً إلا رأيت فضل الحسن عليه)[١٠٤] .

وهذا يدل على اتساع نشاط تلك المدرسة ومدى تأثير الإمام الحسن في تنشئة هواتها .

الإمام عبد القادر الجيلاني :

وبعد أربعة قرون من وفاة الحسن ، وفي وقت انخفض فيه إنشاء مثل تلك المدارس ، قام الفقيه أبوسعد المخرمي الحنبلي شيخ الإمام الجيلاني بإنشاء مدرسة ، أحيا بها مدارس الحسن ، وفوضها إلى تلميذه (الشيخ عبدالقادر فكان يتكلم على الناس بها ، ويعظهم وانتفع به الناس انتفاعاً كثيراً)[١٠٥] .

ويستبطىء الإمام سير أحد الطلاب للحاق بقافلة الهواة فيقول والحسرة تملأ قلبه على تخلف تلميذه : (متى تريك شمس المعرفة وجوه قلوب العوام والخواص)[١٠٦] . فلا بد من شرط المعرفة للالتحاق بقافلة هواة تقوية القلوب . معرفة الله أولا ، ومعرفة النفس والتواءاتها ثانياً ، ثم يستطيع بعد ذلك أن يرى وجوه قلوب العوام

---

(١٠٤) البداية والنهاية ٩/٢٦٦ .

(١٠٥) البداية والنهاية ١٢/٢٥٢ .

(١٠٦) الفتح الرباني ص ٥٢ .

والخواص ، وبغير المعرفة لا يستطيع أن يراها والظلام حولها دامس .

وبسبب اختلاف المدارس ، واختلاف الشيوخ ، تعددت شروط القبول وصفات الهواة من مدرسة إلى مدرسة ، ومن شيخ إلى شيخ حتى غدت لدينا مجموعة من الشروط والصفات لا يمكن القبول بغيرها .

٦ ـ صفات هواة تقوية القلوب :

أ ـ مخموم القلب صدوق اللسان :

عن عبدالله بن عمرو قال : قيل يا رسول الله : أي الناس أفضل ؟ قال : (**كل مخموم القلب صدوق اللسان ، قالوا : صدوق اللسان نعرفه ، فما مخموم القلب ؟ قال : هو التقي النقي ، لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد**)[١٠٧] .

صادقاً ، لا يجامل أحداً على حساب الحق .

تقياً ، يراقب الله ولا يبتغي غير وجهه .

نقياً ، من الآثام ومن الأغراض الدنيوية ومن الظلم والغل والحسد ، إنما ينطلق في تقويته للقلوب من منطلق مرضاة الله

---

(١٠٧) ابن ماجه ٤٢١٦ ، قال البوصيري في الزوائد ـ هذا إسناد صحيح رجاله ثقات .

وإحساسه بثقل الأمانة الملقاة على عاتقه في إنقاذ البشرية وانتشالهم من أوحال الدنيا وزينتها المزيفة .

ب ـ الثقة والثبات :

يثق ما يقول ولا يشك فيه طرفة عين ، ويثبت دون هلع ، عندما ينطق بالحق ما دام واثقاً مما يقول : (قيل : إن المهدي حج فدخل مسجد النبي ﷺ فلم يبق إلا من قام إلا ابن أبي ذئب فقيل له : قم ، فهذا أمير المؤمنين قال : إنما يقوم الناس لرب العالمين ، فقال المهدي : دعوه فقد قامت كل شعرة في رأسي)[١٠٨] .

يقولها وهو يستشعر صدق ما يقول ، ثم لا يهمه بعد ذلك عدد المعارضين . يقولها وهو جالس دون أن يلتفت من القادم ، ودون إصفرار للوجه وزيادة في دقات القلب .

جـ ـ الحكمة :

شيخ تكون نهاية فتنة خلق القرآن على يديه ، بسبب الحكمة التي وهبها الله إليه ، وذلك أن الواثق أتى بذلك الشيخ وهو مقيد (فقال له ابن أبي دؤاد :[١٠٩] يا شيخ ما تقول في القرآن ، أمخلوق هو ؟ فقال له الشيخ : لم تنصفني المسألة أنا أسألك قبل الجواب .

هذا الذي تقوله يابن أبي دؤاد من خلق القرآن شيء علمه

---

(١٠٨) تذكرة الحفاظ ١/١٩٢ .

(١٠٩) أحد زعماء فتنة خلق القرآن .

رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أو جهلوه ؟ فقال بل علموه ، قال : فهل دعوا إليه الناس كما دعوتهم أنت أو سكتوا ؟ قال : بل سكتوا ، قال : فهلا وسعك ما وسعهم من السكوت ، فسكت ابن أبي دؤاد وأعجب الواثق كلامه وأمر بإطلاق سبيله ، وقام الواثق من مجلسه وهو على ما حكى يقول : هلا وسعك ما وسعهم يكرر هذه الكلمة ـ يقول الإمام السبكي ـ وكان ذلك من الأسباب في خمود الفتنة)[١١٠] .

وليست الخصومة والجدال وعلو الصوت واللغو من صفاتهم ما دامت قلوبهم مليئة بالحكمة وألسنتهم تتفوه بها .

د ـ جلجلة الحديث :

فهو عندما يرى ضعفاً لقلب إنسان ما ، اكتشفه بسبب كلمة أو فعل ، فإن تلك الكلمة أو ذلك الفعل يتجلجل في قلبه ، ويتفاعل معه ، حتى يحضر الدواء ويتحين الفرص لإعطاء ذلك الدواء لمن رأى فيه ضعفاً ، ولعل القاسم بن مخيمرة قد لاحظ ضعفاً قد بدى أثره على أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز ، نجم منه احتجابه عن الناس فأراد ابن مخيمرة تقوية قلبه ، وأخذ يتحين الفرص ليقول بذلك قبل أن يستفحل الداء ، يقول ابن مخيمرة : (دخلت على عمر بن عبدالعزيز وفي صدري حديث يتجلجل فيه ، أريد أن أقذفه إليه فقلت له : بلغنا أن من ولى على الناس سلطاناً ، فاحتجب عن

---

(١١٠) طبقات الشافعية ١/ ٢١٥ .

فاقتهم وحاجتهم احتجب الله عز وجل عن فاقته وحاجته يوم القيامة[١١١] قال : فقال ما تقول ؟ ثم أطرق طويلا ، فعرفتها فيه وبرز للناس)[١١٢] .

هـ ـ سليمان يجمل الصفات :

قال عمر بن عبدالعزيز لسليمان بن عبدالملك : (إن بالباب يا أمير المؤمنين رجلاً له حزم ولسان قال : أدخله ، فدخل ، فقال له سليمان ممن الرجل ؟ فقال : من عبد القيس بن أفصي وإني مكلمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله وإن كرهته ، فإن وراءه ما تحب إن قبلته فقال : قل يا أعرابي ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه قد اكتنفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، خافوك في الله ولم يخافوه فيك ، خربوا الآخرة ، وعمروا الدنيا ، فهم حرب للآخرة سلم للدنيا فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ، فإنهم لن يألوا الأمانة إلا تضيعاً والأمة خسفاً وأنت مسئول عما اجترحوا وليسوا بمسئولين عمَّا اجترحت فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك فإن أعظم الناس غبناً ، بائع آخرته بدنيا غيره ، فقال له سليمان : فهل من حاجة في ذات نفسك قال : أما خاصة دون عامة فلا ، ثم قام فخرج ، فقال سليمان : لله دره ما أشرف أصله ، وأجمع قلبه ،

---

(١١١) وجدته بلفظ « من ولي من أمور المسلمين شيئا ، فاحتجب دون خلتهم وحاجتهم وفقرهم وفاقتهم ، احتجب الله عنه يوم القيامة دون خلته وحاجته وفاقته وفقره » . أخرجه أبو داود وصححه الألباني ص .ج. ص ٦٤٧١ .

(١١٢) المصباح المضي ٢/٨٢ ، ٨٣ .

وأذرب لسانه ، وأصدق بينته وأورع نفسه ، هكذا فليكن الشرف)[١١٣] .

وما كان أمام سليمان كي يكشف شخصيته إلا صفة واحدة عرفها عندما سأله عن حاجته . فلما أجاب اكتملت الصفات التي ترشحه لعضوية مدرسة هواة تقوية القلوب . .

هذه أبرز صفات هواة تقوية القلوب ، وستبرز صفات أخرى في ميدان التطبيق العملي بعد التخرج من المدارس .

٧ ــ الهواة في الميدان :

المجادلة تعظ عمر :

خرج عمر بن الخطاب من المسجد ومعه الجارود العبدي[١١٤] فإذا امرأة على ظهر الطريق ، فسلم عليها عمر فردت السلام ، أو سلمت عليه فرد عليها السلام ، فقالت : هيه يا عمر ، عهدتك وأنت تسمى عميراً في سوق عكاظ تصارع الصبيان ، فلم تذهب الأيام ، حتى سميت عمر ، ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين فاتق الله في الرعية ، واعلم أنه من خاف الموت ، خشي الفوت فبكى عمر ، وقال الجارود : هيه فقد اجترأت على أمير المؤمنين وأبكيته ، فقال عمر : دعها ، أما تعرف هذه ؟ هذه خولة بنت حكيم التي سمع الله قولها من فوق سمائه فعمر والله أحرى أن يسمع كلامها[١١٥] .

---

(١١٣) المصباح المضيء ٢/٦٠ .

(١١٤) صحابي جليل .

(١١٥) المصباح المضيء ٢/٣٦ .

وكانت المجادلة تريد بذلك ، القضاء على خطرات قد تراود عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عند استلامه للخلافة تدعوه للعجب بنفسه ولو للحظات (بأنه الخليفة) وأرادت أن تجعل قلبه قوياً نظيفاً حتى من هذه الخطرات ، ليقوى على إدارة دفة البلاد على ما أراد الله سبحانه وتعالى .

يعصمك من يزيد ولن يعصمك يزيد منه :

وفي لحظة ضعف مر بها عمر بن هبيرة والي العراق في خلافة يزيد بن عبدالملك ، يرسل إلى اثنين من مدرسة تقوية القلوب ـ الحسن البصري ، شيخ مدرسة التابعين والإمام الشعبي ، يطلب منهما تقوية قلبه من الضعف الذي طرأ عليه ، بصيغة سؤال قال فيه : (إن أمير المؤمنين يزيد بن عبدالملك يكتب إليَّ كتبا أعرف أن في إنفاذها الهلكة ، فإن أطعته ، عصيت الله ، وإن عصيته أطعت الله ، فهل تريان في متابعتي إياه فرجا ؟ فتكلم الشعبي فأوجز ولم يفصح فقال ابن هبيرة للحسن : ما تقول أنت يا أبا سعيد ؟ فقال : أقول يا عمر بن هبيرة أوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى ، فظ غليظ ، لا يعصي الله ما أمره ، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك . يا عمر بن هبيرة ، إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبدالملك ولن يعصمك يزيد بن عبدالملك من الله . يا عمر بن هبيرة ، لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبدالملك فيغلق به باب المغفرة دونك . يا عمر بن هبيرة ، لقد أدركت ناسا من

صدر هذه الأمة كانوا على الدنيا وهي مقبلة أشد إدباراً من إقبالكم عليها وهي مدبرة ، يا عمر بن هبيرة ، إني أخوفك مقاما ، خوفك الله فقال : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾* يا عمر بن هبيرة إن تك مع الله في طاعة كفاك يزيد بن عبدالملك ، وإن تك مع يزيد على معاصي الله وكلك الله إليه . فبكى عمر بن هبيرة وقام بعبرته .(١١٦) والحسن هنا قام بعملية كبيرة وهي أنه حاول توجيه قلب ابن هبيرة من الخوف من العبيد إلى الخوف من الله وحده ، ودليل نجاح هذه المحاولة هو بكاء ابن هبيرة الذي جاء عن استيقاظ قلبه من تلك الغفلة التي جعلته ينسى أن الله سبحانه وتعالى هو مالك يزيد وهو مالك الملك جميعا وأنه لا يستطيع أحد أن يقوم بشيء إلا بأمره .

زروع قد دنا حصادها :

كتب الحافظ زر بن حبيش إلى عبدالملك بن مروان كتابا يعظه فيه ، وكان في آخر كتابه : (**ولا يطمعنك يا أمير المؤمنين في طول الحياة ما يظهر من صحة بدنك ، فأنت أعلم بنفسك ، واذكر ما تكلم به الأولون .**

إذا الرجال ولدت أولادها وبليت من كبر أجسادها
وجعلت أسقامها تعتادها تلك زروع قد دنا حصادها

---

(١١٦) المصباح المضيء ٢/٢١٤ .

* سورة إبراهيم ١٤ .

فلما قرأ عبدالملك الكتاب بكى ، حتى بل طرف ثوبه ، ثم قال : صدق زر . ولو كتب إلينا بغير هذا كان أرفق)[١١٧] .

ويبدو أن هذه الموعظة قد أثرت في قلب عبدالملك ولكن هذا التأثير لم يكن كبيراً ، بسبب قوله ـ ولو كتب إلينا بغير هذا كان أرفق ـ ويرجع سبب عدم التأثر الكامل هذا إما بسبب حدة في الموعظة أو قوة في المرض .

ليلة تمخض بالقيامة :

وهذه وثيقة نادرة يعترف فيها الخليفة الراشد الخامس عن سبب هدايته ، ويمثل نفسه وكأنه كان يغط في نومٍ عميق ، فيقول بصراحة : (أول من أيقظني لهذا الشأن مزاحم مولاي ، حبست رجلا فجاوزت في حبسه القدر الواجب ، فكلمني في اطلاقه فلم أفعل فقال : يا عمر إني أحذرك ليلة تمخض بالقيامة . ولقد كدت أنسى ـ اسمك مما أسمع ، قال الأمير : فوالله ما هو إلا أن قال ذلك فكأنما كشف عن وجهي غطاء فذكروا أنفسكم (فان الذكرى تنفع المؤمنين)[١١٨] . وهنا ملأ التأثير قلب عمر رضي الله عنه حتى جعله يدعو ويحث الآخرين للانتماء لهذه المدرسة .

---

(١١٧) المصباح المضيء ٢/٤٤ .

(١١٨) المصباح المضيء ١/١٥٥ .

طول البقاء إلى فناء :

وما كانت كلمة عمر الأخيرة (فذكروا أنفسكم) تذهب هباءً دون دراسة وتحليل من المراقبين في ذلك الزمان ، وما كان من الحسن شيخ مدرسة التابعين أن يسمع هذه الكلمة ويترك صاحبها دون احتواء لمدرسته التي أنشأها ، فظل يراقبه حتى غدا أميرا للمؤمنين فأرسل إليه رسالة قال فيها : (أما بعد : يا أمير المؤمنين فإن طول البقاء إلى فناء ، ما هو ؟ فخذ من فنائك الذي لا يبقى ، لبقائك الذي لا يفنى والسلام . فلما قرأ عمر الكتاب ، بكى وقال : نصح أبوسعيد وأوجز)[١١٩] .

والظاهر أن الإمام الحسن كان يريد من وراء إرسال الرسالة أمرين ، الأول هو تقوية قلبه إن كان ضعيفا ، والثاني هو جس النبض لمعرفة مستوى قلبه . ولقد نجح أمير المؤمنين في الاختبار وبرهن على أنه أهل لما أعطي من مسئولية ، وفيه يتضح أسلوب آخر يستخدمه الهواة وهو الرسالة ، فما لا تستطيع قوله باللسان يستطيع القلم خطه على الورق دون هيبة تزعزع المنطق .

الطائر المكسور :

إن قوة القلب الحقيقية لا يمكن أن تأتي إلا من الأمور المشروعة في الإسلام والخالصة لوجه الله تعالى وبغير هذين الأمرين لا تتأتى للقلب قوة حقيقية صافية من شوائب الغرور والكبرياء

---

(١١٩) المصباح المضيء ٢/ ٧٠ ، ٧١ .

والعجب واحتقار الآخرين ، هذا ما فهمه جيدا الزاهد إبـراهيم بن أدهم وأراد أن يوضحه لشقيق بن ابراهيم البلخي[١٢٠] ، كي يصحح مسير قلبه الذي بدا لابن أدهم أنه حاد عن الطريق ، ولا يمكن أن يقوى خارج الطريق المستقيم ، وذلك حينما رآه في انقطاع عن الدنيا مشتغلا بالعبادة دون التكسب ، ظانا أن هذا من تمام التوكل ، قال له : (ما بدء أمرك الذي بلغك إلى هذا ؟ فذكر أنه رأى في بعض الفلوات طائراً مكسور الجناحين ، أتاه طائر صحيح الجنـاح ، في منقـاره جـرادة ، فتـركت التكسب واشتغلت بـالعبـادة . فقـال لـه إبراهيم : ولم لا تكون أنت الـطائر الصحيـح الذي أطعم الـطائر المكسور حتى تكون أفضل منه ؟ أمـا سمعت من النبي ﷺ (اليد العليا خير من اليد السفلى)[١٢١] ومن علامـة المؤمن ، أن يطلب أعلى الدرجتين في أموره كلها حتى يبلغ منازل الأبرار . فأخذ شقيق يد إبراهيم فقبلها وقال ، أنت أستاذنا يا أبا أسحق)[١٢٢] .

إن يقتلك الحق مِتَّ شهيداً :

أعرابي يسمع بفتنة الإمام أحمد ، ويخشى عليه أن يضعف قلبه أمام ما أعدوا له من العذاب ليوافقهم فيما ابتدعوه ، فيعترض

---

(١٢٠) قال الذهبي في الميزان (٢ / ٢٧٩) كان من كبار المجاهدين استشهد في غزوة كولات .

(١٢١) البخاري (الفتح ٦٤٤١) ـ كتاب الرقاق .

(١٢٢) فوات الوفيات ٢/١٠٦ .

الجند وهم يقتادون الإمام مكبلا بالقيود إلى دار الخلافة ، ويسأل عن الإمام فيرشدونه عليه ، ويقف أمامه خاشياً عليه من الارتداد بعد الثبات ، يقول مطمئناً له ومبشراً (يا أحمد إن يقتلك الحق مِتَّ شهيداً وإن عشت عشت حميداً) يقول الإمام أحمد : (فقوي قلبي) حتى يتذكر الإمام بعد إنجلاء الفتنة تلك الكلمات التي قوت قلبه وكانت سببا في صموده تحت السياط ، فيقول : (ما سمعت كلمة منذ وقعت في هذا الأمر الذي وقعت فيه أقوى من كلمة أعرابي كلمني بها في رحبة طوق)[١٢٣] .

أوّلك نطفة مذرة :

يقول الرسول ﷺ : (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)[١٢٤] يقول ابن حجر : (وخص القلب بذلك لأنه أمير البدن وبصلاح الأمير تصلح الرعية ، وبفساده تفسد)[١٢٥] . وهي إحدى القواعد التي تعلمها الهراة من رسولهم ﷺ لا يشكون فيها أبداً . فعندما مر والي البصرة بمالك بن دينار متبختراً بمشيته ، أدرك ابن دينار ، أن ذلك من مرض في قلبه وأراد أن يقويه فصاح به : أقل من مشيتك هذه ، فهم خدمه به ، فقال دعوه ـ ما أراك تعرفني ، فقال له مالك : ومن أعرف بك مني ، أما أوّلك فنطفة مذرة وأما آخرك فجيفة قذرة ،

---

(١٢٣) مناقب الامام أحمد ص ٣١٣ .

(١٢٤) البخاري ـ الفتح ٥٢ .

(١٢٥) الفتح ١/١٢٦ .

ثم أنت بين ذلك تحمل العذرة فنكس الوالي رأسه ومشى)[١٢٦] .

٨ ــ استكمل الشروط :

إن شروط الإنضمام لمدارس هواة تقوية القلوب بينة معلنة ولعلك أخي الحبيب قد أتيت على كثير منها في جولتنا هذه فإن نقصك شيء منها فاستكمله حتى تكون مع القافلة .

---

(١٢٦) طبقات الشافعية ٢/٢٣٥ .

قال تعالى :

﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾ [طه ٤٢ الى ٤٦] .

توطئــة . . .

ولكن هل يترك أهـل الباطـل « أصحاب القلوب السـوداء » أولئك الهواة يقومون بهوايتهم المحببة إليهم ؟ هل يتركونهم يقومون بعملية التقوية دون وضع العراقيل في طريقهم ؟

لا بد من ذلك يدفعهم لذلك أمران ، ظنهم أن أولئك الهواة يقومون بتقييد حرياتهم الشخصية ويحسبون ذلك نوعاً من التدخل والهجوم الذي يحتاج إلى دفاع عن النفس على صورة إعاقـة بكل الوسائل الممكنة والمؤدية لهدف إيقاف الهواة عن تلك الهواية .

والأمر الآخر هو الخوف على المكاسب التي حققوها بوسائل وطرق غير مشروعة ، فيخشون من أولئك أن يفضحوا تلك الطرق ويمنعوهم أن يبصروا الآخرين بعد أن كانوا عديمي الرؤيـة بسبب أمراض قلوبهم . فيعمدون لوضع عـوائق في طريقهم تمنعهم من تأدية رسالتهم .

فيركزون عندما يضعون تلك العوائق على الأمر الذي لا يحبه كـل إنسـان وهـو المـوت ليخيفـوا بـه أصحـاب تلك الهـوايـة ، ويستخدمون كل الوسائل التي يمكن إستخـدامها للوصـول إلى ما

يخيف الإنسان على نفسه من تهديد وإرهاب واستفزاز وفتنة في المال والنفس . وتبدأ النفوس بالخوف والتراجع ، وسبب خوفها وتراجعها يعود إلى أمرين ، الأول هو ظنها في تلك اللحظة أن أصحاب القلوب السوداء يملكون الحياة أو الموت والأمر الآخر نسيانها في تلك اللحظة ، الذي بيده نواصي أصحاب الباطل وأنه أقوى منهم . فيكون أولئك الهواة في أمس الحاجة إلى الشعور بمعية الله كي يصرعوا نفوسهم وما تدعوهم إليه من الاستكانة والخوف والتراجع ويقولون كما قال المؤمنون من قبل عندما قيل لهم :﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ ﴾ . . . ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ آل عمران/١٧٣ .

الصفة الرابعة :

الشعور بمعية الله

وهي من أهم الصفات التي يتحلى بها الداعية ولولاهي ما جرؤ داعية أن ينطق بالحق أمام طاغية وأنى له الجرأة وهو لا يشعر بأن القوة المطلقة معه أمام قوة هزيلة مخلوقة لا حول لها ولا قوة ؟ إن الانتكاسة الشعورية عند الداعية التي يتبعها الجبن والخوف والهلع إلى آخر هذه الصفات إنما تبدأ عندما ينسى الداعية تلك الحقائق عن الله سبحانه وتعالى إما لحظياً وإما أبدياً والعياذ بالله .

من ذلك يتبين أن الشعور بمعية الله ينتج عنه أبرز هذه الصفات التي يحتاجها الدعاة إلى الحق وهي (القوة والثبات واليقين والجرأة والصبر والثقة) وحتى يتجلى هذا المعنى نعيش مع نماذج ممن تحلوا بهذه الصفة فتكونت بمواقفهم أجيال من الدعاة .

داعية من أولى العزم :

﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ ﴾[1] .

هكذا يصور التعبير القرآني موقف السموات والجبال عندما ادعى بعض الناس أن لله ولداً ، مع الإيمان بوجود الله . ولكن كيف كانت السموات والأرض والجبال عندما أنكر طاغية من طغاة الأرض وجود الله كلية ونصب نفسه مكانه وقال : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[2] .

وأمام هذا الفساد ربى الله سبحانه وتعالى رسولاً من أولى العزم لمهمة القضاء على هذا الفساد ونشر الحق بدلا منه .

وعندما اكتملت تربية موسى عليه السلام لهذا الأمر العظيم : (**أمر الرسالة**) قال له الله سبحانه وتعالى : ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾[3] . ولهول هذه المهمة بدت الصفات الفطرية في الإنسان تنكشف : ﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾[4] وهنا يدل الله سبحانه وتعالى موسى وهارون عليهما السلام على الدواء الذي يشفي من مرض

---

(١) مريم ٨٨ الى ٩١ .

(٢) النازعات ٢٤ .

(٣) طه ٤٢ ، ٤٣ .

(٤) طه ٤٥ .

الخوف : ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ ﴾[٥] .

(إنني معكما : إنه القوي الجبار الكبير المتعال إنه الله القاهر فوق عباده إنه موجد الأكوان والحيوان والأفراد والأشياء بقوله كن ولا زيادة إنه معهما وكان هذا الإجمال يكفي ولكنه يزيدهما طمأنينة ولمسا بالحس للمعونة . (أسمع وأرى) فما يكون فرعون وما يملك وما يصنع حين يفرط أو يطغى ؟ والله معهما يسمع ويرى)[٦] .

التطبيق الأول :

يقف موسى وأخوه أمام الطاغية الكبير (فرعون) دونما خطرات من خوف وبكل ثقة وجرأة يقولان له وبكلمات مليئة بالعزة وبأسلوب يشبه الأمر : ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ ﴾[٧] .

وينهيان كلامهما بتهديد لاذع . . ﴿ قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾[٨] .

أليس هذا هو موسى بذاته الذي كان يقول :

---

(٥) طه ٤٦ .

(٦) الظلال ٤ / ٢٣٣٧ ـ الشروق .

(٧) طه ٤٧ .

(٨) طه ٤٨ .

﴿ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾[٩] .

والقائل : ﴿ إِنِّيَ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾[١٠] .

والقائل مع أخيه : ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾[١١]

ولكنه الشعور بمعية الله هو الذي أحدث هذا الانقلاب النفسي في حياة موسى فكان منه ما كان .

التطبيق الثاني :

وبعد أن رسخ في نفس موسى عليه السلام الشعور بمعية الله نراه يتعرض لموقف لا يستطيع أن يتصرف حياله إلا أصحاب الايمان الشامخ بهذه العقيدة (لقد أسرى موسى بعباد الله بوحي من الله وتدبير فاتبعهم جنود فرعون في الصباح بمكر من فرعون وبطر ثم ها هوذا المشهد يقترب من نهايته والمعركة تصل إلى ذروتها . إن موسى وقومه أمام البحر ليس معهم سفين ولا هم يملكون خوضه وما هم بمسلحين وقد قاربهم فرعون بجنوده شاكي السلاح يطلبونهم ولا يرحمون وقالت دلائل الحال كلها أن لا مفر والبحر أمامهم والعدو خلفهم :

﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾[١٢] .

---

(٩) القصص ٣٣ .

(١٠) القصص ٣٤ .

(١١) طه ٤٥ .

(١٢) الشعراء ٦١ .

وبلغ الكرب مداه وإن هي إلا دقائق تمر ثم يهجم الموت ولا مناص ولا معين ولكن موسى الذي تلقى الوحي من ربه لا يشك لحظة وملء قلبه الثقة بربه واليقين بعونه والتأكيد من النجاة وإن كان لا يدري كيف تكون فهي لا بد كائنة والله هو الذي يوجهه ويرعاه .

﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾[١٣] .

كلا في شدة وتوكيد ، كلا لن نكون مدركين ، كلا لن نكون هالكين ، كلا لن نكون مفتونين ، كلا لن نكون ضائعين ﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ بهذا الجزم والتأكيد واليقين وفي اللحظة الأخيرة ينبثق الشعاع المنير في ليل اليأس والكرب وينفتح طريق النجاة من حيث لا يحتسبون : ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾[١٤] . ووقعت المعجزة وتحقق الذي يقول عنه الناس مستحيل لأنهم يقيسون سنة الله على المألوف المكرور والله الذي خلق السنن قادر على أن يجريها وفق مشيئته عندما يريد)[١٥] .

ـ المربي الأول :

يضطرب أبو بكر رضي الله عنه لسماعه خفق أقدام المطاردين

---

(١٣) الشعراء ٦٢ .

(١٤) الشعراء ٦٣ .

(١٥) الظلال ٥/٢٥٩٨ ، ٢٥٩٩ ، الشروق

للرسول ﷺ قريباً منهما ويسمع أصواتهم ومناقشاتهم قريباً جداً في الغار ويتملكه الخوف الشديد على الرسول ﷺ لا على نفسه وبموازين البشر يهمس للرسول ﷺ قائلا : (**لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا**)[١٦] وبكل ثقة بمعية الله ودون أي شك بنصر الله وبطمأنينة كاملة يرد الرسول ﷺ على أبي بكر مربياً له على هذه الصفة الحميدة : (**لا تحزن إن الله معنا**)[١٧] . (**وما ظنك باثنين الله ثالثهما**)[١٨] . وتمضي هذه الكلمة الطيبة درساً لكل دعاة الحق على مر العصور ـ لا تحزنوا ولا تخافوا ولا يهولنكم حجم الباطل المتورم فإن الله معنا .

ـ ابن مسعود الجاهر بالقرآن :

ويتخرج من المدرسة النبوية جيل من الصحابة رضي الله عنهم ضربوا أروع الأمثلة في تاريخ البشرية بمواقفهم الفذة وإيمانهم الذي لا يلين .

فهذا أحدهم وهو « أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه .

اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط . فمن رجل يسمعهموه فقال عبدالله

---

(١٦) البخاري (الفتح ٤٦٦٣) .

(١٧) التوبة ٤٠ .

(١٨) البخاري (الفتح ٤٦٦٣) .

بن مسعود : أنا قالوا : إنَّا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه)[١٩] وبثقة المؤمن بمعية الله . وهو الضعيف جسدياً حتى كان بعض الصحابة يضحك من نحافة ساقيه . وهو الذي ليس له عشيرة يحمونه ويدرءون عنه ما يلاقي .

وهو المسلم الذي تبع هذا الدين الجديد الذي يسفه آلهتهم . وهو راعي الغنم المسمى عندهم (ابن أم عبد) .

يقول (دعوني فإن الله سيمنعني)[٢٠] بهذا الايمان فقط ولا يملك سواه أتاهم ضحى وهم يلعبون ، وأمام صناديد قريش وزعمائهم يقف عند مقام إبراهيم (ثم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ـ رافعاً صوته ـ الرحمن علم القرآن ـ **فتأملوه فجعلوا يقولون : ماذا قال ابن أم عبد ؟ قالوا : إنه يتلو بعض ما جاء به محمد ، فقاموا إليه فجعلوا يضربون في وجهه وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا في وجهه ، فقالوا له : هذا الذي خشينا عليك**)[٢١] .

ولكنهم عندما قالوا له ذلك لم يعرفوا ما الشعور الذي كان يعيش فيه ابن مسعود رضي الله عنه وهو يقرأ القرآن وهم يضربونه ، ولم

---

(١٩) سيرة ابن هشام ١/٣١٤ .

(٢٠) سيرة ابن هشام ١/٣١٤ .

(٢١) سيرة ابن هشام ١/٣١٥ .

يعلموا أنه أدرك بعد هذه التجربة الصغيرة مع أهل الباطل أنه قوي مع الله وهم ضعفاء لا يملكون سوى الضرب والتهديد ، وهم أضعف من أن يقارعوا الحجة بالحجة ، أدرك ذلك إدراكا لا يشك فيه أبداً ، لذلك أجاب الصحابة :

(ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداء ، **قالوا : لا حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون**)[٢٢] .

ـ شهيد طاغية بني حنيفة :

اختار الرسول ﷺ شاباً من الخزرج ليرسل معه رسالة إلى طاغية بني حنيفة (مسيلمة الكذاب) ينهاه فيها عما يقوم به .

دخل على مسيلمة ليس معه إلا الله مستشعراً بذلك ، ورجال مسيلمة ملتفون حوله ، عيونهم تكاد أن تأكل الصحابي الجليل (حبيب بن زيد الانصاري) وما أن قرأ مسيلمة ما في الرسالة حتى غضب غضباً شديداً فسأل حبيب ، أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ لم يرهب الشرر الذي يخرج من عين مسيلمة ولا السيوف الملتفة حوله والجو المرعب الذي يغشاه وقال بكل شجاعة ، شجاعة المؤمن ان الله معه الآن يراه ليس غافلاً عنه (يسمع ويرى) قال ـ نعم فسأله ـ أتشهد أني رسول الله ؟ ولم يكتف بلا إنما بالغ بالإنكار عندما رد عليه قائلا أنا أصم لا

---

(٢٢) سيرة ابن هشام ١/٣١٥ .

أسمع ، وما زال يكرر عليه السؤال وحبيب يكرر عليه نفس الجواب ومسيلمة يقطع في جسده بعد كل إجابة عضواً ، حتى فاضت روحه وذهب شهيداً رضي الله عنه[٢٣] .

ـ إمام أهل الشام :

عبدالرحمن بن الاوزاعي ـ الفقيه الثقة ، كانت له مواقف كثيرة مع الأمراء وكانوا يهابونه ولا يهابهم ، دخل على أبي جعفر المنصور ذات يوم ، يقول (فرأيت الرجال وقوفاً بين يديه بالسيوف ، فلما رأيت ذلك ، لم أشك إلا وأنا مقتول ، قال لي : ما تقول في دماء بني أمية ؟ قلت : هي حرام : قال رسول الله ﷺ ـ أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم وحسابهم على الله ـ قال ويلك أليس الخلافة وراثة لنا من رسول الله ﷺ ـ قلت ـ لو كانت وراثة لكم ما حكم (علي) الحكمين .

ثم قال لي ـ قم فخرجت)[٢٤] .

ومع أنه كان لا يشك أنه سيقتل وكان من الممكن أن يداهن كما يفعل الكثير من العلماء أو يأخذ بالرخصة في قول ما يرضي الملك خوفاً من البطش الذي كان لا يشك فيه ، ومع ذلك كله قالها وهو يشعر أن الذي أمامه عبد مثله لا يملك ضراً ولا نفعاً وأن الله معه بكل كلمة

---

(٢٣) أصل القصة في ـ أسد الغابة ١/٤٤٣ الشعب .

(٢٤) الجرح والتعديل ـ للرازي ١/٢١٤ .

يقولها وبهذا الشعور ، نطق بكلمة الحق لا يخاف في الله لومة لائم .

ـ ابن أبي ذئب الإمام الثبت :

هكذا ترجم له الذهبي في التذكرة .

قال عنه الإمام أحمد : (دخل على المنصور فلم يهبه أن قال له الحق وقال الظلم ببابك فاش وأبوجعفر أبوجعفر)[٢٥] .

وذلك ما رواه محمد بن ابراهيم تلميذ بن أبي ليلى قال :

(كنت عند أبي جعفر المنصور ـ وعنده ابن أبي ذئب ، فقال أبوجعفر : ما تقول في الحسن بن زيد ؟ (وكان والياً للمدينة أيام المنصور) .

قاال ـ يأخذ بالإحنة[٢٦] ويقضي بالهوى .

فقال له الحسن ـ الله الله ، والله ما سلم عليه أحد وإن شئت فسله عن نفسك يا أمير المؤمنين .

قال محمد بن ابراهيم ـ فجمعت ثيابي والسياف قائم على رأس أبي جعفر ، مخافة أن يأمر به فيقتل فيصيب دمه ثوبي .

قال ـ ما تقول فيّ ؟

قال ـ أعفني يا أمير المؤمنين .

---

(٢٥) تذكرة الحفاظ ١/١٩٢ .

(٢٦) الاحنة ـ أي الحقد .

قال ـ لا بد أن تقول .

قال ـ إنك لا تعدل في الرعية ولا تقسم بالسوية .

فتغير وجه أبي جعفر ـ فقام (ابراهيم بن يحيى) ـ والي المدينة أيام المهدي ـ وقال : طهرني بدمه يا أمير المؤمنين ؟

قال له ابن أبي ذئب ـ اقعد يا بني فليس في دم رجل يشهد أن لا إله إلا الله ـ طهور)[٢٧] ولا نزيد على ما قاله الإمام أحمد .

ـ شيخ الإسلام ابن تيميه :

وذلك عندما أراد التتار مهاجمة دمشق بعد أن حطموا بغداد فخرج الناس من الشام هرباً إلى مصر وخرج معهم كبار العلماء والأمراء وأعيان الناس وفي هذا الوقت قرر ابن تيمية الذهاب لمقابلة ملك التتار يكلمه بالإمتناع عن دخول دمشق ـ ذهب وقال للترجمان وهو واقف أمامه قل للقازان : أنت تزعم أنك مسلم ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا ، وأبوك وجدك كانا كافرين وعملا ما عملت عَاهَدَا فَوفَّيَا وأنت عاهدت فغدرت وقلت فما وفيت)[٢٨] .

بهذه اللهجة كان يخاطب الملوك الذين حطموا بغداد وقتلوا أهلها . التتار الذين لا يعرفون إلا الدمار ، الذين كان يهرب الناس

---

(٢٧) أدب الشافعي ص ٣٢٠ .

(٢٨) القول الجلي في ضمن مجموعة المناقب ص ١٦٢ .

منهم قبل أن يصلوا إلى ديارهم ، لا شك أنه كان ينظر إلى ملك التتار وكأنه هباءة أمام عظمة الله (خالق كل شيء) الذي كان يستشعر أنه معه يسمع ويرى .

ـ سطان العلماء :

العز بن عبدالسلام ، لقبه بذلك تلميذه ابن دقيق العيد ـ كان مهاباً من السلاطين والأمراء وكانوا يحسبون له ألف حساب . . (حزن عليه السلطان الملك الظاهر بيبرس كثيراً عند موته حتى قال ـ لا إله إلا الله ما اتفقت وفاة الشيخ إلا في دولتي)[٢٩] . (طلع الشيخ عز الدين مرة إلى السلطان في يوم إلى القلعة فشاهد العسكر مصطفين بين يديه ومجلس المملكة وما للسلطان فيه يوم العيد من الأبهة وقد خرج على قومه في زينته على عادة سلاطين الديار المصرية وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدي السلطان ، فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه يا أيوب ما حجتك عند الله إذا قال ألم أبوىء لك ملك مصر ثم تبيح الخمور فقال ـ هل جرى هذا ـ فقال : نعم الحانة الفلانية يباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة ـ يناديه كذلك بأعلى صوته والعساكر واقفون فقال ـ يا سيدي هذا أنا ما علمته ، هذا من زمان أبي فقال ـ

---

(٢٩) طبقات الشافعية ٥/١٠٢ .

أنت من الذين يقولون إنا وجدنا آباءنا على أمة فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة .

يقول الياجي ـ سألت الشيخ لما جاء عند السلطان ـ يا سيدي أما خفته ـ

فقال : والله يا بني استحضرت هيبة الله تعالى فصار السلطان ـ قدامي كالقط)[٣٠] .

نعم فلولا هذا الاستحضار لهيبة الله والشعور بمعيته لتبدل الموقف غير الموقف .

إن هذا الاستحضار لا يتم هكذا دون تربية ومجاهدة لهذه النفس والاعتراف بالأخطاء ، لا يتم دون تفكر مستمر بخلق الله العظيم والتفكير بقدرته التي أهلك بها الأمم السابقة والتي يهلك بها على مر العصور كل عتل جواظ مستكبر ، لا يتم دون ذوبان كامل بهذه الدعوة المباركة وبكل متطلباتها .

---

(٣٠) طبقات الشافعية ٥/٨٢ .

بسم الله الرحمن الرحيم

خـــاتمة

ربما يخطر على بعض الاخوة المربين خاطر ، صعوبة تطبيق هذا الكم من الصفات ، أو الالتزام الدائم بها ، مع الإيمان بأهميتها خاصة لمن تصدى لأمر هذه الدعوة وتربية المدعوّين فيها .

وقبل أن نسترسل في هذا الخاطر العائق للتطبيق ، علينا أن ندرك أن ترك العوائد والعلائق* أمر ليس بالهين ، بل يحتـاج إلى عزيمة ومجاهدة لكي تتـأصل هـذه الصفات فينـا ، فلسنا آلات ، يضغط على زر فيها فتعمل ، إنما نحن بشر ، ولا نستطيع الخروج عن بشريتنا إلى خلق آخر والبشر متعرض للنسيان وللتعثر في بداية محاولته الالتزام في بعض الصفات الحميدة وما زال يحاول ويتعثر حتى يستقيم وتتأصل تلك الصفات فيه ، ما دام فيه عزيمة أكبر من كل العثرات ، وما دامت فيه النية خالصة لله سبحانه وتعالى ، فلا بد أن الله سبحانه وتعالى سوف يوفقه ويبارك في محاولاته للتخلق بتلك الصفات مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾(١) .

---

* العوائد ما اعتاد عليه الانسان والعلائق كل ما تتعلق فيه النفس من الحظوظ .

(١) العنكبوت ٦٩ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المصفّى من صفة الرّحاة

عبد الحميد البلالي

الجزء الثاني

الحمد لله رب العالمين الذي خلق الانسان من نطفة أمشاج ولم يكن شيئاً مذكوراً، ونفخ فيه الروح فتحرك الجسد الذي كان كتلة من لحم ساكنة، فمنهم من استمر في الحركة بعد خروجه من بطن أمه، ومنهم من سكن، فكان أقرب إلى أهل القبور منه إلى الأحياء، ومن المتحركين من تحرك في سبيل مرضاة خالقه، ومنهم من تحرك في سبيل هواه وشهوته وفي سبيل غضب الله تعالى، وشتان بين المتحركين، والكل راجع اليه يوم القيامة ليحاسبه عن نوعية تحركه وكده وتعبه في هذه الدنيا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾، والصلاة والسلام على سيد المتحركين، الذي لم يهدىء، ولم يقر له قرار منذ أن أمر بالتبليغ حتى غادر هذه الدنيا، وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه بالتحرك لنصر هذا الدين دون وهن لما يصيبه في سبيل الله ولا ضعف ولا استكانة حتى آخر نفس له في هذه الحياة. أما بعد...

فإن الإيمان مجرداً عن العمل لا ينجي من النار، ولا يكون كاملاً، ولم تذكر آية من آيات القرآن الإيمان إلا وقرنته بالعمل، لذلك عرف علماء السلف رضي الله عنهم الإيمان بأنه «نطق باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان».

فبعد الإيمان بهذا الطريق، لابد من العمل الدؤوب لتحقيق ما أراده الله منا على هذه الأرض، والعمل الدؤوب إذا لم يصاحبه ثقة بالنصر يكون مهزوزاً، ومؤدياً لليأس في منتصف الطريق. فلابد أن يصاحب العمل ثقة

بالنصر، لتكون الوقود المؤجج للحركة الدائبة التي لا تنقطع حتى النصر، أو الشهادة في سبيل من أمرنا بالتحرك لنصرة دينه.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأول

الحركة الدائبة

النملة ذلك المخلوق الصغير الذي سمى الله سبحانه وتعالى سورة كاملة باسمه (سورة النمل) اذ يقول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾[1] فبين سبحانه أن للنمل قيادة حريصة، ذات رعاية عميقة لاتباعها، وان لها جنودا يطيعون، في تنظيم دقيق. وجاء في الحديث الذي أخرجه الامام أحمد عن ابن عباس (نهى عن قتل أربع من الدواب، النملة والنحلة والهدهد والصرد)[2] وذلك أن (النملة اثنت على سليمان وأخبرت بأحسن ما تقدر عليه بأنهم لا يشعرون ان حطموكم ولا يفعلون ذلك عن عمد منهم، فنفت عنهم الجور، ولذلك نهى عن قتلها)[3] وعندما نلتفت إلى معنى اسمها فانها (سميت النملة نملة لتنملها، وهو كثرة حركتها وقلة قرارها)[4] فلا تراها إلا وهي تمشي ليلا ونهارا، صيفا و شتاء، ربيعا وخريفا، وإن وقفت في الطريق، فانما لتشاور اختا لها على مواصلة الطريق، أو انها وقعت على صيد جديد.

فأجدر بمعشر الدعاة أن تكون لهم حركة خير من حركتها، لا يقفون في منتصف الطريق، ولا يبردون اذا هبت عليهم رياح اليأس، أو تشل حركتهم اذا اجتاحتهم اعاصير الفتن، فالحركة في قاموس الدعوة هي الحياة، والسكون هو الموت، أو كما قال الامام الجيلاني: (**الحركة بداية والسكون نهاية**)[5] بداية بكل ما تحمل البداية من القوة والاندفاع، والسكون نهاية في

---

(١) النمل ١٨.
(٢) اخرجه أحمد وأبو داود وصححه الألباني (ص.ج.ص ٦٨٤٥).
(٣) القرطبي ٤٨٨٨/٧.
(٤) القرطبي ٤٨٨٥/٧.
(٥) الفتح الرباني ص ٢٤٠.

كل شيء، نهايته كانسان وان كان يتنفس.

وها نحن نرى الماء الذي مدحه الله سبحانه وتعالى وعظم أمره اذ قال في كتابه الكريم ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[٦] وذلك بأن جعله الأساس في كل شيء حي يتحرك، ولكنه اذا فقد الحركة منع من الاغتسال فيه، فقد روى البخاري في صحيحه عن رسول الله ﷺ **(لا يبولن احدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه)**[٧] . فهي حركة دائمة لا تعرف التوقف إلا للاستعداد لانطلاق جديد، ولا تعرف الملل أو الضجر حتى تصل الى أرض الجنة ان شاء الله.

---

(٦) الأنبياء ٣٠.

(٧) البخاري (الفتح ٢٣٩) كتاب الطهارة.

أصل الحركات وأنواعها

أولاً: التحرك الخاطئ

ثانيًا: التحرك السليم

أصل الحركات وأنواعها

يقول الامام ابن القيم (كل متحرك فاصل حركته المحبة والارادة)[٨] حب الشيء هو الميل اليه لاعتقاده أنه يتميز عن باقي ما يماثله، هذا الميل متعلق بالقلب، وهو وحده لا يسبب التحرك إلا اذا لازمه الأصل الثاني للحركات وهي (الارادة) والتي تعتبر الدافع لترجمة الأصل الأول، فاذا تم ذلك تحركت الجوارح في خدمة ذلك المحبوب وهذا يدعونا ان ننمي هذين الأصلين في من نريد أن نربيه على الحركة وذلك لأن نسبة التحرك تساوي نسبة الموجود من هذين الأصلين.

أنواع الحركات:

فاذا تحقق الأصلان ظهر التحرك إما في اتجاه الخير أو في اتجاه الشر، وانطلاقا من تلك الحقيقة، تنقسم انواع الحركات إلى قسمين، التحرك السليم والتحرك الخاطيء.

(٨) الجواب الكافي ص ١٤٣ ـ دار الكتب العلمية.

أولاً: التحرك الخاطئ

* يسارعون في الاثم
* حركة المنافقين
* الصبر على عبادة الطاغوت
* الاختيال المرح
* الهماز المشاء

وهو كل تحرك يغضب الله سبحانه وتعالى ويزيد من حجم الباطل..
ولقد ذكر القرآن الكريم بعض أنواع هذا التحرك وصفات المتحركين له، ومن هذه الصفات:

١- يسارعون في الاثم:

والمسارعة أو المبادرة هي من أجل الصفات التي يسعى الدعاة لاحتواء من توجد فيه، وهي من الصفات النادرة بين معاشر الدعاة وتكون لها أخطر العواقب اذا وجدت في أصحاب الباطل.

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ﴾ (٩).

يقول سيد قطب رحمه الله (والمسارعة مفاعلة، تصور القوم كأنما يتسابقون تسابقا في الاثم والعدوان، وأكل الحزام وهي صورة ترسم للتبشيع والتشنيع، ولكنها تصور حالة من حالات النفوس والجماعات حين يستشري فيها الفساد، وتسقط القيم، ويسيطر الشر.

وان الانسان لينظر إلى المجتمعات التي انتهت إلى مثل هذه الحال، فيرى كأنما كل من فيها يتسابقون إلى الشر، إلى الاثم والعدوان، قويهم وضعيفهم سواء)(١٠).

ولخطورة هذه الصفة، يترتب عليها كثير من المفاسد ولعل ذلك يحزن أصحاب التحرك السليم، أو يسبب لهم اليأس والخوف من الباطل وانتفاشه،

---

(٩) المائدة ٦٢.
(١٠) الظلال ٢/٩٢٨ الشروق.

فلذلك يطمئن الله سبحانه وتعالى أصحاب الحق ويقول لهم: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾[11].

٢ـ حركة المنافقين:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[12]. فهي حركة كما يمثلها القرآن لا تثبت على حال، دائما في تردد وحيرة ويزيد في تلك الحيرة ما يعيشه المنافق من ازدواج في الشخصية والظهور في صورتين، باطنية وظاهرية.

يقول صاحب الظلال (إن هذه الحركة في المشهد لترسم ـ عن طريق التأثر الايحائي ـ حركة التيه والاضطراب والقلق والأرجحة التي يعيش فيها أولئك المنافقون بين لقائهم للمؤمنين وعودتهم للشياطين، بين ما يقولونه لحظة ثم ينكصون عنه فجأة، بين ما يطلبونه من هدى ونور وما يفيئون اليه من ضلال وظلام)[13].

وكذلك يصف سبحانه وتعالى صفة تحركهم للعبادة بالكسل اذ يقول سبحانه وتعالى ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ﴾[14] يقول الامام القرطبي

---

(١١) آل عمران ١٧٦.
(١٢) البقرة ١٩، ٢٠.
(١٣) الظلال ١/٤٦.
(١٤) النساء ١٤٢.

(أي يصلون مراءاة وهم متكاسلون متثاقلون لا يرجون ثوابا ولا يعتقدون على تركها عقابا)[١٥].

٣ـ الصبر على عبادة الطاغوت:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾[١٦].

يقول الامام القرطبي: (الملأ: الاشراف، والانطلاق، الذهاب بسرعة، اي انطلق هؤلاء الكافرون من عند رسول الله ﷺ يقول بعضهم لبعض (ان امشوا) اي امضوا على ما كنتم عليه ولا تدخلوا في دينه (واصبروا على الهتكم)[١٧].

وهي نفس الصفة الأولى، الاسراع والانطلاق في معصية الله سبحانه وتعالى ولكن هنا لازمت هذ الصفة، صفة أخرى وهي الصبر على هذا الاسراع والمعاهدة على الاستمرار فيه، وهذه بحد ذاتها تعتبر صفة مستقلة للتحرك الخاطيء، أو تحرك أهل الباطل.

وينظر سيد رحمه الله الى هذه الصفة من منظور آخر اذ يقول: (ان طريقة الكفار في مجابهة هذا الدين هي الطريقة المألوفة المكرورة التي يصرف بها الطغاة جماهيرهم عن الاهتمام بالشؤون العامة والبحث وراء الحقيقة، وتدبر ما يواجههم من حقائق خطيرة. ذلك ان اشتغال الجماهير بمعرفة الحقائق بأنفسهم خطر على الطغاة، وخطر على الكبراء وكشف للأباطيل التي يفرقون

---

(١٥) تفسير القرطبي ١٩٩٢/٣.

(١٥) أـ ذكرت بعض الكتب المنافقين بشكل مفصل مثل كتاب المنافقون وكتاب ـ صفات المنافقين ـ لابن القيم.

(١٦) ص ٦.

(١٧) تفسير القرطبي ٥٥٩٥/٨.

فيها الجماهير، وهم لا يعيشون إلا باغراق الجماهير في الأباطيل)[١٨].

وهو استلال بديع وفق الله سبحانه وتعالى سيدا لاستخراجه من ظلال الآية الكريمة.

٤ـ الاختيال المرح:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾[١٩].

وهي الصفة التي ينهى لقمان ابنه عنها ويربيه على تركها، لأنها في الاتجاه الخاطيء.

وهي كما قال الحافظ بن كثير (أي متبخترا متمايلا مشى الجبارين)[٢٠] ثم يوضح له لقمان انه بهذه المشية لن يقطع الأرض ولن يبلغ الجبال طولا، وهو تصوير عجيب يصوره الله سبحانه وتعالى لأصحاب التحرك الخاطيء المتكبرين المتبخترين في مشيتهم وكأنهم يشعرون انهم أعلى من الجبال، أو قادرون على اختراق الأرض.

٥ـ الهماز المشاء:

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴾[٢١] يقول الامام القرطبي (أي يمشي بين الناس ليفسد بينهم. يقال نم ينم ونميا ونميمة أي يمشي ويسعى بالفساد)[٢٢].

---

(١٨) الظلال ٥/٣٠٠٩.
(١٩) الاسراء ٣٧.
(٢٠) تفسير ابن كثير ٣/٤٠ ـ المكتبة التجارية.
(٢١) القلم ١١.
(٢٢) تفسير القرطبي ١٠/٦٧١١.

وهذا أيضا جهد يقدمه صاحب هذه الصفة ولكن في سبيل تفكيك الروابط الاجتماعية، وذلك ناتج من مرض الحسد والحقد الذي فيه والذي سببه كثرة المعاصي، ونلاحظ أن هذا الانسان يكون دائما قلقا بسبب عدم ارتياحه لراحة الآخرين.

ثانيًا: التحرك السليم

الصفة الأولى	معرفة الطريق
الصفة الثانية	الهمة العالية
الصفة الثالثة	المسارعة في الخيرات
الصفة الرابعة	سعي الرجال لطلب العلم
الصفة الخامسة	سعي الرجال للإستجابة
الصفة السادسة	الاهتمام بما يحدث للدعوة والدعاة
الصفة السابعة	تكون هم الدعوة
الصفة الثامنة	لا يعرفون الراحة
الصفة التاسعة	يكرهون السكون والعجز
الصفة العاشرة	خفيف النوم
الصفة الحادية عشر	الإستمرارية في الحركة

هو كل تحرك في اتجاه الخير الذي أمر به الله سبحانه وتعالى في كتابه أو جاء به الرسول ﷺ في سنته وأجل أنواع هذا التحرك هو:

الحركة الدائبة:

تقدم في بداية البحث تعريف الحركة الدائبة، ولا بد لكل حركة من اتباع ورواد، ولابد لهؤلاء الرواد من صفات أهلتهم لهذه التسمية، وأولى هذه الصفات:

معرفة الطريق (*)

ولمعرفة الطريق وكيفية التحرك فيه، ومتى يكون سليما يتم به الفوز بجنة المأوى ومصاحبة الملأ الأعلى، ومجاورة الله سبحانه وتعالى، لابد من معرفة أربعة أمور فتح الله على الشيخ ابي القاسم الراغب الأصفهاني بمعرفتها، فسارع باعلانها لنا في كتابه (الذريعة) قبل أن ينساها وكان أولها: (معرفة المعبود المشار إليه بقوله ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾(٢٣).

والثاني: معرفة الطريق المشار اليه بقوله ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾(٢٤)

والثالث: تحصيل الزاد المتبلغ به المشار اليه بقوله ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾(٢٥)

والرابع: المجاهدة في الوصول كما قال تعالى ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾(٢٦)(٢٧).

فالسالك لهذا الطريق، المتصف بصفة الحركة الدائبة، لابد له ابتداء أن يعرف حق المعرفة لمن يتحرك هذا التحرك، وما هي صفاته وأسماؤه فيضعه بعد أن يعرفه هدفا له يتحرك من أجله ومن أجل الوصول اليه، فمتى ما اتضح الهدف سهل التحرك وزادت الحركة.

(*) سيأتي في الفصل الثاني تفصيل لمعرفة طبيعة الطريق.

(٢٣) سورة الذاريات ٥٠.

(٢٤) سورة يوسف ١٠٨.

(٢٥) سورة البقرة ١٩٧.

(٢٦) سورة الحج ٧٨.

(٢٧) الذريعة ٢٦٩، ٢٧٠ ـ بتصرف.

ثم لابد له من معرفة طبيعة هذا الدين الذي يسلكه، فهو طريق ليس مفروشا بالزهور انما هو كما اخبر عنه الصادق المصدوق ﴿حفت الجنة بالمكاره﴾[٢٨] فلا يتوقع السالك فيه أبوابا مفتوحة دائما، دون تعب ولا مجاهدة ولا فتنة في المال والأهل والولد والنفس، فمن اجتاز هذه المكاره، استحق الوصول الى الجنة، ومن تعب واستكان، ولم يستطع مجاهدة المكاره، فلا يحتج على خالق الجنة بعدم الحصول عليها، فهذه طبيعة الطريق.

كما لابد من زاد يستطيع بواسطته مواصلة هذا الطريق الشاق، واذا كان الزاد في لغة العامة المقصود به (الطعام) الذي يعين على مواصلة طرق الدنيا، فان الزاد عند سالكي طريق الجنة هو (التقوى) تقوى الله في السر والعلانية، واستشعار مراقبته المستمرة، والخوف من عذابه ووعيده.

ومعرفة الله سبحانه وتعالى، ومعرفة الطريق، والتزود بالزاد لا يكفي للوصول إلى رضا الله سبحانه وتعالى والنظر اليه، والحصول على سلعته الغالية، دون جد وجهاد، وتحرك مستمر، ومجاهدة النفس بما تكره، والزامها بما يحب الله ورسوله ﷺ، بهذا يسهل الله للسالك سبيله، الوصول اليه ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٢٩] ومتى اتضح السبيل وسهل سلوكها تم الوصول، ولا بد.

وأكثر المنحرفين من الجادة قد نقص عنده في تحركه احد هذه الأربعة التي ذكرها صاحب الذريعة.

---

(٢٨) مسلم (٢٨٢٢) كتاب الجنة.

(٢٩) سورة العنكبوت ٦٩.

(أ) تعريف

والهمة هي الطاقة الكامنة في الانسان التي تحركه لفعل الأشياء سواء كانت في مجال الخير، أو في مجال الشر، فعلى ذلك تكون الهمة العالية هي ذاتها تلك الطاقة الكامنة في الانسان والتي تحركه لفعل عظائم الأمور التي يعجز عنها من يماثلونه في العمر والظروف، اما عجزا كاملا أو يأخذون في اتمامها الوقت الطويل مع ما يصاحبهم من الملل والضجر، ويكون ذلك في أمور الخير، اما ان كانت في اتجاه أمور الشر، سميت همة سافلة. أما صاحب الهمة الضعيفة فهو ذلك المسلم الذي يتباطأ أو لا يجد دافعا لعمل الخير.

لهذا السبب كان ابن الجوزي يتعجب من الذين يقدرون على اتمام الأعمال التي تكسبهم الأجر الكبير ثم لا يتمونها اما كسلا أو من دنو همتهم فيقول: (من علامة كمال العقل علو الهمة! والراضي بالدون دنيء!!).

ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام[٣٠].

أو هي كما عرفها الراغب الأصفهاني، صاحب كتاب (الذريعة).

(والكبير الهمة على الاطلاق هو من لا يرضى بالهمم الحيوانية قدر وسعه فلا يصير عارية ببطنه وفرجه بل يجتهد أن يتخصص بمكارم الشريعة فيصير من أولياء الله وخلفائه في الدنيا ومن مجاوريه في الآخرة)[٣١].

---

(٣٠) صيد الخاطر ص ١٥ ـ المكتبة العلمية.

(٣١) الذريعة الى مكارم الشريعة ص ١٩٠ ـ ط الباز.

(ب) **ميزان تقويم الرجال:**

نقول للمطرق الذي نزغ الشيطان في قلبه عندما رأى الأمر من أمور الدعوة يوسد لغيره، وهو الأقدم في الدعوة، وجعله يستغرق في التفكير في أسباب ذلك التفضيل، وهم بترك الجماعة.

نقول له: (إنما تفاوت القوم بالهمم لا بالصور)[٣٢]

فليس ميزاننا في تقويم الرجال، القدم والنسب والعلم المجرد والمال، والتي أطلق عليها الامام ابن القيم (الصور).

فلا ينفع الضبط دون عدالة، وحتى تكون (حقيقة لا صورة، لابد من تكامل (العدالة) بازدياد الهمة والتسابق لعمل الخير مع (الضبط) بازدياد طلب العلم وحفظه والعمل به والصبر عليه وتعليمه للآخرين بدقة دون زيادة محدثة أو نقصان مخل، فبعدها ينجح في ميزان الرجال ويكون (عدل ضابط) توسد له عظائم الأمور في الدعوة ليحملها بهمته العالية واخلاصه لله تعالى للهدف التي وضعت من أجله.

فلا يغضب اذن ذلك المطرق ولا يلومن إلا نفسه، فنزول همته، هو الذي جعله في ذلك المكان، وليستمع لصاحب الفوائد اذ يقول (**نزول همة الكساح دلاه في جب العذرة**)[٣٣] فعندما نزلت همة الكناس، وكسل عن تعلم حرفة أو علم ينتفع به ويكرمه بين الناس، لم يكن امامه إلا كنس الأوساخ، حتى انه ينزل الى الجب لتنظيفه من الغائط حفظا لماء وجهه من السؤال ان ظل بدون ذلك العمل، فعندما نزلت همته، نزل وضعه بين الناس.

---

(٣٢) الفوائد ٦٥ ـ النفائس.

(٣٣) الفوائد ٦٥ ـ النفائس.

(جـ) المطالب العالية:

ان استشعار المؤمن ان الجنة محفوفة بالمكاره يتطلب منه طاقة عالية متمثلة بهمة عالية تتناسب مع ذلك المطلب العالي للتغلب على تلك المكاره التي حفت بذلك المطلب العالي، ويتمم تلك الهمة العالية والحركة النابضة التي لا تهدأ، تنقيتها من كل شائبة تدفع تلك الحركة لوجه غير وجه الله، وبالتالي يرشح باذن الله للحصول على المطالب العالية، هذا ما جزم به الامام ابن القيم بقوله (المطلب الأعلى موقوف حصوله على همة عالية ونية صحيحة فمن فقدهما تعذر عليه الوصول اليه، فان الهمة اذا كانت عالية تعلقت به وحده دون غيره، واذا كانت النية صحيحة سلك العبد الطريق الموصلة اليه، فالنية تفرد له الطريق والهمة تفرد له المطلوب، فاذا توحد مطلوبه والطريق الموصلة اليه كان الوصول غايته واذا كانت همته سافلة، تعلقت بالسفليات ولم تتعلق بالمطلب الأعلى)[٣٤].

لذلك كانت الهمة العالية هي من أوائل صفات أصحاب الحركة الدائبة في التحرك السليم، وأول ما يميز صاحب الهمة العالية، السرعة في فعل الخيرات.

---

(٣٤) الفوائد ١٨٩ - النفائس.

(أ) تعريف:

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٣٥] يقول الامام القرطبي (يسارعون في الخيرات التي يعملونها مبادرين غير متثاقلين)[٣٦]

لا يسمى الداعية، صاحب همة حتى توجد فيه هذه الصفة.

(ب) شبهة وردها:

ولعل مثبطا في صفوف الدعوة، يثبط أصحاب هذه الصفة، أو الجدد المنتمين لهذه الدعوة، ليبرر فقدان هذه الصفة فيه، فيردد قول الرسول ﷺ **(التأني من الله والعجلة من الشيطان)**[٣٧] فعلى أصحاب صفة المسارعة ألا ينخدعوا بشبهة ذلك المثبط، وان يكون لديهم الوضوح في الفرق بين العجلة في أمور الدنيا والعجلة في أمور الآخرة، فالتأني مطلوب في أمور الدنيا، بينما لا يطلب في أمور الآخرة، ويصدق ذلك قول الرسول ﷺ **(التؤدة في كل شيء خير إلا في عمل الآخرة)**[٣٨].

(جـ) تنافس الصحابة:

والتنافس في أمور الخير صورة من الصور العملية لصفة (المسارعة في الخيرات) وهي صفة أصيلة في الصحابة رضوان الله عليهم، فقد كانوا

---

(٣٥) سورة آل عمران ١١٤.
(٣٦) تفسير القرطبي ١٤١٨/٨.
(٣٧) رواه البيهقي ـ وحسنه الألباني ـ ص ج ص (٣٠٠٨).
(٣٨) اخرجه أبو داود والحاكم وصححه الألباني (ص ج ص ٢٠٠٦).

يتنافسون فيما بينهم في أمور الآخرة (وكان عمر بن الخطاب يسابق أبا بكر رضي الله عنهما فلم يظفر بسبقه ابدا فلما علم أنه قد استولى على الامامة قال: والله لا أسابقك إلى شيء أبدا. وقال: **(والله ما سابقته إلى خير إلا وجدته قد سبقني اليه)**[٣٩].

ولئن كان من الصعب اكتشاف بعض الصفات في المدعوين، فان هذه الصفة تكاد تكون من أسهل الصفات التي يتم اكتشافها، نظرا لتميز صاحب هذه الصفة على الآخرين، فنجده أول الناس تطبيقا لما يؤمر به، وأول الناس حضوراً لأمور الخير وأول الناس عملا بالنصيحة، وأحيانا يكون الواحد من هؤلاء بعشرة إذا لم يكن بألف.

---

(٣٩) الروح ٢٥١ ط ـ د. ك. العلمية.

(أ) تعريف

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾[٤٠] يقول الامام الشوكاني (أي وصل اليك حال كونه مسرعا في المجيء اليك طالبا منك أن ترشده إلى الخير وتعظه بمواعظ الله)[٤١].

(ب) الحماسة المجردة من العلم:

ودائما تكون للحماسة المجردة من العلم اسوء العواقب للدعوة والدعاة، لذلك كان العلم من أهم الأمور التي يتحلى بها صاحب الحركة الدائبة، والا فتكون حركته قليلة النفع إذا لم تكن عديمة النفع.

(جـ) صور من أصحاب هذه الصفة:

فلذلك دأب أصحاب هذه الصفة على التسابق لتعلم العلم والسعي اليه، وانفقوا ما يملكونه لتعلم العلم، عندما أدركوا أهميته لتبليغ الدعوة، بل ان ابن القاسم يقول عن الامام مالك (أفضى بمالك طلب العلم إلى أن نقض سقف بيته فباع خشبه)[٤٢].

وكان الامام البخاري يفكر بالعلم حتى في نومه قال الحافظ ابن كثير (وقد كان البخاري يستيقظ في الليلة الواحدة من نومه فيوقد السراج ويكتب

---

(٤٠) سورة عبس ٨.

(٤١) تفسير فتح القدير ٥/٢٨٣.

(٤٢) ترتيب المدارك ١/١٣٠.

الفائدة تمر بخاطره ثم يطفىء سراجه ثم يقوم مرة أخرى وأخرى حتى يتعدد منه ذلك قريبا من عشرين مرة)[٤٣].

وبالرغم مما أصاب الامام ابن الجوزي رحمه الله من الشدائد في بداية تعلمه للعلم، إلا أنه كان يعتبره أحلى من العسل، اذ يقول (ولقد كنت في حلاوة طلبي للعلم، ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل، لأجل ما أطلب وأرجو، كنت في زمن الصبا آخذ معي أرغفة يابسة، فأخرج في طلب الحديث وأقعد على نهر عيسى ـ في بغداد ـ فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء، فكلما أكلت لقمة شربت عليها وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم)[٤٤].

وأكثر من ذلك فان أصحاب هذه الصفة كانوا يرحلون من بلد إلى بلد، على ما كان في تلك الأيام من مشقة السفر من أجل حديث واحد، ثم يرجعون، بل ان بعضهم رحل من أجل اقل من حديث واحد. حكى الحافظ ابن عبدالبر (ان مسروقا رحل في حرف وأن أبا سعيد ـ أي الحسن البصري ـ رحل في حرف أيضا)[٤٥].

من أجل كلمة واحدة يتحملون كل تلك المشقة لاستيقانهم ما للعلم من أهمية في تبليغ الدعوة، فلا يمكن أن يكون من أصحاب الحركة الدائبة ذلك الروحاني الكسول في طلب العلم.

(د) طلب العلم أفضل:

لذلك كان الامام الشافعي يقول (طلب العلم أفضل من صلاة النافلة)[٤٦].

---

(٤٣) البداية والنهاية ١١/١٥.
(٤٤) صيد الخاطر ص ٢٧ ـ طنطاوي.
(٤٥) جامع بيان العلم ٩٤٨.
(٤٦) مناقب الشافعي.

ولا نعني بذلك اهمال النافلة، ولكن نقول: حتى هذه النوافل ما لم تؤد بعلم، لا يكون مردودها كما لو أديت بعلم.

وكذلك فان العالم يستطيع عمل كثير من النوافل التي يجهلها ذلك الكسول الذي لا يعلم من أمرها شيئا.

وأصحاب الحركة الدائبة حتى في طلبهم للعلم هم في حركة وسعي لا يفترون ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾.

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾(٤٧).

لا يهم من يكون هذا الرجل، ولا تلك المدينة، ولكن الأهم تلك الصفة المقتطفة من ثنايا الآية الكريمة، وهي (سرعة الاستجابة) لدعوة الرسل، فما ان استجاب لهذه الدعوة حتى جند نفسه جنديا لهذه الدعوة، دون أن ينتظر دافعا خارجيا وانما جاء يجري ليدعو الناس لهذه الدعوة التي آمن بها...

يقول سيد قطب رحمه الله (إنها استجابة الفطرة السليمة لدعوة الحق المستقيمة، فيها الصدق والبساطة والحرارة واستقامة الادراك وتلبية الإيقاع القوي للحق المبين) فهذا رجل سمع الدعوة فاستجاب لها بعدما رأى فيها من دلائل الحق والمنطق ما يتحدث عنه في مقالته لقومه، وحينما استشعر قلبه حقيقة الايمان تحركت هذه الحقيقة في ضميره فلم يطق عليها سكوتا، ولم يقبع في داره بعقيدته وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور، ولكنه سعى بالحق الذي استقر في ضميره وتحرك في شعوره.

سعى به إلى قومه وهم يكذبون ويجحدون ويتوعدون ويهددون، وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه الى الحق، وفي كفهم عن البغي، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبوه على المرسلين، وظاهر ان الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان، ولم يكن في عزة* من قومه أو

---

(٤٧) سورة يس ٢٠.

* جاءت في الأصل (عزوة).

منعة من عشيرته، ولكنها العقيدة الحية في ضميره تدفعه وتجيء به من أقصى المدينة إلى أقصاها[٤٨].

*** سبب هذه الاستجابة:**

هذه الاستجابة السريعة من ذلك الرجل انما نبعت من معرفة حية لهذه الدعوة، وليست معرفة ميتة، ولكي تتم هذه الاستجابة السريعة، لابد من معرفة هذه الدعوة، معرفة فيها حياة، والحياة تعني الحركة، وليست معرفة جامدة ميتة، والتي كان الامام البصري يرى أن الشاة أعقل من صاحب تلك المعرفة، والذي لا يتفاعل مع الكلمات بسبب تلك المعرفة الخالية من الروح، اذ يقول: **(لا تكن شاة الراعي أعقل منك، تزجرها الصيحة، وتطردها الاشارة)**[٤٩].

وهذه المعرفة هي التي أشار اليها الأستاذ محمد قطب في كتابه القيم (منهج التربية الاسلامية) بقوله (ان المعرفة الذهنية ليست هي المعرفة التي يريدها أو يعترف بها الاسلام فانها معرفة سطحية وميتة، لا تفعل شيئا في واقع الحياة ولا تؤثر شيئا في سلوك الانسان واذن فوجودها كعدم وجودها سواء.

المعرفة النظرية الذهنية الباردة الميتة اذن شيء والمعرفة الحية التي تنبع من الوجدان، فتنفعل بها النفس كلها وتعطي تأثيرا معينا في السلوك الواقعي شيء آخر، هي ما يطلبه الاسلام بالذات ويستنبته في قلوب الناس ليصبحوا مسلمين[٥٠].

*** صور من استجابة الصحابة:**

وما كان الصحابة رضوان الله عليهم يعرفون شيئا سوى هذه المعرفة الحية التي تنبع من الوجدان فتنفعل فيها النفس كلها وتعطي تأثيراً معيناً في

---

(٤٨) الظلال ٥/٢٩٦٢ ـ الشروق.

(٤٩) الحسن البصري ص ٤٧.

(٥٠) منهج التربية الاسلامية ٢/٢٧، ٢٨

السلوك الواقعي، فهذا سعد بن معاذ سيد الأوس يستمع إلى مصعب بن عمير وسعد بن زرارة وهما يعرضان عليه الاسلام فقال حالما انتهيا من كلامهما (كيف تصنعون إذا انتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟) قالا: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي ركعتين، فقام واغتسل وطهر ثوبيه وشهد شهادة الحق. ثم ركع ركعتين ثم أخذ حربته فأقبل عائدا إلى نادي قومه ومعه أسيد بن الحضير، فلما رآه قومه مقبلا قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم فلما وقف عليهم قال: **يا بني عبدالأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة، قال: فان كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فما أمسى في دار بني عبدالأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما أو مسلمة**[٥١]

ويرجع مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى مكة ليخبر الرسول ﷺ بأخبار انتشار الاسلام في المدينة، ثم تكون البيعة الكبرى وتتلوها الهجرة، ثم تبدأ مرحلة الجهاد، والتي يبرز فيها كثير من النماذج التي وقف التاريخ يصغى لما يقولون ويصور ما يفعلون، وها نحن أمام نموذج من هذه النماذج التي فهمت الاسلام ذلك الفهم الحي العملي، الصحابي الجليل (عمير بن الحمام الأنصاري) يسمع رسول الله ﷺ يقول أثناء معركة بدر (قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض) فيقول عمير: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: نعم، قال: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ (ما يحملك على قولك بخ بخ؟ قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها، قال: (فانك من أهلها) فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهم ثم قال:

---

(٥١) البداية والنهاية ١٥٣/٣.

لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل[٥٢].

ونموذج آخر يتعجب حتى الصحابة من سرعة استجابته، ونوعية هذه الاستجابة، مما جعل البعض منهم يحفظ اسمه ويذكره في كثير من مجالسه بعد جيل الصحابة رضوان الله عليهم، ليتأسوا فيه، فهذا أبو هريرة رضي الله عنه كان يقول: (حدثوني عن رجل دخل الجنة لم يصل قط، فاذا لم يعرفه الناس سألوه من هو فيقول أصيرم بني عبدالأشهل عمرو بن ثابت بن وقش)[٥٣] وقصة هذه الاستجابة أن الأصيرم (كان يأبى الاسلام على قومه، فلما كان يوم أحد بدا له فأسلم ثم أخذ سيفه فغدا حتى دخل في عرض الناس، فقاتل حتى اثخنته الجراح، فبينما رجال من عبدالأشهل يلتمسون قتلاهم في المعركة، اذا هم به فقالوا والله إن هذا للأصيرم ما جاء به لقد تركناه وانه لمنكر لهذا الحديث فسألوه فقالوا: ما جاء بك يا عمرو؟) أحدب على قومك أم رغبة في الاسلام، فقال، بل رغبة في الاسلام آمنت بالله وبرسوله وأسلمت ثم أخذت سيفي وغدوت مع رسول الله ﷺ فقاتلت حتى أصابني ما أصابني، فلم يلبث أن مات في أيديهم فذكروا لرسول الله ﷺ فقال: **(إنه من أهل الجنة)**[٥٤].

فلا جزاء لمثل هذه السرعة التي لم يدرك صاحبها بعد اعلان اسلامه وتلبية داع الجهاد، صلاة واحدة، إلا الجنة.

إنها النماذج التي يعجز التاريخ عن وصفها وإنها المرجع لدعاة هذا العصر لكي يراجعوا دقة هذه الصفة فيهم، بعد أن يسألوا أنفسهم عن مدى سرعة الاستجابة، عندما تطلب الدعوة منهم فعل شيء في دائرة المعروف تكرهه أنفسهم، أو التزام أمر يخالف رأيهم الشخصي؟..

---

(٥٢) مسلم (المختصر ١١٥٧).

(٥٣) (٥٤) البداية والنهاية ٤/٣٧.

(أ) رجل يكتم إيمانه:

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾[٥٥] يقول الشيخ السعدي: (أي ركضا على قدميه، من نصحه لموسى وخوفه أن يوقعوا به)[٥٦].

فهو لم يكتف بالتأثر عند سماعه علية القوم يخططون لمقتل موسى عليه السلام، إنما دفعه الاهتمام بمصير الدعوة عند مقتل الدعاة أن يتحرك بأقصى ما يستطيع ليفعل شيئا أي شيء لافشال هذا المخطط، ولترجمة ذلك الاهتمام إلى واقع ملموس.

(ب) مثال من الصحابة:

فهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يبلغ ذروة الاهتمام بما يحدث للدعوة والدعاة عند بداية اسلامه.

فقد تعرض في بداية الأمر لبعض المضايقات من سفهاء قريش مما اضطر خاله أن يجيره، فلم يتعرض له أحد، وفي تلك الأثناء كان يتحسر بسبب رؤيته للمسلمين وهم يتعرضون للتعذيب، وهو بمأمن من ذلك، فنراه يقول (وكنت لا أشاء أن أرى أحدا من المسلمين يضرب إلا رأيته وأنا لا أضرب، **فقلت: ما هذا بشيء حتى يصيبني مثل ما يصيب المسلمين؟** فأمهلت حتى إذا جلس الناس في الحجر وصلت إلى خالي: فقلت: اسمع؟ فقال:

---

(٥٥) سورة القصص ٢٠.

(٥٦) تفسير كلام المنان ٦/٢٠.

ما أسمع؟ قلت جوارك عليك رد فقال: لا تفعل يابن أختي، قلت بل هو ذاك، فقال: ما شئت! فما زلت أَضرب وأُضرب حتى أعز الله الاسلام)[٥٧].

ان اهتمامه بما يحدث للدعوة والدعاة، وصل إلى درجة انه يعاتب نفسه ألا يحدث له ما يحدث لاخوانه من الدعاة ولم تطب نفسه حتى لاقى ما لاقى من التعذيب، عندها أحس أنه ينتمي إلى هذا الاسلام، وأنه عضو من أعضاء ذلك الجسد الطاهر الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

(جـ) كيف ربى الرسول ﷺ صحابته:

ولأن ذلك أصل من أصول الدعوة، كان الرسول ﷺ يربي صحابته عليه ويخوفهم من فقدان رحمة الله، اذ لم توجد بهم تلك الخصلة فيقول (**من لا يرحم الناس لا يرحمه الله**)[٥٨] وينفرهم من عدم الاحساس بالآخرين، وان ذلك من علامات الشقاء فيقول (**لا تنزع الرحمة إلا من شقي**)[٥٩].

وإذا كان الله قد غفر لبغي من بغايا بني اسرائيل كما جاء في رواية البخاري (بينما كلب يطيف بركية قد كاد يقتله العطش إذ رأته بغية من بغيا بني اسرائيل، فنزعت موقها، فاستقت له به. فسقته إياه، فغفر لها به)[٦٠] بسبب رحمتها لذلك الكلب غفر الله لها وهي بغية، فكيف بمن يهتم لما يحدث للانسان؟ وكيف بمن يهتم لما يحدث للمسلم؟ وكيف بمن يهتم لما يحدث للداعية الى الله؟.

إنه لابد من الاحساس والاهتمام لما يحدث للدعوة والدعاة لاثبات سلامة ذلك العضو في ذلك الجسد، فاذا لم يوجد ذلك الاهتمام، فليعلم ان ذلك العضو قد فسد، وربما قد مات.

---

(٥٧) أسد الغابة ١٤٩/٤.
(٥٨) البخاري ٣٠٣/١٣ (التوحيد).
(٥٩) الترمذي (١٩٢٤) ـ البر ـ وحسنه الأرناؤوط، (جامع الأصول ٢٦١٧).
(٦٠) البخاري ٣١/٥ ـ المزارعة.

فبعد هذا الاهتمام لكل ما يحدث للدعوة والدعاة، ومع ازدياد هذا الاهتمام، تتضاءل باقي الاهتمامات في نفسه حتى يستولي عليه هم واحد، ألا وهو هم الدعوة، فتكون صفة ملازمة له، فلا يتكلم إلا بالدعوة، ولا يغضب إلا للدعوة، ولا يفرح إلا للدعوة، ولا يخاف إلا على الدعوة، ولا يبكي إلا على الدعوة، فان فتر أحد الذين يربيهم، يفكر فيه في نومه وفي يقظته في عمله وفي منزله يدعو له في كل سجود أن يرجعه الله الى الحق كما كان، يكلمه الناس وهو مذهول منهم، يفكر في ذلك التابع، لماذا فتر؟ هل السبب يكمن فيه، وصادر منه، أم هو من التابع نفسه؟ أم أنها فتنة الدنيا وجوانبها، ويظل في هذا الهم، حتى يرجع ذلك الفاتر إلى الجادة أو ينقلب على عقبيه.

ولعل هذا الهم، هو الذي كان يصيب الرسول ﷺ عندما كان يدعو الناس فلا يستجيبون، فكان الله سبحانه وتعالى يخفف عنه هذا الهم بقوله سبحانه في سورة الكهف آية ٦ ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾.

ولقد حاول من قبل الامام الجيلاني تقريب هذه الصفة لأحد أتباعه عندما كان يسرد عليه بعض صفات الدعاة بقوله له (هم قيام في مقام الدعوة، يدعون الخلق إلى معرفة الحق عز وجل، لا يزالون يدعون القلوب، يقولون ياأيتها القلوب، ياأيتها الأرواح، يا إنس ويا جن، هلموا إلى باب الملك، اسعوا اليه بأقدام قلوبكم، بأقدام تقواكم وتوحيدكم، ومعرفتكم وورعكم السامي والزهد في الدنيا والآخرة، وفيما سوى المولى هذا شغل

القوم، همهم اصلاح الخلق، همهم تعم السماء والأرض من العرش إلى الثرى)[٦١].

أو هي كما وصفها الامام البنا في معرض وصفه للمجاهد بقوله (أستطيع أن أتصور المجاهد شخصا قد أعد عدته وأخذ أهبته وملك عليه الفكر فيما هو فيه نواحي نفسه وجوانب قلبه، فهو دائم التفكير، عظيم الاهتمام، على قدم الاستعداد أبداً إن دعي أجاب أو نودي لبى، غدوه ورواحه، وحديثه وكلامه، وجده ولعبه، لا يتعدى الميدان الذي أعد نفسه له، ولا يتناول سوى المهمة التي وقف عليها حياته وارادته، يجاهد في سبيلها، تقرأ في قسمات وجهه، وترى في بريق عينيه، وتسمع من فلتات لسانه ما يدلك على ما يضطرم في قلبه من جوى لاصق وألم دفين وما تفيض به نفسه من عزيمة صادقة، وهمة عالية، وغاية بعيدة)[٦٢].

فحركاته وسكناته جميعها تدلك ما في قلبه من تكون هم الدعوة.

---

(٦١) الفتح الرباني ص ١٣/١٤.
(٦٢) حسن البنا ـ مواقف.

والمتصف بهذه الصفات التي ذكرها البنا رحمه الله لا يستريح ولا يعرف للراحة طعما، فهذا شاعر الدعوة الاسلامية المعاصرة، عمر بهاء الدين الأميري، وهو في جناح طب القلب موصول الصدر إلى جهاز المراقبة الألكتروني بأسلاك تفل من حركته، يحقن في البطن كل يوم مرات بأبر لاماعة الدم، وقد جاء الطبيب، يسأل القائم على التمريض عن استراحة شاعرنا، فيرد عليه باستغراب، وبفهم يختلف عن فهمه فيقول:

كلا رويدك يا طبيب وقد سألت أما استراح؟
هل يستريح الحر يوقر صدره العبء الرزاح؟[٦٣]

نعم فالذي يمتلىء صدره بما يحدث للدعوة والدعاة كل يوم على أيدي الامعات، تابعي معسكر الشرق والغرب، والذي يمتلىء صدره بالحزن على انحراف المنحرفين عن الجادة من قومه، والذي يمتلىء صدره بالحسرة على تلهي الدعاة بتجريح بعضهم للبعض، وتفكك رباطهم، ويرى تقدم العدو واستهزاءه بكل القيم، واحتقاره لهذا الدين العظيم وأهله. دون أن يرى من يتحرك، كيف يستريح؟ ولئن استراح جسده فلا تستريح نفسه.

فمن استراح بعد كل ذلك، ولم يتحرك لاجلاء هذا الغثاء وهدمه بمبادئه وبما يؤمن به، لابد أن هواه قد قيده فاستحق ان يخرجه شاعرنا من دائرة الأحرار.

---

(٦٣) شعراء الدعوة الاسلامية ٢/٣٧.

عندما تسلم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخلافة (صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس اني داع فأمنوا ـ فجاء في دعائه ـ اللهم اني ضعيف عند العمل بطاعتك فارزقني النشاط فيها والقوة عليها بالنية الحسنة التي لا تكون إلا بعزتك وتوفيقك)[٦٤].

أين نشاط عمر رضي الله عنه من نشاطنا؟! ولكنه الحرص على بلوغ الكمال في العبادة، كما هو البغض لجميع أنواع الضعف التي تؤدي إلى نقص العبادة، فيكون من أكبر الأشياء التي تشغل أمير المؤمنين، فيجمع الناس ليؤمنوا على دعائه بزيادة النشاط وهكذا كان جيل الصحابة رضوان الله عليهم.

ثم يأتي تلاميذ الصحابة مقتدين بشيوخهم ببغض السكون والكسل، حتى يقول مفتي مكة، عطاء بن أبي رباح رضي الله عنه (**لأن أرى في بيتي شيطانا خير من أن أرى فيه وسادة، لأنها تدعو إلى النوم**)[٦٥].

وبعد أربعين سنة بالتقريب برزت المدارس الفقهية وما تميزت به من الحركة الدائمة وبغض للسكون، حتى ان أحد أقطاب هذه المدارس وهو الامام الشافعي يمثل السكون كالماء عندما يتوقف عن الجريان فيفسد، ويجزم بأن الأسد قد تتعرض للهلاك لو لم تتحرك باحثة عن فريستها وكذلك السهام لولا تحركها من الكنانة إلى القسى ومن القسى إلى الهدف ما أصابت، ثم يبالغ الامام الشافعي في بغض السكون وحب الحركة بتمثيله لحالة الناس من

---

(٦٤) العقد الفريد ٤/٦٥.
(٦٥) البداية والنهاية ٩/٣٠٨.

الملل المؤكد لو أن الشمس بقيت دائمة في مكان واحد لا تتحرك فيقول:

اني رأيت وقوف الماء يفسده ان ساح طاب وان لم يجر لم يطب
والأسد لولا فراق الأرض ما افترست والسهم لولا فراق القوس لم يصب
والشمس لو وقفت في الفلك دائمة لملها الناس من عجم ومن عرب[٦٦]

ومن أقطاب المدارس الفقهية إلى أقطاب الحركة الاسلامية في العصر الحديث، لنرى الداعية الكبير مصطفى السباعي (رحمه الله) يتألم تألماً شديداً بسبب اعاقة المرض لتحركه للحق، ويعد أنه سيمشي إلى الغايات مشية المكافح فيقول:

فان تكن الأيام أودت بصحتي وعاقت خطى عزمي بكل مسدد
فما كنت خوارا ولا كنت يائسا ولست بشاو في فراشي ومقعدي
سأمشي إلى الغايات مشي مكافح ألوذ بعز الله في كل معتر[٦٧]

هكذا يتصل جيل الصحابة بجيلنا الحاضر في صفة مشتركة تؤكد وحدانية المصدر.

---

(٦٦) ديوان الشافعي ص ٢٦، ٢٧ ط ـ الجيل.
(٦٧) شعراء الدعوة الاسلامية ٢/٤٤.

يقول الله سبحانه وتعالى مخبراً عن نفسه ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[٦٨].

فلا يليق بجلاله سبحانه وتعالى سنة ولا نوم، أما العبد فتأخذه السنة ويأخذه النوم الخفيف والعميق، ويقابل هذه السنة وهذا النوم الذي لابد منه للانسان، سنة ونوم من نوع آخر وهو الغفلة عن الطريق والهدف الذي خلق الانسان من أجله ألا وهو (عبادة الله) وعلى مقدار ما يغفل الإنسان عن هذا الطريق، وعلى مقدار ما يصيبه من سنة أو نوم خفيف أو عميق، وهذا ما يؤكده الامام ابن القيم عندما قال:

(لابد من سنة الغفلة ورقاد الهوى، ولكن كن خفيف النوم فحراس البلد يصيحون دنا الصباح)[٦٩].

فهنا يبين ابن القيم حتمية النسيان على ابن آدم والغفلة الآنية، ولكن صاحب صفة الحركة الدائبة الذي عاهد الله على المضي في هذا الطريق لا تعيقه اشواكه أو عوائقه، لا ينبغي أن تكون غفلته طويلة أو رقاده عميقا، فمن تذكر أن الموت آت، وهو أقرب مما هو يتوقع، وأيقن أن الصباح قد دنا لابد له أن يستيقظ من الهوى الذي مال له قلبه، قبل أن يتحول إلى نوم عميق فلا يستطيع الاستيقاظ إلا بعد طلوع شمس يوم القيامة.

---

(٦٨) سورة البقرة ٢٥٥.

(٦٩) الفوائد ٥٥ ـ النفائس.

وهي محصلة الصفات التي سبقتها، فما الاسراع في طلب الخير، والاهتمام بما يحدث للدعوة والدعاة، وسرعة الاستجابة، والسعي لطلب العلم، والهمة العالية، وتكون هم الدعوة، وخفة النوم، ومعرفة الطريق، وبغض السكون، إلا عوامل مساعدة للاستمرارية في الحركة، وتكاد تكون هذه الصفة هي السمة الرئيسية لرواد الحركة الدائبة، فليس مهما لديهم كمية العمل الذي يؤدونه بمقدار الاستمرارية في أدائه، وهذه الصفة هي من أحب الأعمال لله سبحانه وتعالى، يقول الرسول ﷺ **(أحب الأعمال إلى الله ما دووم عليه وإن قل)**[٧٠].

يقول الشيخ المناوي (أدومها) أي (أكثرها ثوابا أكثرها تتابعا ومواظبة)[٧١] فهي مواظبة على النوافل دون انقطاع وهي متابعة للعمل في الدعوة، مع الجديد المتحمس، ومع القديم الكسول، ومع الرواحل خوفا عليهم من الزلل أو الاجتهاد.

هكذا استمرار دائم في الحركة دون ملل أو كسل،الناظر إليه من علو يراه كالنملة لا تقف أمام العوارض التي في الطريق ولا تحتقر نفسها أمام ضخامة تلك العوارض فانها تحاول جرها، فان لم تستطع أخبرت جماعتها فتساعد الجميع لازالة ذلك العارض.

---

(٧٠) مسلم (٧٨٢).
(٧١) فيض القدير ١/١٦٥.

عوائق التحرك السليم

١ـ حب الدنيا

٢ـ استطالة الطريق

٣ـ السكون والخمول

٤ـ الجهل

٥ـ العوائق الخارجية

وهذه العوائق تتعلق بالدعاة الذين لم يخرجوا عن دائرة الالتزام بالشعائر التعبدية، كالصلاة والصيام والزكاة.. الخ، فلا تتعلق إذن بأولئك الذين خرجوا عن دائرة الالتزام إلى دائرة المعصية وهذا لايمنع أن تكون بعض هذه العوائق سبباً في الانتقال إلى دائرة المعصية والعياذ بالله وأول هذه العوائق.

(١) حب الدنيا..

لا يمكن أن يحب المرء أحدا ثم لايتحرك من أجله، ولا يتفانى في سبيل ارضائه، فالمحب للدنيا لا يمكن أن يكون في قلبه حب لله، هذا ما جزم به الامام ابن القيم بقوله:

«لا تدخل محبة الله في قلب فيه حب الدنيا، إلا كما يدخل الجمل في سم الابرة»(٧٢).

فما دام لا يوجد في قلبه حب الله، كيف يتحرك من أجله، ومن أهم أسباب هذا العائق..

أ ـ الخوف على الزوجة والأبناء:

يخشى إن تحرك تلك الحركة الدائبة أن ينكشف لأعداء الدعوة، فيؤذون بذلك الزوجة والابناء، فيكتفي بالقليل من العمل مع المحافظة على أصول العبادات خوفا من الفتنة، أو أنه ينشغل بتجميع المال والجري وراء تحصيله لكي يؤمن جزءاً من المال بعد موته لزوجته وأبنائه، هذا الشعور الشيطاني

(٧٢) الفوائد ١٢٩ ط ـ النفائس.

يدعوه لترك تلك الصفة خوفا من الانشغال بالدعوة عن تأمين مستقبل الأبناء كما يعتقد..

ب ـ الخوف من فقدان المنصب:

فيخاف أن يفقد ذلك المنصب الذي فتن فيه، ان اشتغل في أمور الدعوة، وتحرك تلك الحركة، فيكتفي بلقاءات عامة للدعوة، أو اتصال من بعيد يوشك أن ينقطع.

جـ ـ شعاع جمال الزوجة:

يبهره شعاع جمال الزوجة، فيفتن بجمالها، مما يجعله يستسلم لتأويلات الشيطان عندما يستشهد له بالأحاديث الصحيحة (ان لزوجك عليك حقا)[٧٣] فيفسر ذلك الحق أنه البقاء الدائم معها، وتلبية طلباتها، وينسى شطرا من الحديث (ان لربك عليك حقا)[٧٤] أو أنه يفسر حق الرب فقط في الصلوات المكتوبة والصيام والزكاة وحج البيت، فيخشى ان انشغل بالدعوة وتحرك لها تلك الحركة، ان يقصر في واجب الزوجة فيأثم، أو يهزأ به الأقارب ويتهمونه بأنه ليس امرءا كفؤا للزواج وأنه لايعرف مسؤولياته، أو أنه يفقد رضا الحبيب الجميل، وهو غير مستعد لكل ذلك.

ينسى أن هذه النوعية من الزوجات والأبناء الذين يعيقون الدعاة في أداء رسالتهم ويسلبون منهم تلك الحركة الدائبة المباركة، ليحيلوهم إلى خشب مسندة، ينسى أن الله يسميهم (أعداء) ويطلب منا الحذر منهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾[٧٥].

أورد الامام الطبري عن عطاء بن يسار قوله (نزلت في عوف بن مالك

---

(٧٣) (٧٤) البخاري ـ الفتح (١٩٦٨).
(٧٥) التغابن ١٤.

الأشجعي كان ذا أهل وولد، وكان إذا اراد الغزو بكوا إليه ووقفوه فقالوا: إلى من تدعنا؟ فيرق فيقيم، فنزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾(٧٦).

ويقول القاضي أبو بكر بن العربي (هذا يبين وجه العداوة، فإن العدو لم يكن عدوا لذاته، وإنما كان عدوا بفعله، فإذا فعل الزوج والولد فعل العدو كان عدوا، **ولا فعل اقبح من الحيلولة بين العبد وبين الطاعة**)(٧٧).

(٢) استطالة الطريق*

فيرى أن الدعاة مضطهدون في كل مكان، وليس للاسلام دولة، والمحاولات كثيرة لارجاع دولة الاسلام ولكن لا نتيجة، وقد طال ليل الظالمين، هذا الشعور يجعله يستبطيء النصر، فتخف حركته رويدا حتى يبرد بسبب اليأس ويترك ذلك التحرك الدائب الذي بدأه عندما كان يعتقد بقرب النصر.

وهذه النوعيات من الدعاة ليست وليدة الحركة الاسلامية المعاصرة، فقد وجدت في عهد الامام ابن القيم، وبسبب العمق التربوي للامام جعله يؤكد أن أحد أسباب ومعوقات التحرك الدائب هو استطالة الطريق، إذ يقول (**من استطال الطريق ضعف مشيه**)(٧٨) ولكن بسبب اختفاء الخلافة في العصر الحديث وازدياد اضطهاد الدعاة بسبب محاولاتهم اعادة الحكم الاسلامي، وضراوة العداء للدعوة. كل ذلك يجعل هذا العائق أوضح في عصرنا الحديث

---

(٧٦) تفسير القرطبي ١٨/١٤٠.
(٧٧) تفسير القرطبي ١٨/١٤١.
(٧٨) الفوائد ١٠٣ ـ النفائس.
* يراجع في الفصل الثاني «معرفة طبيعة الطريق».

من عصر الامام ابن القيم، ولكنه ليس ظاهرة منتشرة بين دعاة الحركة. وذلك لوعي قادة الحركة بهذا العائق والمسارعة بوضع العلاج.

فهذا سيد قطب رحمه الله، أحد قادة الدعوة، يشعر بهذا العائق الذي قد يتسرب إلى بعض فئات الشباب الاسلامي فيخاطبهم بروح المستبشر والمتيقن بوعد الله، بأن عمر الظالمين الطغاة قصير، مهما طال ليلهم فلابد من شروق فجر الدعوة ليرد ذلك الظلام الحالك.

أخي ستبيد جيوش الظلام ويشرق في الكون فجر جديد
فاطلق لروحك اشراقها تر المجد يرمقنا من بعيد(٧٩)

ثم شعور آخر يجب أن يضيفه ذلك الأخ المتباطيء إلى الشعور بقصر عمر الظالمين وظلمهم، وهو أن الله سبحانه وتعالى لم يطلب منا النتائج، إنما طلب منا العمل، ولا نعلم إن كنا سنرى النتيجة في حياتنا، أم يؤخرها الله لخلل في الصفوف يحتاج إلى اصلاح، أو لحكمة أخرى لانعلمها، الله يعلمها، فتسبق منيتنا ايام النصر فلا نراه.

(٣) السكون والخمول*

وكان الرسول ﷺ كما جاء في كثير من الاحاديث الصحيحة يتعوذ من العجز والكسل لخطورتهما على الداعية في اعاقته عن الحركة، حتى يصل به الأمر إلى الشلل الحركي الكامل.

والكسل هو (**التثاقل والتراخي مما ينبغي مع القدرة، أو عدم انبعاث النفس لفعل الخير، والعاجز معذور والكسلان لا**)(٨٠).

---

(٧٩) شعراء الدعوة الاسلامية جـ ٤/٤٣.
(٨٠) فيض القدير ٢/١٢٢.
* سيأتي هذا مفصلا في الفصل الثاني.

ومع أن ذلك الهارب من الحركة، ما ابتعد إلا ابتغاء للراحة، إلا أنه يفقد تلك الراحة التي نشد اما بسبب زيادة الراحة التي تجلب التعب عادة، أو لانشغاله بأمور دنيوية تجعله يلهث وراءها حتى تتعبه فيفقد الراحة التي اراد، وفي ذلك يقول الامام الأصفهاني:

(من تعود الكسل ومال إلى الراحة فقد الراحة فحب الهوينا يكسب التعب، وقيل: إن أردت ألا تتعب فاتعب لئلا تتعب)[٨١].

فالذي ينغمس في العمل الدعوي، في الغدو والرواح ينسى التعب لأنه يستلذ تلك الحركة فتنسيه التعب. فالسعادة ليست بالسكون والخمود.
وليست في الابتعاد عن ميدان الجهاد.
وليست في اللقمة التي تأتيك نظير حرق البخور في طرق الطغاة.
وليست في العيش مع القطيع، تعشق الذل وتكره أن تقود.
وليست في عبادة البشر، وإعطائهم صفات الإله، والتصفيق والتطبيل لهم في الخطأ والصواب، بل هي كما رآها شاعر وفقيه الدعوة الاسلامية الدكتور يوسف القرضاوي، الذي أودع في السجن بسبب معرفته لمعنى «السعادة» الحقيقي، وها هو يستغرب ممن يظنون أن السعادة في غير «الميدان الحركي» فيرد عليهم.

«قالوا: السعادة في السكون ... وفي الخمول وفي الخمود
في العيش بين الأهل لا ... عيش المهاجر والطريد
في لقمة تأتي إليك ... بغير ما جهد جهيد
في المشي خلف الركب في ... دعة وفي خطو وئيد
في أن تقول كما يقال ... فلا إعتراض ولا ردود
في أن تسير مع القطيع ... وأن تقاد ولا تقود

---

(٨١) الذريعة الى مكارم الشريعة ص ٢٦٨ ـ الباز.

في أن تصيح لكل والٍ ... عاش عهدكم المجيد
في أن تعيش كما يراد ... ولا تعيش كما تريد
قلت: الحياة هي التحرك ... لا السكون ولا الهمود
وهي التفاعل والتطور ... لا التحجر والجمود
وهي الجهاد وهل يجا ... هد من تعلق بالقعود
وهي الشعور بالانتصار ... ولا إنتصار بلا جهود
وهي التلذذ بالمتاعب ... لا التلذذ بالرقود
هي أن تذود عن الحياض ... وأي حر لايذود
هي أن تحس بأن كأس ... الذل من ماء صديد
هي أن تعيش خليفة ... في الأرض شأنك أن تسود
هي أن تخط مصير نفسك ... في التهام أو النجود
وتقول: لا، وبملء فيك ... لكل جبار عنيد
هذي الحياة وشأنها ... من عهد آدم والجدود
فإذا ركنت إلى السكون ... فلذ بسكان اللحود
أفبعد ذاك تظن أن ... أخا الخمول هو السعيد»[٨٢]

هذه هي السعادة، وكل ما عداها فهو ذل لايرضى به الحر الذي خلقه الله من أجل عبادته هو لاشريك له، وبغير خدمة هذا الاله والتحرك السريع والدائب الذي فيه منافسة لحركة النمل والنحل، من أجل نصرة دينه سبحانه وتعالى، فلايمكن الحصول على السعادة.

---

(٨٢) شعراء الدعوة الاسلامية جـ ٣/٤١.

(٤) الجهل

والجهل نوعان..

أ) جهل بمعنى عدم العلم بقضية معينة.

ب) جهل بمعنى عدم استشعار تلك القضية، مع علمه بتفاصيلها أو هو بمعنى أدق، التبلد الحسي. لذلك لايجد شيئاً يدفعه للعمل لتلك القضية، فيبقى محبوس الجهل، فاترا عن التحرك الدائب، حتى يمن الله عليه بيقظة لقلبه، إذا ما رأى منه عزيمة لعلم ذلك.

أما ان استمر في التبلد أو لم يبذل السبب للتعلم ظل جامدا إلى ما شاء الله.

(٥) التعويق الخارجي[١٨٢]

(١٨٢) - سيذكر في باب طرق تنمية الحركة الدائبة.

طرق تنمية الحركة الدائبة

١ ـ التعرف على الأسماء والصفات

٢ ـ ملاحظة لمنة

٣ ـ تذكر لذنب

٤ ـ ملء الفراغ

٥ ـ استشعار الأجر

٦ ـ فقه العبادة

٧ ـ عدم تصديق المعوق والمبطيء

* صور تعويق الحركة الدائبة

طرق تنمية الحركة الدائبة

١ـ التعرف على الأسماء والصفات:

ونقصد بها التعرف على أسماء الله وصفاته فالجهل بها أحد معوقات التحرك الدائب إذ لا يكفي معرفة الاسم أو الصفة دون معرفة مدلولها ومعناها العميق، ومثالا على ذلك..

أ ـ الضار والنافع

لو تناولنا اسم (الضار) واسم (النافع) هذان الاسمان هما اللذان، بسبب الايمان بهما وبمعناهما العميق، وقف جيل المؤمنين جيلاً بعد جيل. أمام طواغيت البشر، يقولون لهم (لا) بملء أفواههم لايخافون ولا ترتعد فرائصهم من الوقوف أمامهم ولا يخشون تهديدهم بالتعذيب والتقتيل، لأن عروقهم قد تشربت بمعنى تلكما الاسمين، انه لا ضار ولا نافع إلا الله (فما احوج من يواجه الجاهلية بطاغوتها وجبروتها، وبإعراضها وبالتوائها وكيدها، وبفسادها وانحلالها، ما أحوج من يواجه هذا الشر كله، أن يستصحب في قلبه هذه الحقائق وهذه المشاعر. مخافة المعصية والولاء لغير الله، ومخافة العذاب الرهيب الذي يرتقب العصاة. واليقين بأن الضار والنافع هو الله. وأن الله هو القاهر فوق عباده. فلا معقب لحكمه ولا راد لما قضاه.

إن قلبا لا يستصحب هذه الحقائق وهذه المشاعر لن يقوى على تكاليف

(انشاء) الاسلام من جديد*، في وجه الجاهلية الطاغية، وهي تكاليف هائلة تنوء بها الجبال(٨٣).

ب ـ الخالـق

فيعتقد اعتقادا لايخالجه أدنى شك أن الله وحده هو الخالق وأن ما سواه من المخلوقات لايستطيعون خلق بعوضة، ولا أدنى من ذلك ولو اجتمعوا جميعاً لذلك الأمر.

هذا الاعتقاد يجعله يؤمن أن الانسان هو أحد المخلوقات العاجزة عن أن تخلق شيئا. وبالتالي فإنها لاتستحق ما يستحق الخالق من العبادة وهي الطاعة والذل والخضوع والحب والولاء، ولايمكن أن تكون هذه المخلوقات العاجزة شركاء للخالق الذي خلقهم.

(ان تفرد الله سبحانه بالخلق، يفرده سبحانه بالملك. والمتفرد بالخلق والملك يتفرد كذلك بالرزق. فهو خالق خلقه ومالكهم فهو كذلك يرزقهم من ملكـه الـذي ليس لأحد شريك فيه، فكل ما يقتاته الخلق وكل ما يستمتعون به فإنما هو من هذا الملك الخالص لله. فإذا تقررت هذه الحقائق. الخلق والملك والرزق تقرر معها ـ ضرورة وحتما ـ أن تكون الربوبية له سبحانه، فتكون له وحده خصائص الربوبية وهي القوامة والتوجيه والسلطان الذي يخضع له ويطاع، والنظام الذي يتجمع عليه العباد ـ وتكون له وحده العبادة بكل مدلولاتها. ومنها الطاعة والخضوع والاستسلام)(٨٤).

---

* يقصد سيد ـ رحمه الله ـ إنشاء الاسلام من جديد في نفوس المسلمين.

(٨٣) الظلال ٢/١٠٥٨.

(٨٤) الظلال ٢/١١٦٣.

جـ - العلي الأعلى

سمى الله سبحانه وتعالى نفسه (الأعلى) وذلك في قوله سبحانه وتعالى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾[٨٥] وسمى نفسه في موضع آخر (العلي) وذلك في قوله تعالى ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝﴾[٨٦].

يقول الشيخ عبدالرحمن عبدالخالق (وهذا الوصف «العلو» يتضمن معنيين كلاهما ثابت لله سبحانه وتعالى وهما: علو المكان وعلو المكانة، فمنزلة الله سبحانه وتعالى فوق كل منزلة ومكانته سبحانه وتعالى فوق كل مكانة، فهو الواحد الأحد الذي ليس له شبيه من خلقه ولا ند له، ولا مثيل له ولا كفء له سبحانه وتعالى. فمنزلته وعظمته وجلاله لا يدانيها أحد من خلقه جل وعلا، بل جميع الخلق عبيده وفي قبضته وقهره وتحت سلطانه. لاخروج لأحد من قهره وسلطانه أبداً، ولا علم لأحد من خلقه إلا بما شاء، ولا رحمة إلا ما يرسلها، ولا يمسك لرحمته عن من يشاء، بل هو المتصرف وحده سبحانه وتعالى، ومن خالف في شيء من ذلك فهو مشرك جاحد)[٨٧].

فمن آثار هذه الصفة في المؤمن أنه يتوجه في طلبه واحتياجاته لله وحده سبحانه وتعالى عندما يستيقن أنه سبحانه وتعالى فوق كل منزلة، وبعد ذلك ينتج عنده الشعور بالعزة لأنه ينتمي إلى صف الأعلى، فلا يعلو عليه أحد، ولا يغلبه أحد، فيبقى في شعور الانتصار دائماً ما دام في حزبه، وإن حزب الشيطان مهما ملك من السلاح والعلم فإنه مع سلاحه وما يملك وما يمكر لايستطيع أن يتغلب على الأعلى ومن ينتمي إلى صفه، لأنه يبقى تحت رقابته، فيرى تحركاته ومكره ويستطيع أن يسيطر عليه سيطرة كاملة.

---

(٨٥) الأعلى ١.

(٨٦) الشورى ٤.

(٨٧) منهج جديد لدراسة التوحيد ص ٣٢.

فلا يهوله تجمع أهل الباطل ولا تلك الهلامة التي يغلفون بها أنفسهم وباطلهم.

هذه بعض الأسماء والصفات التي بسبب فقهها ننمي في أنفسنا صفات أصحاب «الحركة الدائبة».

٢ـ ملاحظة لمنه:

وهي التفكر بنعم الله التي منها عليك، وتقوم بعملية احصاء للنعم التي قد أنعمها الله سبحانه وتعالى عليك في لحظة خشوع وأنت في صلاتك عند قولك (الحمد لله رب العالمين) تستشعر من خلالها مامن الله به عليك من النعم، وتتذكر حالك قبل ورود تلك النعمة، فتحس بالفرق بين الحالتين، وتعظم في نفسك نعمة الله فتقوم بشكرها، ولا تكن غافلا عن هذا، فتكون ممن يحصي الله سبحانه وتعالى عليهم يوم القيامة نعمه ولم يشكروها، فقد جاء في صحيح مسلم قول الله لعبد يوم القيامة (أي قل ألم أكرمك وأسودك وأزوجك، وأسخر لك الخيل والابل، وأذرك ترأس وتربع، فيقول: بلى يارب، فيقول أظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا فيقول فإني أنساك كما نسيتني)[٨٨].

هذا الاحساس يدفع المؤمن لان يضاعف من أعماله ليؤدي شكر الله تعالى على تلك النعم التي أجزلها عليه.

٣ـ تذكر لذنب:

والذنوب تنقسم إلى اقسام. منها ما اقترف قبل فترة الهداية ومنها ما اقترف بعد فترة الهداية في فترات الضعف وانخفاض الايمان. ومنها ما يعتبره

---

(٨٨) مسلم (٢٩٦٨) في الزهد.

المؤمن من الذنوب وهو ليس منها كأوقات الغفلة والكسل عن أداء النوافل. وخواطر المعاصي التي ترد على النفس.

كل هذه الأقسام، لو تفكر فيها من يريد أن يمتلك صفات أصحاب الحركة الدائبة، وأحس بعظمها عند الله سبحانه وتعالى وقارن أعماله مع أعمال علماء السلف رضوان الله عليهم لازداد بذلك انطلاقا نحو الله ليعوض عن ذلك الاثم الذي قد اقترفه، وحتى يزيد في حسه رضى الله عليه، وابعاد غضبه عنه، فكلما تذكر الذنب ظن أن الله قد يغضب عليه، فيزداد توبة وخشية لله سبحانه وتعالى.

*** أشجار الجاهلية**

يقول الإمام الجيلاني لأحد تلامذته (استغث إلى الحق عز وجل، ارجع إليه بأقدام الندم والاعتذار حتى يخلصك من أيدي أعدائك وينجيك من لجة بحر هلاكك، تفكر في عاقبة ما أنت فيه وقد سهل عليك تركه، أنت مستظل بشجرة الغفلة. أخرج من ظلها وقد رأيت ضوء الشمس وعرفت الطريق، شجرة الغفلة تربى بماء الجهل، وشجرة اليقظة والمعرفة تربى بماء الفكر، وشجرة التوبة تربى بماء الندامة، وشجرة المحبة تربى بماء الموافقة)[٨٩].

ونحن نقول للقادم الجديد من ظل أشجار الجاهلية والتي أسماها الجيلاني شجرة الغفلة وجاء إلى شجرة الهداية أن من عوامل نمو هذه الشجرة التفكير والندم على ما مضى من ذنب أو تقصير أو كسل أو استكانة ليغرس في قلبه خشية دائمة.

هذه الثلاث طرق لتنمية صفات **الحركة الدائبة** في نفوس الدعاة هي التي اعتبرها الامام ابن القيم مجالا لدوران الهمة حولها، إذ يقول: (**الهمة**

---

(٨٩) الفتح الرباني ص ١١٢.

العلية لا تزال حائمة حول ثلاثة أشياء، تعرف لصفة من الصفات العليا، تزداد بمعرفتها محبة وإرادة، وملاحظة لمنة، تزداد بملاحظتها شكرا وطاعة، وتذكر لذنب تزداد بتذكره توبة وخشية، فإذا تعلقت الهمة بسوى هذه الثلاثة جالت في أودية الوساوس والخطرات)[٩٠].

٤ـ ملء الفراغ:

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة الانشراح ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾[٩١] قال ابن عباس وقتادة (فإذا فرغت من صلاتك «فانصب» أي بالغ في الدعاء وسله حاجتك). وقال ابن مسعود: إذا فرغت فانصب لعبادة ربك[٩٢].

وعلى تعدد تفسير قوله تعالى (فانصب) بين المفسرين إلا أن جميع التفاسير تنصب في معنى واحد وهو شغل الفراغ بالعبادة، ولا يلتزم أن تكون العبادة ذات نمط واحد، إنما تتعدد على حسب استعدادات النفس وعلى حسب الحاجة أو الأهمية فتارة تشغل نفسك بالقراءة، وأخرى بالكتابة والاقتباس، وأخرى بالصلاة والدعاء، وأخرى بزيارة مدعو تدعوه إلى الله سبحانه وتعالى، وأخرى في صلة رحم أو قضاء حاجة للوالدين، وأخرى في عمل مباح يكون محل استراحة ومحطة وقود تنطلق منها إلى «الحركة الدائبة».

والدافع لشغل الفراغ أمران، أولهما: مفاجأة الموت وثانيهما مفاجأة المرض، هذا ما كان يخالج نفس الامام البخاري فكان يدفعه لمزيد من العمل. وملء لكل فراغ يجده، ثم أراد أن تدرك الاجيال التي في زمانه، والتي سوف تأتي من بعده هذا الأمر فقال:

---

(٩٠) الفوائد ص ١٣٠ النفائس.
(٩١) الانشراح ٧.
(٩٢) تفسير القرطبي ١٠/٧١٩٨.

إغتنم في الفراغ فضل ركوع فعسى أن يكون موتك بغتة
كم صحيح رأيت من غير سقم ذهبت نفسه الصحيحة فلتة[٩٣]

وثمة دوافع أخرى لشغل الفراغ كالانشغال المستقبلي في التجارة والمال أو مفاجأة الفقر الذي يجعل الانسان في شغل دائم لطلب الرزق وغيرها من دوافع إلا أن الموت والمرض لا يتركان لصاحبهما مجالا للعبادة ومجالاتها التي ذكرناها، وأيضا فإننا لانعلم متى يفجؤنا الموت أو المرض، فصار علينا لزاماً شغل فراغنا كله لما يعود علينا في آخرتنا من الخير.

٥ـ استشعار الأجر:

وهذه مسألة ضرورية وعامل رئيسي في الاندفاع نحو العمل وهو من أنجح الأدوية لمعالجة الكسل والخمول، فمثالا على ذلك عندما تقرأ الحديث الذي أخرجه الترمذي عن رسول الله ﷺ «من صلى الفجر في جماعة، ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس، ثم صلى ركعتين، كانت له كأجر حجة وعمرة، تامة تامة تامة»[٩٤].

تشعر بعناد النفس بالمكث بعد صلاة الفجر، خاصة إذا لم يستكف حاجته من النوم، فإن شعوراً آخراً يضاد ذلك العناد النفسي والرغبة الجامحة للعودة إلى الفراش، ذلك الشعور هو استشعار ذلك الأجر العظيم، مقابل جهاد نفسي مدته أقل من ساعتين، فيتغلب هذا الشعور الجديد ليترجم الحالة العملية لهذا الاستشعار، وهذا ينطبق على باقي العبادات.

إنما يبدأ التعامل مع العبادة بكسل وخمول عندما يفقد الداعية الاستشعار بالأجر، ولعل هذا هو سر تبيان الرسول ﷺ أجر بعض العبادات، حتى يكون دافعاً للعمل.

---

(٩٣) طبقات الشافعية ٢/١٥.
(٩٤) الترمذي وصححه الألباني (ص.ج.ص. ٦٢٢٢).

٦ـ فقه العبادة:

ولا يشعر بلذة العبادة إلا من فقهها، وتتحول تلك العبادة إلى حركات ميتة لا روح فيها ولا لذة إذا فقد فقهها.

الكثير منا يذكر الله بأذكار مختلفة، وأدعية مختلفة لكل عمل يقوم فيه، ولكن القليل الذين يفقهون معنى ما يقولون وما يفعلون، فعندما نركب في السيارة نقول ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾[٩٥] لو فقهنا معنى هذا الدعاء، ونحن على الدابة بأنه (لولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه «وإنا إلى ربنا لمنقلبون» أي لصائرون إليه بعد مماتنا وإليه سيرنا الأكبر، وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة)[٩٦].

فعندما نقول «سبحان الذي سخر لنا هذا» نرى عظم هذه الدابة التي نركبها، ولولا تذليل الله لها لنا لنركبها ماقدرنا عليها، فنعظم الله ونحمده على ذلك. وعندما نقول (وإنا إلى ربنا لمنقلبون) ونحن على الدابة وهي تسير نتذكر أننا أيضا سائرون إلى الله. ففي حركة الدابة نتذكر حركتنا نحو الآخرة.

هذا الاستشعار حرى بأن يعطي لكل مسلم وقودا عندما يتذكره في زخم هذه الحياة المادية.

وكذلك حينما نتوضأ للصلاة. لو استشعرنا عندما نغسل أيدينا فإن الذنوب التي اقترفتها ايدينا تتساقط مع الماء الساقط وعندما نتمضمض تخرج كل كلمة قد اغضبت الله سبحانه وتعالى وتنزل مع الماء إلى مكانها الذي يلائمها. وعندما نغسل وجوهنا فإننا نغسلها من كل نظرة محرمة اقترفتها أعيننا، وعندما نغسل آذاننا فإننا نغسلها من كل كلمة فاحشة تعارض كلمات

---

(٩٥) سورة الزخرف ١٣.
(٩٦) تفسير ابن كثير ٤/١٢٣.

التوحيد، فيستقر فيها فقط ما تناسب مع التوحيد، ونغسل أقدامنا فنطهرها من الخطوات التي خطتها إلى أماكن المعصية واللهو والغفلة. وذلك مصداقا لحديث الرسول ﷺ **(إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرجت من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقيا من الذنوب)**(٩٧).

ولو استشعرنا ونحن خارجون من المسجد بتقديم القدم اليسرى قبل اليمنى، وأن معنى ذلك هو أننا نقدم اليسرى للدنيا والتي هي اقل طيبا من بيت الله والذي نقدم له اليمنى عند دخولنا، فلو تذكرنا عند كل خروج هذا الأمر، لكنا على تذكر دائم بدناءة الدنيا وهوانها على الله فيجيش فينا الشعور بالعمل للآخرة.

وهكذا في كل عمل نقوم فيه، أو دعاء نقوله، نستشعر ونتعرف على فقه ما نقول وما نفعل حتى يكون ذلك أحد طرق تنمية الحركة الدائبة في ذواتنا.

٧. عدم تصديق المعوق والمبطئ:

والأجساد المتحركة لا تتوقف إلا بمؤثر داخلي أو خارجي فإذا افترضنا خلو تلك الأجساد من المؤثرات الداخلية* المسببة للتوقف بقي أن نعرف المؤثرات الخارجية التي أبطأت أو أعاقت أو أوقفت تلك الأجسام المتحركة، وكما أن هذه النظرية تنطبق على الجمادات فإنها تنطبق على البشر تماما. ومن واقع تاريخ الدعوة من عهد الرعيل الأول إلى عهدنا هذا يتبين أن كثيرا من المفتونين والمبتعدين عن صف الجماعة، إنما أبعدهم أو أبطأ بهم، ذلك التأثير الخارجي على أجسامهم التي كانت متحركة.

---

(٩٧) مسلم ٢٤٤ ـ كتاب الطهارة.

* يراجع كتاب [المتساقطون] لفتحي يكن ـ عن المعوقات الداخلية.

والقرآن الكريم فضح هذا الصنف من الناس وجعلهم في صف المنافقين لأنهم يكونون داخل الصف وينخرون فيه، بتثبيطهم وتعويقهم وتبطيئهم.

أ ـ المبطىء

يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾﴾[٩٨]

يقول القرطبي (والتبطئة والابطاء التأخر، تقول: ما أبطأك عنا، فهو لازم ويجوز بطأت فلانا عن كذا أي أخرته، فهو متعد والمعنيان مراد في الآية، فكانوا يقعدون عن الخروج ويقعدون غيرهم)[٩٩].

يقول سيد رحمه الله (ولفظة (ليبطئن) مختارة هنا بكل مافيها من ثقل وتعثر وإن اللسان ليتعثر في حروفها وجرسها حتى يأتي على آخرها وهو يشدها شداً. وانها لتصور الحركة النفسية المصاحبة لها تصويراً كاملاً بهذا التعثر والتثاقل في جرسها. وذلك من بدائع التصوير الفني في القرآن الذي يرسم حالة كاملة بلفظة واحدة. وكذلك يشير تركيب الجملة كلها (وإن منكم لمن ليبطئن) بأن هؤلاء المبطئين ـ وهم معدودون من المسلمين (منكم) يزاولون عملية التبطئة كاملة. ويصرون عليها إصرارا، ويجتهدون فيها اجتهادا.. وذلك بأسلوب التوكيد بشتى المؤكدات في الجملة! مما يوحي بشدة اصرار هذه المجموعة على التبطئة، وشدة أثرها في الصف المسلم وشدة ما يلقاه منها)[١٠٠] لذلك يحذرنا القرآن من هذا الصنف أشد الحذر ليصفي بذلك صفنا ولننطلق لبناء هذا الصرح الذي هدم منذ أمد طويل، فكل بطء في عملية البناء معناه

---

(٩٨) سورة النساء ٧٢.

(٩٩) تفسير القرطبي جـ ٣/١٨٤٥، ١٨٤٦ ط ـ د الثقافة.

(١٠٠) الظلال ٢/٧٠٥.

تأخير في قيام حكم الله الذي يريد.

ب ـ المعوق

يقول الله تعالى ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[١٠١].

يقول القرطبي (والعوق، المنع والصرف يقال عاقه يعوقه عوقا، وعوقه وأعاقه بمعنى واحد)[١٠٢].

وهؤلاء قد يكونون داخل الصف المسلم وقد يكونون خارجه، وهذه هي طبيعة الاعاقة فإنها لاتأتي من داخل الصف فقط، إنما تكون خارجه بصورة أشد من جميع أعداء هذه الدعوة سواء كانوا من أهل الكتاب أو الملحدين أو من الذين غطى الران على قلوبهم من بني جلدتنا.

---

(١٠١) سورة الاحزاب ١٨.

(١٠٢) القرطبي ١٤/١٥١ الكتاب العربي.

صور تعويق الحركة الدائبة

والتعويق يأتي بصور مختلفة، منها:

أ ـ الشبهات:

فقد يأتي بالقاء الشبهات على العاملين للاسلام لينفر الناس منهم، باختلاق بعض الاتهامات الكاذبة على بعض قيادات العمل الاسلامي لينشر البلبلة بين الصف الواحد.

ومثال ذلك قول فرعون لقومه عن موسى ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[١٠٣].

ب ـ الاغراءات:

وقد يأتي بصورة الاغراءات الدنيوية من مال أو منصب أو بعض التسهيلات لبعض العاملين في حقل الدعوة بغية فتنتهم، وهذا ما فعلوه مع الرسول ﷺ...

جـ ـ التضييق:

وذلك بسن القوانين التي تعيق الانطلاق للعمل الاسلامي، كمراقبة الخطب والمحاضرات، أو حضور العسكر بزيهم العسكري أثناء القاء المحاضرات، أو عدم اعطاء التراخيص للمجلات الاسلامية، أو محاسبة المجلات الاسلامية على كل ما تكتب، وكذلك مراقبة التجمعات حتى وإن كانت في المساجد، وغيرها من الحركات المعوقة للانطلاق الطبيعي للدعوة، كل ذلك يعمل بحجج كثيرة مثل عدم التدخل في شئون الغير، وعدم تعكير

---

(١٠٣) سورة الشعراء ٢٧.

الأمن الداخلي، وحفاظا على وحدة الصف وغيرها من الحجج التي عادة ما تنطلي على قطاع عريض من الناس.

د ـ التهديد:

وجاء هذا في القرآن في مواضع كثيرة منها تهديد أصحاب القرية للرسل المرسلين إليهم ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾[١٠٤].

ويستخدم أصحاب التعويق هذا الاسلوب أحيانا إذا خشوا حدوث ردة فعل من الشعب، أو إذا لم يروا مبررا يمنعون فيه الدعاة من دعوتهم، أو إذا لم يكن لديهم حسابات دقيقة بقوة المعارضة.

هـ ـ التعذيب:

وهذا الأسلوب يمارس لاستخراج بعض الاعترافات، ويمتنع المعوق هنا من القتل، لأنه يعلم أنه إذا قتل ذلك الداعية، قتل معه الاعتراف الذي يريد. وهناك سبب آخر لممارسة هذا الاسلوب. وهو تلذذ صاحب التعويق باذلال المعارض له، وطمعه بأن يأخذ منه اقرارا لسياسته وطغيانه، حتى يقنع نفسه داخليا أنه انتصر على المعارضة، وقد مورس هذا الاسلوب قديما لاتباع الرسل عليهم السلام وما زال يمارس في معظم الدول الاسلامية.

و ـ القتل:

وهذا آخر ما يلجأ إليه الطغاة أصحاب التعويق، عندما يشعرون بشدة الخطر على مراكزهم، أو عندما ييأسون من استخراج كلمة واحدة تقر باطلهم أثناء التعذيب، وكذلك ليرعبوا القاعدة من التحرك. فيحققوا بذلك أعتى أنواع الاعاقة.

ولابد لكل زمان ومكان يوجد فيهما دعوة للحق أن يكون لها معوقون

---

(١٠٤) سورة يس ١٨.

ومبطئون من الداخل ومن الخارج، ولابد لأصحاب الحركة الدائبة من الوعي بتحركات هاتين المجموعتين والحذر كل الحذر منهما.

٨ـ تذكر البرزخ واليوم الآخر:

إذا علمنا أن أحد المعوقات عن التحرك الدائب هو التعلق بالدنيا فإنه لابد أن يكون العلاج لذلك، الزهد في الدنيا.

والزهد في الدنيا لايتأتى إلا بالتذكر الدائم في حياة ما بعد الموت وأهوال اليوم الآخر. ولعلم الرسول ﷺ بأن ذكر الموت كفيل بالزهد في الدنيا وملذاتها فإنه كان يوجه أصحابه رضوان الله عليهم لتذكر الموت. لئلا تفتر هممهم بتعلقهم بالدنيا الفانية فيقول (**اكثروا ذكر هادم اللذات**)[١٠٥] قال الطيبي (شبه اللذات الفانية والشهوات العاجلة ثم زوالها ببناء مرتفع ينهدم بصدمات هائلة، ثم أمر المنهمك فيها بذكر الهادم لئلا يستمر على الركون إليها ويشتغل عما يجب عليه من الفرار إلى دار القرار)[١٠٦].

وكان صحابته رضوان الله عليهم خوفا منهم من الفتور والركون إلى الدنيا، يطبقون ما كان يوصيهم به رسولهم ﷺ. فها هو هانيء مولى عثمان رضي الله عنه يقول (كان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته. فقيل له تذكر الجنة والنار فلا تبكي وتبكي من هذا؟ فقال: **إن رسول الله ﷺ قال: إن القبر أول منزل من منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه**)[١٠٧].

يقول الامام المباركفوري (قيل إنما كان يبكي عثمان رضي الله عنه وإن

---

(١٠٥) الترمذي ـ التحفة ٢٤٠٩ وصححه الالباني ص ج ص ١٢٢١.
(١٠٦) تحفة الأحوذي ٦/٥٩٤.
(١٠٧) الترمذي ـ التحفة (٢٤١٠) وحسنه الألباني ص ج ص ١٦٨٠.

كان من جملة المشهود لهم بالجنة، اما لاحتمال أنه لايلزم من التبشير بالجنة عدم عذاب القبر. بل ولا عدم عذاب النار مطلقا مع احتمال أن يكون التبشير مقيدا بقيد معلوم أو مبهم، ويمكن أن ينسى البشارة حينئذ لشدة الفظاعة، ويمكن أن يكون خوفا من ضغطة القبر كما يدل حديث سعد رضي الله عنه على أنه لم يخلص منه كل سعيد إلا الأنبياء.. ذكره القاري (**إن القبر أول** منزل من منازل الآخرة) ومنها عرضه القيامة عند العرض، ومنها الوقوف عند الميزان، ومنها المرور على الصراط ومنها الجنة أو النار في بعض الروايات)[١٠٨].

وهذا هو سمت الصحابة رضوان الله عليهم فما كان الموت واليوم الآخر يفارق أذهانهم وذلك لينفكوا من أسر الدنيا التي تكبل المسلم في التحرك الدائب وتجذبه إلى الطين ليتحرك من أجله.

وهذا ابن مسعود رضي الله عنه (مر على هؤلاء الذين ينفخون في الكير فوقع)[١٠٩] ويروى عنه أنه (مر على الحدادين فبصر لحديدة قد احميت فبكى)[١١٠] فكل ما يقع عليه بصره يربطه بالآخرة، وهكذا يجب أن يكون من اراد الانتساب لرواد مدرسة التحرك الدائب.

---

(١٠٨) تحفة الأحوذي ٦/٥٩٥.
(١٠٩) الزهد ص ١٦٠.
(١١٠) الزهد ص ١٦٣.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثاني

الثقة بالنصر

الثقة بالنصر

إن ما تلاقيه الحركة الاسلامية المعاصرة من صنوف البلاء، والمحنة العظيمة التي تكالبت فيها قوى الباطل بشتى أشكالها وألوانها عليها، واستخدمت فيها التكنولوجيا الحديثة لمحاربتها، دون الالتزام بأدنى سلوك إنساني تجاه من يرفع راية «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» مقارنة بالجاهلية القديمة وما تلاها، فما كان أبو جهل مع شراسته وحقده على المسلمين، وسوء خلقه، وجهله حتى كنى بالجهل، ما كان يهدد من أسلم من الصحابة رضي الله عنهم بأعراضهم، وما كان المتدين حتى وإن لم يكن معارضاً للحكم يلاحق، ويشرد، ويراقب في غدوه ورواحه، وصمته وكلامه، وما كانوا يأتون بخبراء التعذيب من خارج الدولة الاسلامية ليقوموا بتعذيب أبنائهم وعلمائهم من الدعاة إلى الله، والمنكرين لمناكرهم، وما كانوا يأخذوا جميع أقارب الدعاة بجريرة الدعاة فيقوموا بتعذيبهم، حتى وإن كانوا أطفالاً، نكاية فيهم، وتخويفاً لمن بعدهم، وما كانوا يطعمونهم الطعام من غير أماكنه، وما كانوا يغمسونهم بماء حار شديد الحرارة ثم يضعونهم بماء مثلج، وما كانوا يجرؤون على السب والشتيمة للعفيفات من أقارب الدعاة. وغيرها من أنواع الانحطاط الأخلاقي بالتعامل مع الانسان، هذا زيادة على مايلاقيه دعاة الحركة الاسلامية المعاصرة من خطط دقيقة مبرمجة لسلخ المسلمين عن إسلامهم، وتأصيل الجاهلية بشتى أنواعها مكان الاسلام، بكل ما يملك الباطل من وسائل لايملك معظمها الدعاة.

إن دعاة اليوم لايواجهون قريشاً وحدها، ولا القبائل العربية وحدها إنهم يواجهون الطغاة عرباً وعجماً ويواجهون الشيوعية العالمية وفروعها.

والرأسمالية، والحركة التبشيرية، واليهودية العالمية، والماسونية العالمية، والحركات الباطنية، ويواجهون كل ناعق يرفع راية غير راية الاسلام.

إن هذا الكم من البلاء والخصوم لأبناء الحركة الاسلامية، إضافة إلى ما نتج عنه من نتائج إيجابية كثيرة فقد أفرز كذلك بعض النتائج السلبية، والتي منها ما نحن بصدد دراسته في هذا البحث، وهو «**اليأس من النصر**» وهذه من أخطر النتائج لهذه المحنة، إذ أن معتنق هذا الشعور لابد أن يؤدي به إلى إحدى نتيجتين، إما لاستخدام بعض الوسائل التي يتعجل في إستخدامها للوصول كما يظن إلى نصر سريع مما يؤدي إلى ضرر له ولجماعته، وإما أن يعتزل عن المجتمع، ويتقوقع في بيته، أو في مسجده.

وكلا النتيجتين خطر وخسارة للحركة الاسلامية، هذا يجعلنا في حاجة ماسة للتعرف على معنى النصر، ومقوماته، وكيفية الانتصار وأسباب تأخره، ووقت الانتصار، إذا ما أردنا القضاء على الافرازات السلبية الناتجة عن شراسة المحنة مع الباطل.

المعنى اللغوي:

« النصر: إعانة المظلوم، نصره على عدوه ينصره ونصره ينصره نصراً. والنصرة: حسن المعونة. قال الله عز وجل: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ المعنى: من ظن من الكفار أن الله لايظهر محمداً ﷺ، على من خالفه فليختنق غيظاً حتى يموت كمداً، فإن الله عز وجل يظهره، ولاينفعه غيظه وموته خنقاً.

وانتصر الرجل: إذا امتنع من ظالمه. قال الأزهري: يكون الانتصار من الظالم الانتصاف والانتقام، وانتصر منه: إنتقم.

والاستنصار: إستمداد النصر. واستنصره على عدوه أي سأله أن ينصره عليه.

والتناصر: التعاون على النصر. وتناصروا: نصر بعضهم بعضاً»[أ].

وعلى هذا فإن المعنى اللغوي للنصر يكاد أن ينحصر في خمسة معاني - وهي إعانة المظلوم، والتأييد، والامتناع من الظالم، والانتصاف منه والانتقام منه. ومن هذه المعاني اللغوية يتضح بأن النصر لايقتصر معناه فقط على «الاستيلاء على الأرض وحكمها بالمنهج الذي يرتئيه المنتصر بل يتعدى إلى أكثر من صورة كل منها تدل على صورة من صور النصر، وليس من الضرورة أن تعني كل صورة منها النصر بصورته الكاملة، فالنصر بصورته الكاملة هو مجموع هذه الصور متوجه بالاستخلاف والتمكين.

(أ) لسان العرب ٦٤٧/٣ ط. دار لسان العرب.

تحديد معنى النصر

الصورة الاولى — انتصار الحركة الاسلامية الحديثة

الصورة الثانية — انتصار العقيدة

الصورة الثالثة — استشهاد الدعاة

الصورة الرابعة — هلاك الطغاة

تحديد معنى النصر

للنصر صور متعددة يتم فيها، فالحكم صورة منه، وهزيمة الخصم صورة منه، والاستيلاء على الأرض صورة منه، وانتصار المباديء صورة منه، وهزيمة مباديء الخصم واندحارها صورة منه، وهلاك الخصم صورة منه، فليس للنصر صورة واحدة يعرف فيها، ومحاولة البعض حصر النصر في صورة واحدة هو أحد أكبر الأسباب ـ لاختلاف فئات الحركة الاسلامية ـ ولئن كانت جميع هذه الصور قد تمت للنبي ﷺ فلذلك أسبابه الخاصة التي بينها الأستاذ سيد قطب رحمه الله عندما قال «هناك حالات كثيرة يتم فيها النصر في صورته الظاهرة القريبة. ذلك حين تتصل هذه الصورة الظاهرة القريبة بصورة باقية ثابتة. لقد انتصر محمد ﷺ ـ في حياته لأن هذا النصر يرتبط بمعنى إقامة هذه العقيدة بحقيقتها الكاملة في الأرض. **فهذه العقيدة لايتم تمامها إلا بأن تهيمن على حياة الجماعة البشرية وتصرفها جميعاً من القلب المفرد إلى الدولة الحاكمة**. فشاء الله أن ينتصر صاحب هذه العقيدة في حياته، ليحقق هذه العقيدة في صورتها الكاملة، ويترك هذه الحقيقة مقررة في واقعة تاريخية محددة مشهورة. ومن ثم اتصلت صورة النصر القريبة بصورة أخرى بعيدة، واتحدت الصورة الظاهرة مع الصورة الحقيقية وفق تقدير الله وترتيبه»[1] فإرادة الله شاءت أن ينتصر الرسول ﷺ في حياته بالصورة الظاهرة القريبة، وهي الغلبة بواسطة الحرب على أعدائه كما شاءت إرادة الله أيضا أن ينتصر الرسول ﷺ بعقيدته وهي الصورة الباقية الثابتة فتكون هي المهيمنة رغم شدة البلاء الذي يصيب من يعتنقها، وتندحر عقيدة الشرك رغم القوة التي كانت بجانبها، وشاء الله

(١) الظلال ٥/٣٠٨٦.

سبحانه وتعالى أن ينصر رسوله ﷺ فيحكم بعقيدته المنتصرة، وتكون له أرض يحكم فيها، وشاء الله أن يهلك خصومه واحداً تلو الآخر، وشاء الله أن يخيف أعدائه من الدول الكبيرة آنذاك منه مسيرة الشهور، وهذا بحد ذاته نصر، حدث كل ذلك في حياة الرسول ﷺ لحكمة يريدها الله، ولعلها هي التي أشار إليها الأستاذ سيد قطب، «لتحقيق هذه العقيدة في صورتها الكاملة، ويترك هذه الحقيقة مقررة في واقعة تاريخية محددة مشهورة». ومن أبرز صور النصر التي نلمسها أربع صور هي:

الصورة الأولى: إنتصار الحركة الاسلامية الحديثة

الصورة الثانية: إنتصار العقيدة

الصورة الثالثة: إستشهاد الدعاة

الصورة الرابعة: هلاك الطغاة

وفيما يلي تفصيل لهذه الصور.

إن هذه الصور المتعددة من صور النصر قد لاتتحقق في كل جيل، وقد يتحقق شيء منها يسير، أو شيء كثير، وذلك بمقدار ما تبذل الحركة الاسلامية من جهود وتضحيات وصبر ومصابرة.

ورب معارض يعترض على قولنا بانتصار الحركة الاسلامية الحديثة! فأين هذا النصر؟! وما زالت السجون مكتظة بأفراد الحركة الاسلامية؟ وأين الانتصار، وما زال أهل الباطل مسيطرين على مقاليد الأمور؟ وأين الانتصار وأفراد الحركة الاسلامية بين مسجون ومهدد ومطارد ومطرود؟ وأين هذا الانتصار وما زالت كلمة الحق مكتومة؟ وأين الانتصار وقد تضافرت قوى الشر في الداخل والخارج لضرب الحركة الاسلامية؟؟! وما نقول أبدا بخطأ هذه التساؤلات لو أننا قصرنا معنى النصر على معنى واحد، وحددناه في إطار واحد، ولكننا لايخالجنا أدنى شك بأن الحركة الاسلامية الحديثة منتصرة رغم كل هذه التساؤلات إذا ما أدركنا المعنى الواسع للنصر، فعقيدة الحركة الاسلامية ومبادئها منتصرة رغم كل هذه المطاردة، فلا يمكن للقوي أن يكترث بالضعيف لولا أنه يشعر بأن مبادئه أضعف من مباديء خصمه الذي يظنه ضعيفا فها هي الدول العظمى والكيان الصهيوني يحسب ألف حساب للحركة الاسلامية، بينما لا يكترث بالدول العربية أو الاسلامية مجتمعة، وما ذلك إلا بسبب قوة العقيدة الاسلامية التي تعتنقها الحركة الاسلامية، وتعمل على تثبيتها مكان المباديء الأرضية، فها هو المستشرق غاردنر يقول «إن **القوة التي تكمن في الاسلام هي التي تخيف أوربة**»[٢] ويقول هانوتو، وزير

(٢) التبشير والاستعمار ص ٣٦.

خارجية فرنسا سابقاً «لايوجد مكان على سطح الأرض إلا واجتاز الاسلام حدوده وانتشر فيه، فهو الدين الوحيد الذي يميل الناس إلى اعتناقه بشدة تفوق كل دين آخر»(٣).

ويقول غلادستون رئيس وزراء بريطانيا سابقاً: «**مادام هذا القرآن موجوداً في أيدي المسلمين فلن تستطيع أوربة السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان**»(٤).

وفي إفتتاحية عدد ٢٢ أيار عام ١٩٥٢ من جريدة «كيزيل أوزبخستان» الجريدة اليومية للحزب الشيوعي الأوزبخستاني ذكر المحلل مايلي:
«**من المستحيل تثبيت الشيوعية قبل سحق الاسلام نهائياً**»(٥) هذه التصريحات ومثيلاتها تثبت خوف المعسكر الرأسمالي والشيوعي من الاسلام كدين وكمنهج كامل لاسعاد البشرية، وكفاضح لكل ألاعيب الجاهلية الحديثة وظلمها للانسان، وكمبدأ يزداد إعتناقه يوماً بعد يوم، وهذا ما دعا هذه المعسكرات العالمية للتخطيط للقضاء على كل من يحمل هذا المبدأ ويدعو إليه، ففي عددها الصادر في ١٩٧٩/١/٢١ نقلت صحيفة الرأي الأردنية عن وكالة الأنباء الفرنسية أن صحيفة «الواشنطن بوست» الأمريكية ذكرت أن الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر طلب من وكالة المخابرات الأمريكية أن تعد دراسة عن نشاطات الحركات الاسلامية في العالم كله، ونسبت صحيفة الواشنطن بوست إلى زبيغنيو بريجنسكي مستشار البيت الأبيض آنذاك لشؤون الأمن القومي قوله:

«**إن الادارة الأمريكية تشعر بقلق بالغ إزاء تزايد نشاط الحركات الاسلامية المنتشرة في العالم الاسلامي، وأن الولايات الأمريكية بحاجة إلى**

(٣) الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ١٨.
(٤) الاسلام على مفترق الطرق ـ محمد أسد ـ ص ٣٩.
(٥) الاسلام والتنمية الاقتصادية ـ جاك أوستري ص ٥٦.

إعداد دراسة جديدة حول الحركات الاسلامية المتشددة ليسهل على الادارة الأمريكية وأصدقائها في المنطقة الاسلامية مراقبتها عن كثب حتى لاتفاجأ باندلاع ثورة إسلامية جديدة في أي مكان في العالم الاسلامي، لأن أمريكا حريصة على عدم السماح للاسلام المتشدد بأن يلعب دوراً مؤثرا في السياسة الدولية» وضمن الخطة التمهيدية لانتخابات الرئاسة الأمريكية التي أسفرت عن فوز رونالد ريغن كان ليندون لاروش واحدا من المرشحين الذين كانوا يتنافسون للفوز بتزكية الحزب الديمقراطي. وقد نشر في معظم المجلات والصحف الأمريكية بتاريخ ١٩٧٩/١١/٩ إعلاناً كان عنوانه :

«فلنطارد الإخوان المسلمين بدون رحمة»

إن هذا الرعب الذي قد انتاب المعسكرات العالمية من عقيدة الحركة الاسلامية وأنشطتها هو بحد ذاته نصر للحركة الاسلامية.

وإن إقبال الشباب من الجنسين من طلاب الجامعات والثانويات ومن الخريجين، ومن العاملين على الاسلام، وعلى تأييد الحركة الاسلامية، رغم علمهم بعداء الأنظمة الداخلية والخارجية لكل منتم أو مؤيد لها لدليل آخر على انتصار الحركة الاسلامية، وإن إنكشاف زيف كل الرايات التي كان يحملها الباطل بشتى أشكاله وأنواعه، ويأس معظم المسلمين من الأطروحات التي يطرحها الباطل لإنقاذ الأمة لدليل على إنتصار الحركة الاسلامية، وإن ثبات الدعاة بعد محنتهم الطويلة التي ذاقوا فيها ألواناً من العذاب وعودتهم بعد ذلك للدعوة أصلب عوداً دليل على انتصار الحركة الاسلامية، وإن فشل الطغاة، خصوم الحركة الاسلامية بالقضاء عليها أو احتوائها، أو احتواء رجالاتها، منذ سقوط الخلافة الاسلامية حتى الآن فهو نصر يضاف إلى هذه الانتصارات التي أحرزتها الحركة الاسلامية. فهل بعد هذا كله يحل لمعترض أن يقول بغير ما قلناه من انتصار الحركة الاسلامية، وإن لم يهيمن مبدئها على مقاليد الأمور بعد، وذلك لوقت يحدده الله تعالى بعلمه للغيب، وحتى

يكون أفراد الحركة قد أعدوا أنفسهم إعداداً يليق بحمل هذه الأمانة التي عجزت عنها السموات والأرض والجبال، ولابد أن تستقر في نفوس الدعاة حقيقة من حقائق النصر، وهي أنه لايمكن لنصر أن يكتمل دون أن يسبقه نصر للعقيدة حتى وإن مات الدعاة لها، فما دامت هي منتصرة حية، فلابد أن يحملها آخرون حتى تتم حقيقة النصر الكاملة بإذن الله.

إنتصار العقيدة لايعني أبدا إنتصار أفرادها، كما لايعني إنتصارها وهم أحياء بل قد يكون في موتهم إنتصارا لعقيدتهم، وأيا كان لون النصر فإن وعد الله قائم بانتصار عباده الصالحين، وانتصار عقيدتهم، إذ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[٦].

يقول سيد رحمه الله «والوعد واقع وكلمة الله قائمة، ولقد استقرت جذور العقيدة في الأرض، وقام بناء الايمان، على الرغم من جميع العوائق، وعلى الرغم من التنكيل بالدعاة والمتبعين. ولقد ذهبت عقائد المشركين والكفار وذهبت سطوتهم ودولتهم، وبقيت العقائد التي جاء بها الرسل. تسيطر على قلوب الناس وعقولهم، وتكيف تصوراتهم وأفهامهم. وما تزال على الرغم من كل شيء هي أظهر وأبقى ما يسيطر على البشر في أنحاء الأرض. وكل المحاولات التي بذلت لمحو العقائد الالهية التي جاء بها الرسل، وتغليب أية فكرة أو فلسفة أخرى قد باءت بالفشل حتى في الأرض التي نبعت منها. وحقت كلمة الله لعباده المرسلين. أنهم لهم المنصورون وإن جنده لهم الغالبون»[٧].

حادثة الأخدود

تروي روايات التاريخ[٨] بأن ملكاً من ملوك حمير يسمى ذي نواس قد

---

(٦) الصافات ١٧١، ١٧٢، ١٧٣.
(٧) الظلال ٥/٣٠٠١، ٣٠٠٢.
(٨) البداية والنهاية ٢/١٢٩، ١٦٧.

خد الأخاديد للموحدين في بلده، وأضرم بها النار وقذفهم فيها، لأنه أرادهم على دينه الوثني فأبوا إلا التوحيد، وقد جاءت هذه القصة في سورة كاملة من سور القرآن وهي سورة البروج، كما جاء في بعض الأحاديث الصحيحة قصة هؤلاء الموحدين مع ذلك الملك الطاغية والغلام المؤمن، والتي تحكي قصة إصرار أصحاب العقيدة على عقيدتهم، وإن أزهقت أرواحهم مادام في موتهم نصراً لعقيدتهم، يقول سيد قطب رحمه الله في تعليقه على هذا الحادث «لاتذكر الروايات التي وردت في هذا الحادث كما لاتذكر النصوص القرآنية، أن الله قد أخذ أولئك الطغاة في الأرض بجريمتهم البشعة كما أخذ قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وقوم لوط. أو كما أخذ فرعون وجنوده أخذ عزيز مقتدر.

ففي حساب الأرض تبدو هذه الخاتمة أسيفة أليمة!
أفهكذا ينتهي الأمر، وتذهب الفئة المؤمنة التي ارتفعت إلى ذروة الايمان؟ تذهب مع آلامها الفاجعة في الأخدود؟ بينما تذهب الفئة الباغية، التي إرتكست إلى هذه الحمأة، ناجية؟

حساب الأرض يحيك في الصدر شيء أمام هذه الخاتمة الأسيفة! ولكن القرآن يعلم المؤمنين شيئا آخر، ويكشف لهم عن حقيقة أخرى ويبصرهم بطبيعة القيم التي يزنون بها، وبمجال المعركة التي يخوضونها.

إن الحياة وسائر مايلابسها من لذائذ وآلام، ومن متاع وحرمان.. ليست هي القيمة الكبرى في الميزان.. وليست هي السلعة التي تقرر حساب الربح والخسارة والنصر ليس مقصورا على الغلبة الظاهرة فهذه صورة واحدة من صور النصر الكثيرة. إن القيمة الكبرى في ميزان الله هي قيمة العقيدة، وإن السلعة الرائجة في سوق الله هي سلعة الايمان. وإن النصر في أرفع صوره هو انتصار الروح على المادة، وانتصار العقيدة على الألم، وانتصار

الايمان على الفتنة.. وفي هذا الحادث إنتصرت أرواح المؤمنين على الخوف والألم، وانتصرت على جواذب الأرض والحياة، وانتصرت على الفتنة إنتصارا يشرف الجنس البشري كله في جميع الأعصار. وهذا هو الانتصار..»[٩] إن إدراك هذه المعاني الكثيرة من معاني النصر والتي على رأسها إنتصار العقيدة هي التي جعلت الصحابي الجليل حرام بن ملحان عندما طعن في حادثة بئر معونة يقول كما روى عنه أنس بن مالك رضي الله عنه «**لما طعن حرام بن ملحان يوم بئر معونة، قال بالدم هكذا، فنضحه على وجهه ورأسه ثم قال: فزت ورب الكعبة**»[١٠] إن هذا الفهم للفوز هو الذي جعل القاتل يسلم بعد حين، عندما كان يفكر دائماً بمعنى هذه الكلمات وهو يدرك أنه قد أراق دمه، وكان يقول «مما دعاني إلى الاسلام أني طعنت رجلاً منهم فسمعته يقول: فزت والله، فقلت في نفسي: مافاز؟ أليس قد قتلته؟ حتى سألت بعد ذلك عن قوله فقالوا: الشهادة، فقلت: فاز لعمر الله»[١١].

---

(٩) معالم في الطريق ١٧٥، ١٧٦.

(١٠) البخاري ـ الفتح ٤٠٩٢.

(١١) أسد الغابة ٣١٥/١ ترجمة جبار بن سلمى.

إن مدرسة «حرام بن ملحان» رضي الله عنه نحتاج إلى تأصيلها في نفوس دعاة اليوم، وترسيخ جذورها على أرض الحركة الاسلامية الحديثة، فالشهادة نصر وليست خسارة، واكثر من ذلك فإن الله تعالى لم يحسبها نهاية، بل عدها حياة طيبة، وخطأ من يظن بأن الشهداء أموات فقال سبحانه وتعالى ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[١٢] إن المفاهيم المقلوبة التي رسخت في أذهاننا ردحا من الزمان بسبب الإعلام الجاهلي، والأعراف الجاهلية السائدة، والقيم الأرضية التي تسيطر على حياتنا كثيرا مَن الأحيان تحتاج إلى غربلة، ورجعة إلى الأصول، يقول سيد قطب رحمه الله «ما النصر؟ وما الهزيمة؟ إننا في حاجة إلى أن نراجع ما استقر في تقديرنا من الصور. ومن القيم. قبل أن نسأل أين وعد الله لرسله وللمؤمنين بالنصر في الحياة الدنيا!»[١٣] ويستطرد في موضع آخر فيقول « لو نظرنا إلى قضية الاعتقاد والايمان في هذا المجال لرأيناها تنتصر من غير شك. وانتصار قضية الاعتقاد هو انتصار أصحابها فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتي خارج وجودها. وأول ما يطلبه منهم الايمان أن يفنوا فيها، ويختفوا هم ويبرزوها!

والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صور معينة معهودة لهم قريبة الرؤية لأعينهم. ولكن صور النصر شتى. وقد يتلبس بعضها بصورة الهزيمة عند النظرة القصيرة.. إبراهيم عليه السلام وهو يلقى في النار فلا يرجع عن

---

(١٢) آل عمران ١٦٩.

(١٣) الظلال: ٨٦/٥.

عقيدته، ولا عن الدعوة إليها.. أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة؟ ما من شك ـ في منطق العقيدة ـ إنه كان في قمة النصر وهو يلقى في النار. كما انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار»[١٤] وقد يلبس الشيطان على الكثير بأن موت الداعية هزيمة للدعوة، ويرد سيد على هذا الادعاء فيقول: «كم **من شهيد ماكان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام، كما نصرها باستشهاده. وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة، ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه، فتبقى حافزاً محركاً للأبناء والأحفاد. وربما كانت حافزاً محركاً لخطى التاريخ كله مدى أجيال**»[١٥] ولا أدل على صدق هذه الكلمات مما حدث لكاتبها رحمه الله فكم كتب سيد في حياته من الكتب، وكم خطب من الخطب، ولكن خطبته الأخيرة التي سطرها بدمه في سبيل عقيدته هي التي أحدثت هذا الدوي الحركي، والذي مازال يسمع صداه في أرجاء المعمورة حتى هذه اللحظات. فلايمكن أن يقال بعد ذلك عن استشهاد الدعاة بأنها خسارة، بل هي قمة من قمم النصر في الميزان الرباني، فالشهادة هي مفتاح النصر، لأنها البرهان الساطع على صدق الدعاة إلى الله، وشرط من شروط انتشار دعوتهم. يقول الدكتور خالص جلبي «إن من شرط انتشار الدعوة أن تفقد بين الحين والآخر بعضاً من عناصرها، وإلا ما سرت في المجتمع وغيرت تياره وأصبحت موضع إعجاب، تماما كما يحدث لأي مصنع، فهو يؤسس نفسه من أجل تقديم مواد استهلاك، وإذا لم تستهلك عناصره توقف إنتاجه، مع مراعاة أن يكون إستهلاكه موازياً لما يتكلف من مواد خام على الأقل، وهكذا فالحركة عندما تلتحم بالجماهير، سوف تمدها الجماهير دوماً بدماء جديدة، وسوف تحدث تضحيات، ولكن استمرار الالتحام بالجماهير سوف يعوض، بل أكثر من هذا **كما تفعل العضوية وفق قانونها الشهير حيث ان النزيف يحرك مصانع التنقية**

---

(١٤)،(١٥) الظلال: ٥/٨٦.

لتصنيع الدم من جديد، فالنزف يحرك التصنيع، والشهداء يحركون ضمير الأمة لتمدهم بطلائعها المخلصة»[١٦] والانتصار الكامل لايحدث حتى تزال كل العوائق التي تعيق الوصول إلى قمة النصر، ولاشك أن من أكبر هذه العوائق وجود الطواغيت فهلاكهم نصر لاشك فيه لصالح الدعوة الاسلامية، وصورة من صوره.

---

(١٦)ظاهرة المحنة ص ٣٠.

يقول تعالى ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾[17].

أورد الامام ابو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله عند قوله ﴿إنا لننصر رسلنا.. الآية﴾ سؤالا فقال: «قد علم أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعياً، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجراً كإبراهيم، وإما إلى السماء كعيسى فأين النصرة في الدنيا؟»[18].

ثم أجاب عن ذلك بجوابين أحدهما «أن يكون الخبر خرج عاماً والمراد به البعض، قال: وهذا سائغ في اللغة، والثاني أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم مما آذاهم، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم كما فعل بقتلة يحيى وزكريا وشعيا، سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم، وسفك دماءهم، وقد ذكر أن النمرود أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر، وأما الذين راموا صلب المسيح عليه السلام من اليهود فسلط عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم وأظهرهم الله تعالى عليهم ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود، ويقتل الخنزير ويكسر الصليب، ويضع الجزية، فلا يقبل إلا الاسلام، وهذه نصرة عظيمة وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا، ويقر أعينهم ممن آذاهم»[19] ويؤكد

---

(١٧) غافر ٥١.

(١٨)، (١٩) تفسير ابن كثير ٤/٨٣.

هذا الاستدلال قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢٠).

إن القضية التي يثيرها إمام المفسرين الطبري في القرن الثالث الهجري عن تحديد معنى النصر، هي ذاتها قضية اليوم، بعدما غاب عن الكثير المعاني الدقيقة للنصر، وحصروا النصر بأخذ مقاليد الحكم، والتربع على العرش، فكرسوا كل حركتهم من أجل هذه الغاية، وتركوا أصولاً كثيرة لايمكن للنصر أن يتم بدونها، وهنا يذكر الإمام الطبري بأن الانتقام ممن آذى الدعاة هو بحد ذاته نصر في الدنيا، حتى وإن لم يكن في حياتهم وعلى أيديهم، وهذا يؤدي إلى النصر الكامل بإذن الله، وإن بشائر هذا اللون من النصر بات واضحاً جلياً لايخفى، فلايجوز أن ييأس الدعاة من زوال الظلمة بسبب طول مكثهم وظلمهم، **فأين فرعون وهامان وجنودهما، وأين النمرود وأبو لهب وأبو جهل، وأين هولاكو، والمعز الفاطمي، وأين أتاتورك وشاه إيران والسادات والنميري، وأين ماركوس وساموزا ودوفاليه، وماذا كان مصير أولئك في الدنيا قبل الآخرة؟!!** أفلا يعتبر الطغاة ويطمئن الدعاة لانتقام الله لهم من الطغاة وإزالتهم عن طريق النصر الذي يعملون له، ها هو شاعر الشباب وليد الأعظمي يصيح في الطغاة مذكراً لهم بمصارع القوم.

«يا تائها غره مال ومنزلة ... لا تنسى قبلك «فرعونا» و «قارونا»
صالوا وجالوا وباعوا واشتروا وطغوا ... وسخروا «بالملايين» الملايينا
وحاربوا الله فاسودت وجوههم ... وأصبحوا مثلا للمستبدينا
فليعتبر من له قلب وباصرة ... وليتئد من بداجي في تصافينا(٢١)

---

(٢٠) الروم ٤٧.
(٢١) أغاني المعركة ـ بيارق النصر ص ٤٠.

وإذا لم يشأ الله بأخذ الطغاة في الدنيا فإنه لن يتركهم في الآخرة لهذا قال تعالى مطمئنا الدعاة بأنه ليس غافلاً عن ظلم الطغاة إنما يؤخرهم ليوم القصاص فيقول ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾[٢٢].

(٢٢) ابراهيم ٤٢، ٤٣.

مقومات الثقة بالنصر

١ معرفة طبيعة الطريق

٢ الخلاص من اليأس

٣ هزيمة الباطل

٤ الاستيقان من نصر الله

٥ بين العمل والنتيجة

مقومات الثقة بالنصر

وحتى تتأصل في نفوس الدعاة قضية «الثقة بالنصر» بعد تحديد معناه لابد من توفر مقومات تساعد على هذا التأصيل التربوي، من أهمها «**معرفة طبيعة الطريق**» لأن جهل البعض بطبيعة الطريق هو الذي يؤدي إلى النتائج العكسية التي تؤثر سلبا في مسيرة الحركة الاسلامية فتجعلها تتعثر هاهنا وهاهناك، ومنها «**تنقية نفوس أفراد الحركة من اليأس**» بإدراك العوامل المؤدية لليأس، ومنها «**الاستيقان من النصر**» والثقة بوعد الله للفئة المؤمنة بالتمكين والاستخلاف في الأرض، ومنها معرفة أن الله «**يريد منا العمل ولا يريد النتائج**» الأمر الذي يؤدي إدراكه إلى المزيد من العمل مادام هو المطلوب وعدم التقاعس والحسرة بسبب عدم رؤية النتائج، وآخرها «**الشعور بالاستعلاء**» الايماني الذي ينتج عنه الاعتزاز بما يحمله من مبدأ فيرفض بذلك الضيم والهوان في ظل أحكام الطغاة وقوانينهم، وتجعله لاينخدع بالبهرج والزينة المصطنعة التي يتزين بها الباطل ليخفي وجهه الحقيقي. وبغير هذه المقومات يصبح من المتعذر غرس «**الثقة بالنصر**» في نفوس أفراد الحركة الاسلامية.

أولاً: معرفة طبيعة الطريق

١ ـ طول الطريق

٢ ـ وعورة الطريق

٣ ـ الصبر على وعورة الطريق

٤ ـ قلة السالكين

أولاً ـ معرفة طبيعة الطريق

إن من أكبر المشاكل الداخلية في جسم الحركة الاسلامية أن ترى في بعض أفرادها من لايعرف طبيعة الطريق الذي هو سالكه، فيستغرب طوله ويستبطيء النصر، ويسأم من طول الانتظار، الأمر الذي يجعله يتخلى عن زمرة الحق، ليعيش كما يعيش العوام، أو أنه ظن خطأ عند الابتداء بأن الطريق الذي سيسلكه ممهد، خالٍ من العوائق، فإذا به يفاجأ بالعوائق تترى، مما يجعله يسقط، أو يفتر من شدة وقع المفاجأة التي لم يربي نفسه عليها منذ البداية، وفرد مثل هذا من الصعب عليه أن يصبر، ويحتسب في سبيل الله ما يصيبه، ولا نستطيع أن نربط عدم تحمله وسقوطه في الطريق بسبب عدم الاعداد المبكر فقط، إنما لذلك أكثر من سبب من أهمها عدم علمه بالجاهلية، واستيحاشه لقلة السالكين مع كثرة أهل الباطل وظنه بأن الباطل خالد لايهزم. لهذا كله كان «**معرفة طبيعة الطريق**» من أهم المقومات لتأصيل «**الثقة بالنصر**».

١ ـ طول الطريق

لا بد لسالك طريق الحق أن يهيء نفسه لطريق طويل، ويعد الزاد حتى لايسقط أثناء الطريق، ويتوقف عن المسير، أو تخور قواه لانتهاء الزاد، زاد يجمع فيه كل أنواع المثبتات على هذا الطريق ففيه التقوى، واليقين بنصر الله في نهاية الطريق، وصبر ومصابرة، ومن الزاد لون آخر غير ذلك، وهو ان يعلم بأن زوال الخلافة الاسلامية مضى عليه اكثر من نصف قرن من الزمان، وأن الخطط التي أعدت ونفذت حتى يصل المسلم إلى هذه المنزلة

من الانحطاط قد مضى عليها أكثر من قرن كامل، تخلله تداعي أعداء الدين من كل صوب وحدب على هذه الأمة كما تداعي الأكلة إلى قصعتها، كل يقطع بهذا الجسد بآلة هو قد اخترعها تختلف عن آلة القطع التي يستخدمها صاحبه على القصعة، **فلا يمكن أن يعاد المجتمع الاسلامي المنشود، في ليلة أو ضحاها، بل ان من الزاد الذي يحمله الداعية في هذا الطريق أن يعلم بأن ذلك الانتشال يحتاج إلى جهد طويل في طريق طويل، ذلك لأن بناء الانسان يختلف عن بناء الجماد.**

مصارحة

ولخطورة الجهل «بطول الطريق» كان الامام البنا يشعر أنه لزاماً عليه أن يوضح للطلائع الأولى التي إلتحقت بالإخوان طول الطريق، حتى لا يتفاجئوا أثناء المسير، فقال لهم مصارحاً في مؤتمرهم الخامس: «أيها الإخوان المسلمون، وبخاصة المتحمسون المتعجلون منكم: إسمعوها مني كلمة عالية داوية من فوق هذا المنبر في مؤتمركم هذا الجامع: **ان طريقكم هذا مرسومة خطواته موضوعة حدوده. ولست مخالفاً هذه الحدود التي اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول، أجل قد تكون طريقا طويلة ولكن ليس هناك غيرها. إنما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجد والعمل الدائب، فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها أو يقتطف زهرة قبل أوانها فلست معه في ذلك بحال، وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات. ومن صبر معي حتى تنمو البذرة وتنبت الشجرة، وتصلح الثمرة، ويحين القطاف، فأجره في ذلك على الله ولن يفوتنا وإياه أجر المحسنين: إما النصر والسيادة، وإما الشهادة والسعادة»**[٢٣].

---

(٢٣) مجموعة الرسائل ص ١٢٧ ط. المؤسسة الاسلامية.

لقد كانت هذه المصارحة ضرورية لأولئك الجدد في طريق الدعوة، ضرورة أشار إليها الامام ابن القيم من قبل حين قال:

«من استطال الطريق ضعف مشيه»(٢٤).

وما كان الامام البنا يريد أن يمشي معه من يضعف مشيه في أول حركة منظمة تقوم بعد سقوط الخلافة.

كيف يقطع الطريق

ولما كان هذا الطريق طويلا، كان لابد لسالكيه أن يبحثوا عن طرق لقطعه، إضافة إلى الزاد الذي حملوه معهم، وقبل البحث عن الطرق والوسائل التي تعين على قطعه لابد من تحديد الاتجاه لانه بغير تحديد الاتجاه سيتعرض السالكون إلى الضياع، والاتجاه الموصل إلى النصر في هذا الطريق الطويل، هو الاتجاه إلى الله، وبغير الاخلاص لايمكن الحصول على التوفيق والسداد، لهذا لم يفت الامام ابن الجوزي أن يوقف قوافل الدعاة، وهو يراهم يسلكون هذا الطريق ليقول لهم من معين خبرته.

«ان الطريق الموصلة إلى الحق سبحانه ليست مما يقطع بالاقدام وإنما يقطع بالقلوب. والشهوات العاجلة قطاع الطريق، والسبيل كالليل المدلهم، غير أن عين الموفق بصر فرس، لأنه يرى في الظلمة كما يرى في الضوء، والصدق في الطلب إينار أين وجد يدل على الجادة وإنما يتعثر من لم يخلص، وإنما يمتنع الاخلاص ممن لا يراد»(٢٥).

إن من أبسط مباديء الهندسة هي النظرية القائلة «بأن الخط المستقيم هو أقصر الطرق» ويكون منطقيا بأن الخط الملتوي المتعرج أبعد الطرق هذا

---

(٢٤) الفوائد ١٠٢ ـ النفائس.

(٢٥) صيد الخاطر ٣٠٧.

ما أراد أن يقوله الامام ابن القيم، عندما رأى قوافل الدعاة أثناء الطريق قد حاد بعضهم عن الطريق فصاح بهم منبهاً **«إنما يقطع السفر ويصل المسافر بلزوم الجادة وسير الليل، فإن حاد المسافر عن الطريق، ونام الليل كله فمتى يصل إلى مقصده»**[٢٦].

إن طول الطريق ربما أدى بالبعض إلى الملل أو إلى الشك بأنه هو الطريق الموصل، فلابد من «الثقة بالطريق» حتى يستمر المسير، هذا ما نبه إليه تلميذ الامام البنا، الاستاذ مصطفى مشهور وهو يرى قوافل الدعاة تمر على عتبة كتابه **«طريق الدعوة»** فأبى إلا إكرام ضيوفه بما عنده فقال لهم وقد أصغى الجميع لمن سار قبلهم في هذا الطريق قرابة نصف قرن **«على السائرين في طريق ما أن يثقوا في ذلك الطريق، ويطمئنوا إلى أنه الموصل إلى الغاية التي يقصدونها، حتى لايتعرضوا إلى التيه والضياع، وكيلا يثنيهم الشك وعدم الثقة عن مواصلة السير وبذل الجهد، فيقعدوا أو يتحولوا، وتتفرق بهم السبل.** وطريق الدعوة أولى بهذه الثقة، فهو الطريق الأصل الذي يربط المسلم كل أمور حياته به ويسخر له كل مايملك من نفس ومال وجهد وفكر ووقت، إذ عليه يتوقف مصيره ومستقبله الحقيقي»[٢٧].

---

(٢٦) الفوائد ١٣١.

(٢٧) طريق الدعوة (١) ص ٨٩.

٢ ـ وعورة الطريق

إنها طريق وعرة، متعبة، قد غرست فيها الصخور الحادة، والأشواك المؤذية، وليس ذلك سرا يخفيه صاحب هذه الدعوة، فقد كثرت الآيات التي تبين وعورة الطريق، فقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾[٢٨]

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١٠﴾[٢٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٣٠] وقال تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٣١] وآيات غيرها تدل على وعورة الطريق.

الرسول القائد يوضح الطريق

ولم يأل رسول الله ﷺ جهدا بتوضيح وعورة الطريق لأتباعه منذ الأيام الأولى للدعوة، فقد قال لهم ﷺ في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه «**حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره**»[٣٢].

يقول الامام ابن حجر «فإن المراد بالمكاره هنا ما أمر المكلف بمجاهدة

---

(٢٨) العنكبوت ١-٣.
(٢٩) النحل ١١٠.
(٣٠) الكهف ٧.
(٣١) آل عمران ١٤٢.
(٣٢) البخاري ـ الفتح ٦٤٨٧.

نفسه فيه فعلا وتركاً كالاتيان بالعبادات على وجهها، والمحافظة عليها، واجتناب المنهيات قولاً وفعلاً، وأطلق عليها المكاره لمشقتها على العامل، وصعوبتها عليه، ومن جملتها الصبر على المصيبة والتسليم لامر الله فيها، والمراد بالشهوات ما يستلذ من أمور الدنيا مما منع الشرع من تعاطيه إما بالأصالة، وإما لكون فعله يستلزم ترك شيء من المأمورات، ويلتحق بذلك الشبهات، والإكثار مما أبيح خشية أن يوقع في المحرم، فكأنه قال: لايوصل إلى الجنة إلا بارتكاب المشقات المعبر عنها بالمكروهات، ولا إلى النار إلا بتعاطي الشهوات، وهما محجوبتان فمن هتك الحجاب اقتحم»[٣٣].

وكذلك نراه يؤكد على توضيح وعورة الطريق عند بيعة العقبة، عندما عرض عليهم بنود البيعة التي تنوء بحملها السموات والأرض والجبال، قالوا: مالنا، فأجاب بأن لهم الجنة، وأراد بذلك أن يوضح لهم أنه من أراد الجنة فلابد أن يتحمل كل الصعاب في طريقها.

خباب يشتكي

جاء في ترجمة الصحابي الجليل خباب بن الأرت في «صفة الصفوة» أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب سأله «عما لقى من المشركين. فقال خباب: يا أمير المؤمنين انظر إلى ظهري. فقال عمر: ما رأيت كاليوم، قال: **أوقدوا لي ناراً فما أطفأها إلا ودك - دسم اللحم ودهنه - ظهري**»[٣٤] وكان خباب قد جاء إلى النبي ﷺ حينما كان يفتن في مكة، ويعذب ذلك التعذيب. جاء يشتكي إليه وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقال له: «ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها

---

(٣٣) فتح الباري ١١/٣٢٠.
(٣٤) صفة الصفوة ١/٤٢٩.

فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لايخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»(٣٥).

كان الرسول ﷺ بلا شك يرى آثار التعذيب على خباب وكان بإمكانه الدعاء له فيزيل الله عنه وصحبه ذلك البلاء، ولكنه أراد أن يغرس في نفوس أصحابه **طبيعة الطريق**، وتكاليف النصر، وعظم الأمانة التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال، فأنى لانسان لايتحمل البلاء والايذاء في سبيل الله أن يتحملها، ولو أنه حملها وأعطيت له وهو ضعيف لم يتمحص بالبلاء والفتن، ولم يثبت، فإنه سيضيعها، ويسيء إليها، والله لايريد أن تضيع الأمانة على أيدي الضعفاء، لذلك جاء في رواية أخرى توضح غضب الرسول ﷺ من سؤال خباب لعدم معرفته بالحكمة وراء الابتلاء، يقول خباب: «فقلت يارسول الله ألا تدعو الله لنا؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال: لقد كان من قبلكم... الحديث»(٣٦).

فهو يريد أن يبين لهم أنه ما من نصر لأصحاب الحق إلا ويسبقه بلاء لأصحابه فيسوق لهم أخبار الأمم التي قد مضت، وكيف واجهوا المحنة بقلوب ثابتة، ثم وضح لهم أن النصر والأمان المصاحب له سيأتي لا محالة، ولكن بعد أن يتجاوزوا ضريبة النصر من الابتلاء والتمحيص.

«سأل رجل الشافعي فقال: يا أبا عبدالله، أيما أفضل للرجل أن يمكّن أو يبتلى فقال الشافعي: **لا يمكّن حتى يبتلى، فإن الله ابتلى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلما صبروا مكنهم، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة**»(٣٧).

(٣٥) رواه البخاري ـ الفتح ٦٩٤٣.
(٣٦) البخاري ـ الفتح ٣٨٥٢.
(٣٧) الفوائد ٢٦٩ النفائس.

تصور خاطيء . .

ومن خلال الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة نستطيع أن نجزم بخطأ التصور القائل بالنصر دون ابتلاء، وإن مما يحز في النفس أن البعض مازال يكيل الاتهام تلو الاتهام للحركة الاسلامية في مصر ويتهمها بقصور النظر والتخطيط، الأمر الذي أدى إلى هذه الابتلاءات المتعاقبة.

ولقد رد الاستاذ مصطفى مشهور على هذا التصور حيث قال: «لقد تعرض الرسل والداعون إلى الله على مر الأزمان للايذاء والتعذيب والقتل من أعداء الله بسبب قيامهم بواجب الدعوة إلى الله ولو أراد الله عز وجل أن يحول بينهم وبين هذا الايذاء لفعل وهو بهم رؤوف رحيم. لكنه سبحانه لم يفعل، وتركهم هكذا يتعرضون لصنوف الأذى والعذاب»[٣٨] ثم يقول «هل تركهم الله ولم يحمهم من أذى الكفار لأنهم أخطأوا وأن عليهم أن يتحملوا نتيجة خطئهم؟ **هل يعقل أو يقبل من أحد أن ينسب ما تعرض له الرسل والذين آمنوا معهم من أنواع البلاء إلى أخطاء صدرت عنهم أثناء سيرهم بدعوة الله؟ إننا نقول على العكس من ذلك فإن تمسكهم بدعوة الله، واستقامتهم على أمر الله هما سبب تعرضهم لهذا الأذى، ولو أنهم إنحرفوا أو فرطوا أو داهنوا لما تعرضوا للايذاء والعنت**»[٣٩] إننا لانقول بعصمة الحركة الاسلامية من الأخطاء، ولكن نريد أن نقرر بأن البلاء الذي يقع على الحركة الاسلامية ليس سببه الأخطاء، إنما هو سنة من سنن الله تعالى ليعلم الصادق من الكاذب وليمحص عبده، ويقوي عوده، قبل أن يسلمه الأمانة، هكذا يريد الامام ابن القيم أن يوصلها لأبناء الحركة الاسلامية بأن على الواحد منهم «**أن يعلم أن المصيبة ماجاءت لتهلكه وتقتله، وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه، فيتبين حينئذ هل يصلح**

---

(٣٨) (٣٩) طريق الدعوة (١) ص ٦٦.

لاستخدامه وجعله من أوليائه وحزبه أم لا؟ فإن ثبت إصطفاه واجتباه وخلع عليه خلع الاكرام، وألبسه ملابس الفضل، وجعل أولياءه وحزبه خدماً له، وعوناً له، وإن انقلب على وجهه ونكص على عقبيه طرد وصفع قفاه، وأقصى وتضاعفت عليه المصيبة»[٤٠] ويخاطب الشاعر مأمون جرار الغفاة الراقدين، الذين يريدون نصراً دون بلاء ويريدون جنة دون بذل تلك الدماء، ويصيبهم اليأس عندما تتناثر الدماء على أيدي الطغاة فيقول مخاطباً لهم..

هذي الدماء على الطريق منائر قدسية الأضواء والألوان
تدعو الغفاة الراقدين تنبهوا وتحرروا من ربقة الادمان
ما جنة الفردوس مأوى ساكت عن حقه... ومنافق وجبان
درب الشهادة لم تزل خطواته مشتاقة لقوافل الفرسان
الرافعين رؤوسهم صوب العلا يرجون دار الروح والريحان[٤١]

القادة يوضحون وعورة الطريق

ما من قائد من قادة الدعوة الاسلامية في القديم والحديث إلا وقد وضح لاتباعه طبيعة الطريق ووعورتها، والنتيجة الطبيعية التي تحدث بعد دعوة الناس وهي البلاء، إقتداءا بما جاء في القرآن الكريم وبما وضحه الرسول ﷺ لصحابته الكرام من طبيعة الطريق حتى يكونوا على بينة في بداية الطريق قبل أن يسلكوها معه فيخذلونه في منتصفها، وهاهو قائد الحركة الاسلامية الحديثة في مصر الامام البنا يوضح طبيعة الطريق في فجر الحركة، وأيامها الأولى، وفي رسالته الأولى للرعيل الأول من الاخوان، يقول لهم فيها:

---

(٤٠) طريق الهجرتين ص ٤٩٤ ـ قطر.
(٤١) مشاهد من عالم القهر ٥٢، ٥٣.

«أحب أن أصارحكم أن دعوتكم لا زالت مجهولة عند كثير من الناس ويوم يعرفونها ويدركون مراميها وأهدافها ستلقى منهم خصومة شديدة وعداوة قاسية، وستجدون أمامكم كثيراً من المشقات وسيعترضكم كثير من العقبات، وفي هذا الوقت وحده تكونوا قد بدأتم تسلكون سبيل أصحاب الدعوات. أما الآن فلا زلتم مجهولين ولا زلتم تمهدون للدعوة وتستعدون لما تتطلبه من كفاح وجهاد. **سيقف جهل الشعب بحقيقة الاسلام عقبة في طريقكم، وستجدون من أهل التدين ومن العلماء الرسميين من يستغرب فهمكم للاسلام وينكر عليكم جهادكم في سبيله، وسيحقد عليكم الرؤساء والزعماء، وذوو الجاه والسلطان، وستقف في وجهكم كل الحكومات على السواء، وستحاول كل حكومة أن تحد من نشاطكم وأن تضع العراقيل في طريقكم..**»[٤٢] ثم يقول: «وستدخلون بذلك ولاشك في دور التجربة والامتحان، فتسجنون وتعتقلون، وتنقلون وتشردون، وتصادر مصالحكم وتعطل أعمالكم وتفتش بيوتكم، وقد يطول بكم مدى هذا الامتحان ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ ولكن الله وعدكم بعد ذلك كله نصرة المجاهدين ومثوبة العاملين المحسنين»[٤٣].

وبعد هذه الكلمات بعشر سنوات تقريبا حدث معظم ماتوقعه الامام البنا لأتباعه، وبعد ذلك ببضع سنوات حدث كل ما توقعه، وما كان كل ذلك ضرباً من ادعاء علم الغيب بقدر ماهو إستقراء للآيات وسنن الله في دعوته ودعاته.

وبعد البنا جاء العلامة أبو الأعلى المودودي، رائد الحركة الاسلامية في الهند ليصارح أتباع الحركة في مؤتمر عام عن طبيعة الطريق بكلمات تشبه إلى حد ما الكلمات التي صارح بها البنا أتباعه. إذ قال لهم:

---

(٤٢) (٤٣) مجموعة الرسائل ١٠٨، ١٠٩ رسالة «بين الأمس واليوم».

«إن من طبيعة هذا الطريق أن الانسان ما أن يخطو عليه خطوة، حتى يجد بيئته التي يعيش فيها تناصبه العداء، وتضيق عليه الخناق، فأبواه وإخوانه وأقرباؤه وأصدقاؤه وأولاده وأهل بيته كلهم يعملون وسعهم لابتلائه في إيمانه، بكل ما يملكون من الوسائل، **ولا يظهر في حياته أول أثر من آثار سلوكه لهذا الطريق إلا وإن مهده الذي نشأ فيه متدللاً يترفل في النعيم، ينقلب عليه فراشاً من الأشواك**. هذه هي المرحلة الأولى قد هيأتها لنا المشيئة الإلهية بنفسها لتربية الأفراد على ما يحتاج إليه سلوك هذا الطريق من الصلاح والتقوى والاخلاص والأخلاق القوية الطاهرة»[٤٤] فليس لمتململ ولا متضجر ولا يائس أن يقول بعد هذا التوضيح لطبيعة الطريق، «حتى متى هذا البلاء؟» ويبتعد عن الصف بسبب ذلك، فلابد للنصر إذا تم النضج في فرن البلاء، وثبتت الأقدم في أرض المحنة وهبت رياح الرحمة والنصرة من قبل العزيز الحكيم.

---

(٤٤) تذكرة دعاة الاسلام ص ٢٧ ط. دار العربية.

٣ - الصبر على وعورة الطريق

إستطالة البلاء

إن البلاء(*) بحد ذاته فتنة، يسقط فيه البعض ويثبت الله فيه البعض الآخر، فكيف إذا أضيف للبلاء طول المدة، وتأخر بزوغ الفجر، فإن ذلك بلا شك له تأثير عظيم على كثير من النفوس التي قد تتساقط أثناء الطريق، أو تعتزل السير مع القافلة لطول البلاء، لذا يصيح الامام إبن الجوزي في هذه الفئة محذراً «فإياك إياك أن تستطيل زمان البلاء، وتضجر من كثرة الدعاء، فإنك مبتلى بالبلاء، متعبد بالصبر والدعاء، ولا تيأس من روح الله وإن طال البلاء»(٤٥) فإنه لايستطيل البلاء إلا من تسربت إلى نفسه خيوط اليأس من نصر الله.

تذكـــر البيعـــة

والعبد ليس له إلا الصبر على البلاء، ذلك لأنه مملوك لسيده وليس للعبد الاعتراض على السيد إذا ما أراد أن يتصرف في ملكه، فكيف للداعية أن يعترض أو يضجر بسبب طول البلاء من ربه، وهو الذي يدعي بأنه باع له نفسه وماله، فكيف ينسى هذه البيعة، وهو لايملك حتى نفسه التي طلبها منه رب العزة أن يبيعها له. يقول الامام ابن الجوزي:

«إن نظر أن النفس كالملك له فقد خرجت عن يده من يوم «إن الله اشترى» أفيحسن لمن باع شاة أن يغضب على المشتري إذا ذبحها، أو يتغير قلبه. والله لو قال المالك سبحانه: إنما خلقتكم ليستدل على وجودي، ثم أنا أفنيكم ولا إعادة. لكان يجب على النفوس العارفة به أن تقول سمعاً وطاعة، وأي

(*) ونقصد به «المصيبة بالدين».

(٤٥) صيد الخاطر ٣٦٣.

شيء لنا فينا حتى نتكلم. فكيف وقد وعد بالأجر الجزيل، والخلود في النعيم الذي لاينفد. لكن طريق الوصول تحتاج إلى صبر على المشقة»[٤٦].

غسيل اليدين:

وبعد خروجه الأول من سجنه في القاهرة كتب الامام إبن تيمية رسالة إلى أتباعه في دمشق يطمئنهم فيها عن حاله، ويذكرهم ببعض الأصول التي لا يستغني عنها الدعاة، وخاصة فيما يتعلق في البلاء الذي يصيب المؤمن، فيظن البعض أن ذلك بسبب ضعف أو نقص أو أنهم يجزعون بسبب ذلك لجهلهم بما يعكسه البلاء من المصالح للدعوة والداعية، فيذكر برسالته تلك الأمور فيقول: « ان ما يجري من تغليظ أو تخشين على بعض الأصحاب والاخوان ما كان يجري بدمشق، ومما يجري الآن بمصر - فليس ذلك غضاضة ولا نقصا في حق صاحبه، ولا حصل بسبب ذلك تغير منا ولا بغض، بل هو بعد ما عومل به من التغليظ والتخشين أرفع قدرا وأنبه ذكراً، وأحب وأعظم وإنما هذه الأمور هي من مصالح المؤمنين، التي يصلح الله بها بعضهم ببعض، فإن المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى، **وقد لاينقلع الوسخ إلا بنوع من الخشونة، لكن ذلك يوجب من النظافة والنعومة، ما نحمد ذلك التخشين**»[٤٧] فمن أراد النظافة والنعومة الباطنية والخارجية لكي يلاقي الله بقلب سليم فعليه أن يصبر على تلك المواد الخشنة والتي لا يزول الوسخ المتراكم على القلوب إلا بها.

السقوط من القافلة:

هكذا يضع الأستاذ مصطفى مشهور الصبر شرطاً من شروط الانتساب إلى قافلة المجاهدين، وبغيره يسقط تلقائياً دون أن يدفعه أحد فيقول «فإذا

---

(٤٦) صيد الخاطر ٢٧٦.

(٤٧) العقود الدرية ص ٢٥٩.

لم يحتمل الداعية هذا الإيذاء، ولم يصبر عليه ويحتسبه عند الله، وآثر العافية وبرد العافية على حساب دينه وعلى حساب وقفته مع الحق، ورضى بالقعود عن الجهاد، ومواصلة السير في طريق الدعوة، فإنه يكون بذلك قد أخفق في تخطي هذه العقبة، وحرم نفسه شرف الانتساب إلى قافلة المجاهدين، ويستبدل الله به غيره « وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ »(٤٨).

(٤٨) طريق الدعوة (١) ص ٥٥، ٥٦.

٤ ـ قلة السالكين

لابد لسالك طريق الدعوة أن يعلم بأن من طبيعة هذا الطريق أن يكون سالكوه دائماً هم الأقلون عددا، وتلك حقيقة كثر ذكرها في القرآن الكريم، منها ما ذكر خلال مناقشات إبليس مع رب العزة وذلك عند قوله تعالى على لسان إبليس ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾[٤٩] فهنا يطلب إبليس من الله أن يرجيء إماتته إلى يوم القيامة لكي يستولي على بني آدم بالاغواء والاضلال ثم يستثني من بني آدم فئة قليلة تتكسر كل إمكانياته بالاغواء أمامهم بسبب أنهم قد التجئوا إلى من هو أقوى منه وهو الله سبحانه وتعالى، ولكن هذه الفئة المتمسكة بالحق، والذي قد استثناهم الشيطان من إضلاله «قليل».

وجاء في سورة (ص) قوله تعالى على لسان نبى الله داود لأحد الخصمين «اللذان تسورا عليه المحراب ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾[٥٠].
وفي سورة سبأ قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[٥١].

يقول الامام القرطبي «وإن الشكر حقيقته الاعتراف بالنعمة للمنعم، واستعمالها في طاعته، والكفران إستعمالها في المعصية. وقليل من يفعل ذلك، لأن الخير أقل من الشر، والطاعة أقل من المعصية، بحسب سابق التقدير»[٥٢].

هذا ما استيقنه ذلك الرجل الصالح في عهد الفاروق رضي الله عنه

---

(٤٩) الاسراء ٦٢.
(٥٠) ص ٢٤.
(٥١) سبأ ١٣.
(٥٢) تفسير القرطبى ٨/٥٣٥٨.

حتى أنه كان يدعو الله أن يكون من الأقلين مما جعل عمر رضي الله عنه يستغرب هذا الدعاء ويسأله «وما الأقلون؟ قال: سمعت الله يقول: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[٥٣] ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ وذكر آيات أخرى فقال عمر: كل أحد أفقه من عمر»[٥٤].

لا تستوحشوا لقلة السالكين

ولعل أحد السالكين لهذا الطريق يستوحش لقلة السالكين معه، فيستشعر بالغربة في بحر من المخالفين لطريقه، فيؤدي به هذا الشعور إلى الذوبان مع مخالفيه قلباً وقالباً خشية أن يبدو بصورة الشاذ في المجتمع، وقضاءاً على هذه الوحشة التي تؤرقه، فهذا هو إمام الحديث سفيان بن عيينة يناديه هو وأمثاله «اسلكوا سبل الحق ولا تستوحشوا من قلة أهلها»[٥٥].

موازين خاصة

وطالب الآخرة له موازينه الخاصة، والتي تختلف عن موازين عامة الناس، فالناس يستصغرون شأنه لقلة عدد جماعته، ولكنه يرى نفسه كبيراً وكثيراً مع إخوانه لأنه يلجيء إلى ركن متين، ويراهم في عينه هم الأقل قدراً وإن كانوا أكثر عدداً، لأنهم قد اعتصموا بالباطل، والباطل في معتقده زهوقاً. هكذا يصف الإمام إبن القيم السالك لهذا الطريق فهو في نظره «لايكترث بمخالفيه الناكبين عنه له فإنهم هم الأقلون قدراً وإن كانوا الأكثرين عدداً، كما قال بعض السلف: عليك بطريق الحق، ولا تستوحش لقلة السالكين، وكلما إستوحشت في تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق

---

(٥٣) هود ٤٠.
(٥٤) الزهد - لأحمد ص ١١٤.
(٥٥) صفة الصفوة ٢/٢٣٥.

بهم. وغض الطرف عمن سواهم. فإنهم لن يغنوا عنك شيئا. **وإذا صاحوا بك في طريق سيرك، فلا تلتفت إليهم فإنك متى التفت إليهم أخذواك وعاقوك**»[٥٦].

الظبي الجفول

وقد يكون الالتفات في كثير من الأحيان لعواء الباطل سبباً في الانشغال عما هو أهم من أمور الدعوة، وقد يكون سبباً في ضعف سير البعض، لهذا ضرب الامام إبن القيم مثلا للملتفت لنعيق الباطل بالظبي فيقول: «**الظبي أشد سعياً من الكلب، ولكنه إذا أحس به إلتفت إليه فيضعف سعيه. فيدركه الكلب فيأخذه**»[٥٧] وقد نوه الأستاذ سيد قطب رحمه الله إلى هذه الحقيقة حينما قال:

أخي فامض لا تلتفت للوراء طريقك قد خضبته الدماء
ولا تلتفت ههنا أو هناك ولا تتطلع لغير السماء[٥٧أ]

فالسالك لهذا الطريق المخضب بدماء الأنبياء وحواريهم والصحابة رضي الله عنهم والشهداء لاينبغي أن يهتم بغير العلم الذي رفع له فشمر له، وإلا فليس في الوقت متسع لتشتيته هنا أو هناك. ثم كيف يتأثر بأقاويل الباطل وادعاءاته من يثق بالطريق الذي يسير فيه.

وسليمان الداراني يضرب مثلاً للواثق في سلوك الطريق إذ يقول «**لو شك الناس كلهم في الحق ما شككت فيه وحدي**»[٥٨] فالقضية العددية لا تغير من حقائق الأمور شيء، وإن غيرت فإنما تغير في النفوس المهزوزة الضعيفة، والتي خيراً للدعوة أن تزول عنها.

---

(٥٦) (٥٧) مدارج السالكين ١/٢١، ٢٢.
(٥٧ أ) شعراء الدعوة الاسلامية ٤/٤٦.
(٥٨) البداية والنهاية ١٠/٢٥٧.

ثانيًا: الخلاص من اليأس

* العوامل المؤدية لليأس
١- التطبيق الخاطئ للإسلام
٢- سقوط بعض القيادات
٣- استمرار المحنة
٤- قلة الاتباع وكثرة الخصوم
* اليأس وأخلاق المسلمين

ثانياً ـــــــــ الخلاص من اليأس

واليأس هو العنصر الهدام في الجماعة المسلمة، وهو الجرثومة التي تخترق أصلاب أفراد الحركة الإسلامية لتورثهم الشلل الحركي وكل ما يتصل به من أمراض. وحتى نقضي على هذه الجرثومة، لابد لنا من تحديد الداء، وهو العوامل المؤدية إلى اليأس، حتى يسهل علينا بعد ذلك تحديداً أدق للدواء لتعود العافية للأجزاء المشللة، ويمضي الجميع لتحقيق النصر الكامل بإذن الله.

العوامل المؤدية للتيأس

(١) التطبيق الخاطيء للاسلام

عندما يئس خصوم الاسلام من محاربته كفكر وكمنهج حياة لجئوا إلى حربه بوسائل خبيثة تختلف عن وسائلهم التقليدية القديمة، ومن هذه الوسائل الحديثة، تسهيل وتشجيع قيام كيانات ترفع اللافتة الاسلامية ولكنها تنحرف في تطبيق الاسلام، كتركيزها على تطبيق الحدود دون باقي الامور التي هي من أصول الحكم الاسلامي. مما يعطي إنطباعا سيئا لكل ذي أمل بعودة الأمة إلى الصراط المستقيم. وهنا يتسرب اليأس إلى نفوس البعض من إمكانية عودة الإسلام الحقيقي في الوقت الحاضر.

(٢) سقوط بعض القيادات

قيادات العمل الاسلامي مهما بلغوا من الصلاح فهم من البشر، وما داموا بشراً فهم غير معصومين من الزلل والخطأ، وحتى من السقوط على أعقابهم، فلا بد لأفراد الحركة الإسلامية أن يدركوا قضيتين مهمتين، الأولى هي أن قادة العمل الإسلامي ليسوا بمعصومين، وماهم بملائكة مبرئين من الخطأ والعصيان، والقضية الثانية هي التعلق بالحق وصاحبه وعدم التعلق بالأفراد. لاينكر أحد مالهذا العامل من أثر عميق في خلق نفوس يائسة، خاصة عندما ترى بعض قدواتها التي عقدت عليها الأمل تنهار في وسط الطريق، وهي التي إهتدت على أيديها. ومع أهمية هذا العامل لخلق اليأس في نفوس البعض إلا أن الأمر يزداد سوءاً إذا لم نأخذ بعين الاعتبار تلك القضيتين فما دام الانسان حيا فلا يؤمن عليه من الفتنة، حتى أن الرسول ﷺ وهو المعصوم، كان يكثر من قوله «يامقلب القلوب ثبت قلبي على

دينك»[٥٩] ولهذا السبب كان الصحابي الجليل إبن مسعود يقول «**من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات - يعني الصحابة - فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة**»[٦٠].

التعـــلق بالأفـــراد

إن من بديهيات العمل الاسلامي أن يتعلق أفراد الحركة الاسلامية بالحق وليس بحملته، ماداموا غير معصومين، ويكون الاقتداء بهم ماداموا على الحق ثابتين، أما إذا زاغوا عنه فلا إقتداء ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وهذا الأمر يقتضي عدم الإلتفات عن الحق بسبب أخطاء القادة، فإذا ما حدث شيء من الابتعاد عن الحق بسبب زلات بعض القادة، فإنما يدل ذلك على عدم الاخلاص في طلب الحق، إذ أن المخلص لايرنو لشيء سوى الحق، ولا يبعده عنه أمرا من أمور الدنيا، وكان الإمام سفيان بن عيينة يطلق على مثل هؤلاء الذين يجعلون زلات القدوات سبباً بالابتعاد عن الحق «صفة الحماقة» فقد لاحظ أحدهم منه خشونة وشدة على طلبته فتجرأ وسأله «إن قوماً يأتونك من أقطار الأرض، تغضب عليهم، يوشك أن يذهبوا ويتركوك»[٦١] فرد عليه «**هم حمقى - إذن - مثلك أن يتركوا ما ينفعهم لسوء خلقي**»[٦٢] وحاشا سفيان أن يكون سيء الخلق، ولكنه الافتراض الذي أراد سفيان أن يفهمه السائل، وهي القاعدة التي عجب سفيان ألا يفقهها ذلك السائل، وهي «**التعلق بالحق وترك التعلق بالأفراد**» فالقائد والقدوة لايعني أبداً أنه هو الحق وهو الدعوة، وفرق أن يوجد عيب أو زلل في القائد، أو أن يوجد الزلل والخطأ في الحق.

---

(٥٩) رواه الترمذي وصححه الألباني ص ج ص ٧٨٦٤.
(٦٠) فتاوي إبن تيمية ٤/١٣٧، ١٣٨.
(٦١) (٦٢) آداب الشافعي ص ٦.

القفـال والقـروي

إنه من واجب المربين ومن هم في موضع القدوة أن يربوا أتباعهم على التعلق بالله وعدم التعلق بالأفراد، فهذا هو القاضي الحسين يروي عن مفسر الحديث الشيخ القفال إذ يقول: «كنت عند القفال فأتاه رجل قروي وشكا إليه أن حماره أخذه بعض أصحاب السلطان، فقال له القفال: إذهب فاغتسل وادخل المسجد، وصل ركعتين، واسأل الله تعالى أن يرد عليك حمارك فأعاد عليه القروي كلامه، فأعاد القفال، فذهب القروي ففعل ما أمره به وكان القفال قد بعث من يرد حماره، فلما فرغ من صلاته رد الحمار فلما رآه على باب المسجد خرج وقال: الحمد لله الذي رد عليّ حماري، فلما انصرف سئل القفال عن ذلك فقال: أردت أن أحفظ دينه كي يحمد الله تعالى»[٦٣] فلو أنه أتى بحماره دون أن يأمره بالصلاة ودعوة الله، لاعتقد ذلك القروي البسيط بأن الحول والقوة بيد القفال وليس بيد الله، ولحمد القفال ولم يحمد الله، فهذه لفتة طيبة، وتصرف حكيم لايفطن له إلا من هم بمستوى القدوات.

البنا يعالج التعلق

وفي عصرنا الحديث، وخاصة في بداية نشأة الحركة الاسلامية في مصر بقيادة الامام البنا، ظهرت بعض بوادر التعلق من البعض، ولكن الامام البنا لم يمهلها أن تنمو، وقضى عليها في مهدها ليعلق أفراد الحركة الجدد بالله وحده، وليس بالأفراد، ويروي عنه تلميذه البار الأخ الفاضل عباس السيسي موقفين في ذلك، الأول كان في مؤتمر الطلاب للأخوان المسلمين، والذي انعقد بدار جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة عام ١٩٣٨، يقول الأخ السيسي «وقف حسن البنا يخطب إذ تحمس أحد الأخوة من الطلاب فهتف بحياة

(٦٣) طبقات الشافعية ١/١٩٩.

حسن البنا ـ ومع أنه لم يردد الحاضرون هذا الهتاف، إلا أن فضيلته وقف صامتاً لا يتحرك برهة، فاتجهت إليه الأنظار في تطلع.. ثم بدأ حديثه في غضب فقال: **أيها الاخوان إن اليوم الذي يهتف في دعوتنا بأشخاص لن يكون، ولن يأتي أبدا، إن دعوتنا إسلامية قامت على عقيدة التوحيد، فلن تحيد عنها.**

أيها الاخوان لاتنسوا في غمرة الحماس الأصول التي آمنا وهتفنا بها «الرسول قدوتنا» ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾[٦٤].

والموقف الثاني حدث في مدينة رشيد حين أقام الاخوان حفلاً بإحدى المناسبات الدينية ، يقول الأخ السيسي «وحين جاء أحد المتكلمين في الحفل، وقد كان من المتحمسين لنشر دعوة الإخوان ـ قام متحدثاً إلى الناس فقال: إن مثلنا الآن من فضيلة الاستاذ المرشد، وهو يشير إليه، كمثل رسول الله ﷺ بين أصحابه وما كاد الأستاذ المتحدث ينتهي من هذه العبارة حتى قفز الامام الشهيد إلى المنصة ثم اتجه إلى الناس قائلاً ـ أيها الأخوة معذرة إذا كان الأستاذ المتحدث قد خانه التعبير، فأين نحن من تلامذة رسول الله ﷺ ثم نزل إلى مكانه ولم يستطع الاستاذ المتحدث إكمال الحديث كما بدأ»[٦٥] هذه هي المواقف الرجولية التي تقضي على مثل هذه الآفة، وليس الركون والاستمتاع بكلمات الاطراء، فإذا لم يرى التابع ردة فعل لتصرفه الخاطيء زاد تعلقه بالمتبوع، حتى إذا سقط ذلك المتبوع يوماً من الأيام سقط ذلك التابع معه، أو أصابه اليأس من انتصار هذه الدعوة، وكلا النتيجتين خطر على مسيرة الدعوة.

---

(٦٤) حسن البنا مواقف في الدعوة والتربية ص ٨١، ٨٢.

(٦٥) حسن البنا مواقف في الدعوة والتربية ص ٨٢.

(٣) إستمرار المحنة

وهو عامل من العوامل المهمة لنشوء اليأس عند البعض، وينشأ عادة من ضعف اليقين بالنصر وهزيمة الباطل(٦٦).

(٤) قلة الأتباع وكثرة الخصوم(٦٧)

وهذا العامل ناشيء من عدم تصور واضح لطبيعة الطريق، مما يجعله يستوحش لقلة الأتباع وكثرة الخصوم.

تجمد النشاط

إن المحرك الرئيسي لنشاط أفراد الحركة الاسلامية هو الأمل بالعون من الله والنصر، وسيطرة الاسلام على باقي الأديان والأفكار، وحينما يستولي اليأس، أو يتسرب إلى النفوس فإن النشاط والحركة والهمة تكون في خطر التجمد الكامل، لأنه سيشعر بأنه يتحرك دون فائدة، يقول الدكتور خالص جلبي «إن الدعوات حين يستولي على عناصرها اليأس من جدوى الانتشار، فإن نشاطها يتوقف، وعلى قدر الأمل في جدوى إنتشار الدعوة تتحرك عناصرها ولكن مجرد هذا الشعور أيضا خطر، لأن اليقين بأن الدعوة تنتشر أي أن نكون مفعمين ومترعين بالأمل فقط لن يكون كافيا مالم يختلط بشعور آخر واضح محدد، وهو مثلا الخوف من التفريط في الأمانة.. أو الخوف من الزوال. والقرآن قد أشار إلى هذه الفكرة بحديها، فمن جهة عزى رسول الله حتى لا يحزن فييأس من عدم قبول الدعوة فقال تعالى: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ وقال ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ ومن جهة أخرى شدد في التبليغ قائلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾(٦٨).

(٦٦) راجع فصل وعورة الطريق - كما سنفصل في هذا الأمر في فصل هزيمة الباطل.
(٦٧) راجع فصل قلة السالكين.
(٦٨) ظاهرة المحنة ص ٣٣.

اليـــأس وأخـــلاق المسلمين

المشكلة التي يقع فيها البعض والتي تتصاحب مع استمرار المحنة، وشدتها، وإعراض الكثير عنها هي **اليأس من صلاح الأمة، وعودتها إلى ربها**، وينسى في خضم هذه الفتن ينابيع الأمل والتي تبدو ظاهرة في الكثير من المسلمين، وينسى وعد الله بالنصر، فتراه مجهم الوجه، عاقد الحاجبين، قد استولى عليه اليأس حتى بدى واضحاً في قسمات وجهه وفي ثنايا كلامه، رافعاً راية «لو أسلم حمار بن الخطاب لما أسلم عمر» إلى أمثال هؤلاء يقول الإمام البنا «**لا تيأسوا فليس اليأس من اخلاق المسلمين، وحقائق اليوم أحلام الأمس، وأحلام اليوم حقائق الغد. ولا زال في الوقت متسع، ولا زالت عناصر السلامة قوية عظيمة في نفوس شعوبنا المؤمنة رغم طغيان مظاهر الفساد. والضعيف لايظل ضعيفاً طول حياته والقوي لا تدوم قوته أبد الآبدين** ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ ﴾[٦٩].

فليمدد بســـبب

إنها النصيحة التي نصح بها يعقوب بنيه ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٧٠] فالقنوط صفةمن صفات الكفر

---

(٦٩) الرسائل ١٥٢ ط المؤسسة الاسلامية.

(٧٠) يوسف ٨٧.

والعياذ بالله، والكفر هو التغطية، فالكافر من تغطت فطرته فما أصبح يرى الأمور كما هي بل يراها مقلوبة لانتكاس فطرته، فالخالق الذي من صفاته العدل لايمكن أن يرضى ببقاء الظلم دون أن يأذن بذهابه بمن شاء وكيفما يشاء، ويأخذ الحق لأصحاب الحق، وان من سنن الله في كونه بأن يعقب الظلمة النور، فمن ظن غير ذلك، ويأس من إنجلاء الظلام فكأنه اتصف بصفات الكفر والعياذ بالله. قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾[٧١].

يقول ابن كثير «**من كان يظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة**»[٧٢] فهو تحد من الله لكل عدو لهذه الدعوة، ولكل متردد، ومشكك، ومثبط، ولكل يائس بين الصفوف، بأنه سينصر دعوته مهما بدت الظروف في تقدير البشر أنها صعبة، كما أنها مخاطبة لتلك النفوس التي تيأس إذا اشتد البلاء، وتغتر بتورمات الباطل التي تحمل القيح والقذر، وتحسبها أنها عافية، يقول سيد رحمه الله «والذي ييأس في الضر من عون الله يفقد كل نافذة مضيئة، وكل نسمة رخية، وكل رجاء في الفرج، ويستبد به الضيق، ويثقل على صدره الكرب، فيزيد هذا كله من وقع الكرب والبلاء، فمن كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بحبل إلى السماء يتعلق به أويختنق. ثم ليقطع الحبل فيسقط أو ليقطع النفس فيختنق... ثم لينظر هل ينقذه تدبيره ذاك مما يغيظه!!

ألا إنه لا سبيل إلى إحتمال البلاء إلا بالرجاء في نصر الله. ولا سبيل إلى الفرج إلا بالتوجه إلى الله. ولا سبيل إلى الاستعلاء على الضر، والكفاح

(٧١) الحج ١٥.
(٧٢) تفسير إبن كثير ٣/٢١٠.

للخلاص إلا بالاستعانة بالله. وكل حركة يائسة لاثمرة لها ولا نتيجة إلا زيادة الكرب، ومضاعفة الشعور به، والعجز عن دفعه بغير عون الله. فليستبق المكروب تلك النافذة المضيئة التي تنسم عليه من روح الله»[٧٣].

(٧٣) الظلال ٤/٢٤١٣/٢٤١٤.

ثالثاً: هزيمة الباطل

* ستغلبون وتحشرون
* الباطل الزهوق
* الفجر القادم

ستغلبون وتحشرون

وثالث مقومات الثقة بالنصر الاستيقان من هزيمة الباطل، وهي عقيدة لابد أن يستحضرها دعاة الحركة الاسلامية، ذلك أن هزيمة الباطل وجيوشه حتمية في سنن الله تعالى، فلا يمكن أن يمكن لأهل الباطل، وتستقر الحياة دون هيمنة منهج الله في الحياة. ومهما طالت حياة الباطل، فإنها جولة ما تلبث أن تنقضي وتهلك، ويكون بهلاكها عبرة للآخرين. وكان الامام ابن الجوزي يصبر بعض أتباعه على إحتمال إنتفاش أهل الباطل، وتقليدهم المناصب، ومراكز التأثير في الدولة فيقول لهم «**إصبروا فلا بد للشبهات أن ترفع رأسها في بعض الأوقات، وإن كانت مدموغة، وللباطل جولة وللحق صولة، والدجالون كثير، ولا يخلو بلد ممن يضرب البهرج على مثل سكة السلطان**»(٧٤).

إن استقرار حقيقة زوال الظلم والظلام في نفوس حملة راية الحق في كل زمان ضرورة لإحداث التغيير، فلقد تربى الرعيل الأول على آيات كثيرة تغرس في نفوسهم «حتمية زوال الباطل» وهي الكلمات التي أمر الله رسوله ﷺ أن يصدع بها في وجوه الطغاة وأتباعهم ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾(٧٥) حقيقة لم تتزعزع بسبب شدة البطش، ولا لطول جولة الباطل، ولا دموية أهله وشراستهم، ولا لكثرة العدة والعتاد، ولا حتى لكثرة أتباع الباطل، بل بسبب أن الباطل بذاته، ومن تركيبته الشاذة بناء منهدم، إذ يقول تعالى ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ

(٧٤) صيد الخاطر ص ١٧٠ الطنطاويان.
(٧٥) آل عمران ١٢.

زَهُوقًا﴾[٧٦].

الباطـل الزهـوق

يقول الامام القرطبي «وزهق الباطل ـ بطل الباطل، ومن هذا زهوق النفس وهو بطلانها. يقال زهقت نفسه تزهق زهوقاً وأزهقتها «إن الباطل كان زهوقا» أي لا بقاء له، والحق الذي يثبت»[٧٧].

فالباطل زهوق، وإن بدا حياً تدب فيه الحياة، لكنها حياة مزيفة مصنوعة، ما تلبث أن تتوقف إذا انجلت الزينة، والأصباغ وبدا اللون الحقيقي الشاحب، الدال على الموت المؤكد لهذا الباطل. يقول الاستاذ سيد قطب «**إن الباطل كان زهوقا ـ لأنه لايحمل عناصر البقاء في ذاته إنما يستمد حياته الموقوتة من عوامل خارجية وإسناد غير طبيعية، فإذا تخلخلت تلك العوامل، ووهت هذه الاسناد تهاوى وانهار. فأما الحق فمن ذاته يستمد عناصر وجوده.. وقد تقف ضده الأهواء، وتقف ضده الظروف، ويقف ضده السلطان.. ولكن ثباته واطمئنانه يجعل له العقبى ويكفل له البقاء، لأنه من عند الله الذي جعل «الحق» من أسمائه وهو الحي الباقي الذي لايزول**»[٧٨].

الفجـر القـادم

وعندما دخل سيد قطب رحمه الله هو ورفاقه السجن الحربي بسبب كلمة الحق، ولاقى هو وصحبه من التعذيب ما لاقى، أراد أن يجدد حقيقة «زوال الباطل» في نفوس أصحابه الذين ربما تزعزعت في نفوس بعضهم هذه الحقيقة لشدة البلاء الذي أصابهم فصاح صيحة الواثق..

---

(٧٦) الاسراء ٨١.
(٧٧) تفسير القرطبي ٦/١٣١.
(٧٨) الظلال ٤/٢٢٤٧.

«أخي ستبيد جيوش الظلام ويشرق في الكون فجر جديد
فأطلق لروحك إشراقها ترى المجد يرمقنا من بعيد»[٧٩]

إن الغيم الأسود الذي غطى بلادنا لابد أن ينجلي، وإن الليل الحالك لابد أن يزول، وإن إيماننا بذاتية الهزيمة المتأصلة في الباطل وحتمية طلوع الفجر هي التي تدفعنا أن ننشد مع وليد الأعظمي..

«مهما تمطى ليلنا الأسود
مهما استبد الظالم «السيد»
مهما عتا الأقزام والأعبد
ولوحوا بالقيد أو هددوا
عن نصرة الاسلام هل نقعد
كلا. سنبقى دائماً ننشد
بفجره لابد أن يأتي الغد»[٨٠]

(٧٩) الكفاح الاسلامي الاردنية ـ العدد ٢٩.
(٨٠) أغاني المعركة ـ فجر الغد ص ٧٦.

رابعاً: الاستيقان من النصر

* الاستيقان بالاستخلاف
* شـــــرط الاستخلاف
* الاستيقان من التمكين
* البشـــــارة بالفتـــح

رابعاً ـــــ الاستيقان من النصر

تثبيت القلوب

يقول تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾[٨١]

يقول الحافظ ابن كثير «أي قد حكم وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لايخالف ولا يمانع ولا يبدل بأن النصرة له، ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة»[٨٢]. ويقول الشيخ السعدي «وهذا وعد لايخلف، ولايغير، فإنه من الصادق القوي العزيز الذي لايعجزه شيء يريده»[٨٣].

ويقول تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾[٨٤].

هذه الآيات وغيرها تأتي لتثبيت قلوب المؤمنين، وتغرس فيهم الرجاء بالنصر، حتى يصلوا في ذلك إلى درجة اليقين الذي لاشك فيه، بأن النصر قادم لامحالة يقول سيد قطب «قد يعد الله المسلمين الغلب لتثبيت قلوبهم، وإطلاقها من عوائق الواقع الحاضر أمامهم ـ وهي عوائق ساحقة في أحيان كثيرة ـ فإذا استيقنوا العاقبة قويت قلوبهم على اجتياز المحنة، وتخطي العقبة، والطمع في أن يتحقق على أيديهم وعد الله للأمة المسلمة، فيكون لهم ثواب الجهاد، وثواب التمكين لدين الله، وثواب النتائج المترتبة على هذا التمكين»[٨٥].

---

(٨١) المجادلة ٢١.
(٨٢) تفسير ابن كثير ٤/٣٢٩.
(٨٣) تفسير كلام المنان ٧/٣٢٢.
(٨٤) المائدة ٥٦.
(٨٥) الظلال ٢/٩٢٢.

إني مغلوب فانتصر

يقول تعالى: ﴿* كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾[٨٦] فالله ينصر فرد واحد إذا ما بذل كل ما لديه من طاقة وجهد وسبب، وتوجه بعدها لله يطلب النصرة، فكيف بالجموع المؤمنة التي تطلب النصرة إذا ما بذلت كل ما بوسعها وطاقتها من أجل نصرة دين الله، فالله الذي غمر الأرض بالطوفان من أجل فرد مؤمن لجأ إليه بعدما بذل كل ما بوسعه، لقادر على تحطيم كل أنواع الطغيان من أجل الفئة المؤمنة، وهذه عقيدة يجب أن تستقر في نفوس أبناء الحركة الاسلامية.

لا مبدل لكلماته

يقول تعالى ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ﴾[٨٧].

يقول إبن كثير: «هذه تسلية للنبي ﷺ، وتعزية له فيمن كذبه من قومه وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ووعد له بالنصر كما نصروا، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة بعدما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ ثم جاءهم النصر في الدنيا كما لهم النصر في الآخرة. ولهذا قال ﴿ولا مبدل لكلمات الله﴾ أي التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين»[٨٨].

إن الناظر للحرب الشرسة التي يواجه بها أصحاب الحق من أهل الباطل، من حملات إعلامية، وتضييق في الرزق، وتشويه للسمعة، وإضطهاد

---

(٨٦) القمر ١٠.
(٨٧) الأنعام ٣٣، ٣٤.
(٨٨) تفسير إبن كثير ٢/١٣٠

وملاحقة، وتصفية في كثير من الأحيان، حتى غدا المتدين هو الذي يتحرى عنه بدقة في نقاط الحدود بدلا من المعربد المحشش الخؤون، وأصبح الآخر هو الثقة بمقارنته بصاحب الحق. إن هذا الوضع يشكل ضغوطاً نفسية لصاحب الحق تجعله يقترب من اليأس من النصر لطول ليل الظالمين، والذي يبدو من الوهلة الأولى ألا نهاية له، فتأتي هذه الآيات كالبلسم الشافي، وكالنور يشع في عتمة ليل الطغاة، مؤكدة بأن النصر آت لا ريب فيه. . يقول سيد قطب «إن موكب الدعوة إلى الله موغل في القدم، ضارب في شعاب الزمن، ماض في الطريق اللاحب، ماضٍ في الخط الواصب. . مستقيم الخطى، ثابت الأقدام. يعترض طريقه المجرمون من كل قبيل، ويقاومه التابعون من الضالين والمتبوعين، ويصيب الأذى من يصيب من الدعاة، وتسيل الدماء وتتمزق الأشلاء. . والموكب في طريقه لاينحني ولا ينثني ولا ينكص ولا يحيد. . والعاقبة هي العاقبة، مهما طال الزمن، ومهما طال الطريق. . إن نصر الله دائماً في نهاية الطريق»[٨٩] وإذا كان لكل شيء مظهر يستدل به عليه، فإن من أبرز ظواهر الاستيقان بالنصر هو الإستيقان بالاستخلاف، والإستيقان بالتمكين.

---

(٨٩) الظلال ٢/١٠٧٧.

الاستيقان بالاستخلاف

يقول تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[٩٠] كان فرعون قد هدد بني إسرائيل بعد إيمانهم بموسى عليه السلام بتقطيع الأيدي والأرجل، والصلب، يقول الامام الشوكاني: «لما بلغ موسى ما قاله فرعون أمر قومه بالاستعانة بالله والصبر على المحنة، ثم أخبرهم (أن الأرض) يعني أرض مصر (لله يورثها من يشاء من عباده) أو جنس الأرض، وهو وعد من موسى لقومه بالنصر على فرعون وقومه»[٩١].

ولكن موسى عليه السلام يواجه هنا نفوسا يائسة، غير قادرة على مواصلة الطريق ولا تعرف طبيعة الطريق الموصل للنصر، ولا سنن الاستخلاف في الأرض، وهو يريد أن يغير هذه النفوس العنيدة، المكابرة، التي أحبت حياة الذل والمهانة، والتي لاتعرف للأمل والرجاء طريقاً، إن هذا الصنف من الناس لاشك أنه يعوق الوصول للنصر ولا يتم على يديه، حتى تتغير موازينه، وترتفع نفوسهم عن طينة الأرض، وعتمة الطين، لتسمو في العلياء، ولتثق برب السماء.

يقول الأستاذ سيد قطب: «إنه مشهد النبي موسى ـ عليه السلام ـ مع قومه يحدثهم بقلب النبي ولغته، ومعرفته بحقيقة ربه، وبسنته وقدره، فيوصيهم باحتمال الفتنة، والصبر على البلية، والاستعانة بالله عليها. ويعرفهم بحقيقة الواقع الكوني. فالأرض لله يورثها من يشاء من عباده. والعاقبة لمن

---

(٩٠) الأعراف ١٢٨، ١٢٩.
(٩١) فتح القدير ٢/٢٣٥.

يتقون الله ولا يخشون أحدا سواه.. فإذا شكوا إليه أن هذا العذاب الذي يحل بهم قد حل بهم من قبل أن يأتيهم، وهو يحل بهم كذلك بعد ما جاءهم، حيث لا تبدو له نهاية، ولا يلوح له آخر! أعلن لهم رجاءه في ربه أن يهلك عدوهم، ويستخلفهم في الأرض ليبتليهم في أمانة الخلافة»[٩٢] وهي ليست مهمة الرسل فقط، بل هي مهمة كل فرد في الحركة الاسلامية أن يثبت النفوس المتزلزلة، ويطمئن القلوب اليائسة الغافلة بهذه الحقائق، وبتلك السنن التي وضعها الله فلا ينتصرون إلا بها.

(٩٢) الظلال ٣/١٣٥٥.

الاستخلاف وعد من الله

يقول تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝﴾(٩٣).

إن الحالة الأمنية التي عاش به الرعيل الأول من الصحابة رضي الله عنهم في مكة، وبداية أيامهم في المدينة بعد الهجرة يصفها أبو العالية تلميذ الصحابي الجليل أبي بن كعب فيقول «كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين يدعون إلى الله وحده، وعبادته وحده لاشريك له، سراً وهم خائفون لايؤمرون بالقتال، حتى أمروا بالهجرة إلى المدينة، فقدموا المدينة، فأمرهم الله بالقتال، وكانوا بها خائفين، يمسون بالسلاح، ويصبحون بالسلاح، فغيروا بذلك ما شاء الله، ثم ان رجلاً من أصحابه قال: [يارسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا، أما يأتي علينا يوم نأمن فيه، ونضع فيه السلاح؟ فقال رسول الله ﷺ «لن تصبروا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبيا ليست فيه حديدة» فأنزل الله هذه الآية الكريمة ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ. . .﴾(٩٤).

وليس الوعد بالخلافة قاصراً على الخلفاء الأربعة ومن بعدهم، بل هي شاملة لكل الأمة، متى قامت بالأسباب التي تهيؤها لحمل الأمانة، يقول الإمام القرطبي «وقال قوم هذا وعد لجميع الأمة في ملك الأرض كلها تحت

---

(٩٣) النور ٥٥.

(٩٤) أخرجه ابن أبي حاتم وابن مردويه، وصححه محمد الرفاعي ـ تيسير العلي القدير ٣/٢٩٤.

كلمة الاسلام، كما قال عليه الصلاة والسلام «**زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها**»(٩٥) واختار هذا القول إبن عطية في تفسيره حيث قال: والصحيح في الآية أنها في استخلاف الجمهور، واستخلافهم هو أن يملكهم البلاد، ويجعلهم أهلها»(٩٦) ثم يقول القرطبي: «قلت هذه الحال لم تختص بالخلفاء الأربعة رضي الله عنهم حتى يخصوا بها من عموم الآية، بل شاركهم في ذلك جميع المهاجرين بل وغيرهم»(٩٧) ثم يقول «فصح أن الآية عامة لأمة محمد ﷺ، غير مخصوصة، إذ التخصيص لايكون إلا بخبر ممن يجب له التسليم، ومن الأصل المعلوم التمسك بالعموم»(٩٨).

شـــــرط الاســـتخلاف

إن وعد الله بالاستخلاف لايتحقق إلا بشرط لازم، وهو «الإيمان والعمل» فما حقيقة هذا الايمان، وذلك العمل الصالح المتعلق به، يقول سيد قطب رحمه الله «إن حقيقة الايمان التي يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة تستغرق النشاط الانساني كله، وتوجه النشاط الانساني كله، فما تكاد تستقر في القلب حتى تعلن عن نفسها في صورة عمل ونشاط وبناء وإنشاء موجه كله إلى الله، لايبتغي به صاحبه إلا وجه الله، وهي طاعة لله واستسلام لأمره في الصغيرة والكبيرة، لايبقى معها هوى في النفس، ولا شهوة في القلب، ولا سبل في الفطرة إلا وهو تبع لما جاء به رسول الله ﷺ من عند الله.

فهو الايمان الذي يستغرق الانسان كله، بخواطر نفسه، وخلجات قلبه وأشواق روحه، وميول فطرته، وحركات جسمه، ولفتات جوارحه، وسلوكه

---

(٩٥) رواية مسلم «إن الله تعالى زوى لي الأرض...» صحيح مسلم ٢٨٨٩.
(٩٦)، (٩٧)، (٩٨) تفسير القرطبي ٧/ ٤٦٩٠.

مع ربه في أهله، ومع الناس جميعا. يتوجه بهذا كله إلى الله.. يتمثل هذا في قول الله سبحانه في الآية نفسها تعليلاً للاستخلاف والتمكين والأمن ﴿يعبدونني لايشركون بي شيئا﴾ والشرك مداخل وألوان، والتوجه إلى غير الله بعمل أو شعور هو لون من ألوان الشرك بالله. ذلك الايمان منهج حياة كامل، يتضمن كل ما أمر الله به، ويدخل فيما أمر الله به توفير الأسباب، وإعداد العدة، والأخذ بالوسائل، والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى في الأرض.. أمانة الاستخلاف»(٩٩).

فليس لفرد ولا لجماعة أن تحدد وقتا يستخلفها الله فيه، فهذا الوعد ليس راجعاً للتقديرات البشرية، بل هو راجع لخالق البشر متى ما رأى تحقق الشرط الذي اشترطه للاستخلاف في الذين يسعون لاعادة راية الاسلام. ذلك لأن الخلافة ليست هدفاً بحد ذاتها، بل هي وسيلة كبرى لتبليغ دين الله، وحمايته وحماية أتباعه لتحقيق الهدف الحقيقي وهو عبادة الله وحده لاشريك له ﴿يعبدونني لايشركون بي شيئا﴾.

مفهوم الاستخلاف عند سيد

يقول سيد رحمه الله «إنها ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم إنما هي هذا كله على شرط استخدامه في الاصلاح والتعمير والبناء، وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه، وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض، اللائق بخليقة أكرمها الله.

إن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والاصلاح، لا على الهدم والافساد. وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة، لا على الظلم والقهر. وقدرة

---

(٩٩) الظلال ٤/٢٥٢٨.

على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان!.

وهذا الاستخلاف هو الذي وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات وعدهم الله أن يستخلفهم في الأرض ـ كما استخلف المؤمنين الصالحين قبلهم ـ ليحققوا النهج الذي أراده الله، ويقرروا العدل الذي أراده الله، ويسيروا بالبشرية خطوات في طريق الكمال المقدر لها يوم أنشأها الله.. فأما الذين يملكون فيفسدون في الأرض، وينشرون فيها البغي والجور، وينحدرون بها إلى مدارج الحيوان.. فهؤلاء ليسوا مستخلفين في الأرض، إنما هم مبتلون بما هم فيه، أو مبتلى بهم غيرهم، ممن يسلطون عليهم لحكمة يقدرها الله»[١٠٠].

(١٠٠) الظلال ٤/٢٥٢٩.

والتمكين منزلة تأتي بعد الاستخلاف، فعندما تستقر الأمور، وتثبت الأقدام يأتي التمكين لتستمر عملية الاستخلاف، فبغير التمكين يظل الاستخلاف مهزوزا متأرجحاً حتى يحدث التمكين. يقول تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[101].

يقول صاحب الظلال «فهؤلاء المستضعفون الذين يتصرف الطاغية في شأنهم كما يريد له هواه البشع النكير، فيذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، ويسومهم سوء العذاب والنكال. وهو مع ذلك يحذرهم ويخافهم على نفسه وملكه، فيبث عليهم العيون والأرصاد، ويتعقب نسلهم من الذكور فيسلمهم إلى الشفار كالجزار! هؤلاء المستضعفون يريد الله أن يمن عليهم بهباته من غير تحديد، وأن يجعلهم أئمة وقادة لاعبيداً ولا تابعين، وأن يورثهم الأرض المباركة (التي أعطاهم إياها عندما استحقوها بعد ذلك بالإيمان والصلاح) وأن يمكن لهم فيها فيجعلهم أقوياء راسخي الأقدام مطمئنين. وأن يحقق ما يحذره فرعون وهامان وجنودهما وما يتخذون الحيطة دونه، وهم لا يشعرون!»[102].

إن الجو الذي تعيشه الحركة الاسلامية الآن ليشبه في كثير من جزيئياته الجو الذي عاش فيه أتباع موسى عليه السلام مع الطاغية فرعون، فإذا كان فرعون قد ابتكر طريقة شيطانية للحفاظ على عرشه من الزوال، أو الاهتزاز بأن قام بقتل كل مولود ذكر، وأبقى النساء من بني اسرائيل، فإن فراعنة هذا الزمان قد فاقوا فرعون موسى بما أحدثوه من وسائل وابتكارات للحفاظ على

(١٠١) القصص ٥ ، ٦.
(١٠٢) الظلال ٥/٢٦٧٨.

عروشهم، فإنهم لم يكتفوا بإبادة رجال الحركة الاسلامية إنما تعدوا ذلك حتى إلى الأقرباء والأصدقاء، ولكل من له صلة فيهم من ذكر أو أنثى، ولكن الذي أنشأ موسى عليه السلام في أحضان الطاغية لكي يريه ما كان يحذر هو وزبانيته، ثم مكن له ولأتباعه في الأرض، قادر على أن يمكن لكل من يدعو بدعوته ويثبت عليها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، إنه لايخلف الميعاد. وبعد التمكين والاستقرار لاتباع الحق يكون الفتح الذي هو ثمرة للتمكين.

البشارة بفتح أرض الفاتيكان

«عن أبي قبيل قال: كنا عند عبدالله بن عمرو بن العاص، وسئل أي المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبدالله بصندوق له حلق، قال: فأخرج منه كتاباً قال: فقال عبدالله: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذ سئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تفتح أولاً قسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: مدينة هرقل تفتح أولاً: يعني قسطنطينية.

ولقد حقق الله نبوءة الرسول ﷺ بعد ثمانمائة عام ففتحت القسطنطينية على يد القائد الإسلامي محمد الفاتح، وسيتحقق الفتح الآخر لرومية وهي روما الآن والتي فيها مقر الصليبية العالمية «دولة الفاتيكان» بإذن الله، والذي يبدو أن هذا الفتح القادم لروما لايتحقق إلا في ظل دولة موحدة، وهي دولة الخلافة، والتي جاءت البشارة بها في حديث آخر أخرجه الإمام أحمد إذ يقول فيه الرسول ﷺ: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكاً عاضاً فيكون ماشاء

---

(١٠٣) رواه أحمد ١٧٦/٢ وصححه الألباني ـ الأحاديث الصحيحة ٤.

الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكاً جبرياً فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم سكت»[١٠٤] وأحسب أن الفترة التي تعيشها الحركة الاسلامية في الوقت الحالي هي الملك الجبري. وهي الحكومات التي تأتي بالحديد والنار رغماً عن أنوف الشعب دون بيعة عامة أو خاصة، وهي غالباً الحكومات العسكرية، فكأن حكمهم جاء بالاجبار، لذلك أطلق عليه النبي ﷺ «ملكاً جبرياً» وهي بشارة بقرب الخلافة الراشدة والتي ستعود بإذن الله إذا انجلت فترة الحكم الجبري، وهذا يزيد من استيقان أفراد الحركة الاسلامية بالنصر والاستخلاف والتمكين والفتح إن شاء الله.

(١٠٤) رواه أحمد ٤/٢٧٣ وصححه الألباني ـ الأحاديث الصحيحة ٥.

خامسًا : بين العمل والنتيجة

* البنا ينبه اتباعه
* سعيد واصحاب الاخدود
* من كانت بيده فسيلة

خامساً ـــــ بين العمل والنتيجة

قد ييأس البعض عندما لايرون نتيجة سريعة لما يقومون به من جهد في هذه الدعوة المباركة، فهم يرون المجتمع الذي يعملون فيه ينزع الحياء يوما بعد يوم بخطى سريعة مخيفة، تجعل هذا البعض ييأس من جدوى العمل مع هؤلاء، إن هذا الصنف من الدعاة عندما يقومون بذلك ينسون حقيقة هامة، وهي أنه كعبد لله ليس مطلوباً منه أكثر من العمل، الذي يتضمن التبليغ، ولكن الهداية ليست مطلوبة منه، فضلا عن أنه لايملكها ابتداء*. وهذا لايعني عدم الاهتمام بنتيجة العمل، أو إستيلاء شعور بعدم جدوى انتشار الفكرة، كما أنه لايعني أيضا عدم الاستيقان بالنصر، فإن الثقة بالنصر هي الدافع للعمل، ولكننا نقصد بالنتيجة هداية الناس، والتي يتم على إثرها تغير المجتمع من مجتمع جاهلي إلى مجتمع إسلامي، وهي غير مطلوبة من الفرد، بل مطلوب منه العمل الدؤوب للنصر، وليس النصر بذاته، والذي قد لايتحقق على أيدينا، ولكن هذا لايعني أبدا التوقف عن العمل.

البنـا ينبـه أتبـاعه

هكذا تنبه الامام البنا لمثل هذا المرض الذي يتسرب أحيانا إلى نفوس البعض فقال «أيها الاخوان المسلمون إنكم تبتغون وجه الله، وتحصيل مثوبته ورضوانه، وذلك مكفول لكم ما دمتم مخلصين. **ولم يكلفكم الله نتائج الأعمال، ولكن كلفكم صدق التوجه. وحسن الاستعداد.** ونحن بعد ذلك إما مخطئون فلنا أجر العاملين المجتهدين، وإما مصيبون فلنا أجر الفائزين المصيبين»(١٠٥)

---

* تنقسم الهداية إلى قسمين، هداية توفيق وهي بيد الله والأخرى هداية دلالة ويشترك فيها الناس مع الرسل، والمقصود القسم الأول.

(١٠٥) الرسائل ص ١٢٧ ـ المؤسسة الاسلامية.

سيد وأصحاب الأخدود

إن تأخر النتيجة، واستمرار البلاء يجب ألا يكونان سبباً في التوقف عن العمل، فلسنا نملك تحديد النتائج الفرعية والنتيجة الكبرى، وإنما أمر ذلك كله لصاحب الدعوة الذي وعد بإظهار هذا الدين على الدين كله ولو كره الكافرون يقول سيد معلقا على حادث الأخدود «لم يكن بد من هذا النموذج الذي لا ينجو فيه المؤمنون، ولايؤخذ فيه الكافرون! ذلك ليستقر في حس المؤمنين ـ أصحاب دعوة الله أنهم قد يدعون إلى نهاية كهذه النهاية في طريقهم إلى الله. وأن ليس لهم من الأمر شيء، إنما أمرهم وأمر العقيدة إلى الله! **إن عليهم أن يؤدوا واجبهم، ثم يذهبوا. وواجبهم أن يختاروا الله، وأن يؤثروا العقيدة على الحياة، وأن يستعلوا بالايمان على الفتنة، وأن يصدقوا الله في العمل والنية. ثم يفعل الله بهم وبأعدائهم، كما يفعل بدعوته ودينه ما شاء. وينتهي بهم إلى نهاية من تلك النهايات التي عرفها تاريخ الايمان، أو إلى غيرها مما يعلمه هو ويراه. إنهم أجراء عند الله. أينما وحيثما وكيفما أرادهم أن يعملوا، عملوا وقبضوا الأجر المعلوم! وليس لهم ولا عليهم أن تتجه الدعوة إلى أي مصير، فذلك شأن صاحب الأمر لا شأن الأجير!**»[١٠٦].

من كانت بيده فسيلة

يقول رسول الله ﷺ «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها، فليفعل»[١٠٧].

الفسيلة هي شتلة النخل التي تحتاج حتى تنمو وتعطي الثمار إلى سنين وليست أياما، وفي هذا الحديث يدعو رسول الله ﷺ من كان بيده تلك

---

(١٠٦) معالم في الطريق ١٨١.

(١٠٧) رواه أحمد ١٩١/٣ وصححه الألباني ص ج ص ١٤٣٧.

الفسيلة وهو يعلم أن القيامة قد قامت وما يتبعها من تشققات في الأرض والسماء، وما يتبعها من تلاطم النجوم بعضها ببعض، وفيضان البحار على اليابسة واشتعال النيران فيها، ومع علمه لكل هذا فهو يأمره أن يغرسها، وهذا من أغرب الأمور التي تدل دلالة قاطعة بأنه ليس مطلوباً من العبد إنتظار النتيجة بقدرما هو مطلوب منه العمل بما أمره سيده، يقول الأستاذ محمد قطب «إنه يقول لهم: ليس عليكم ثمرة الجهد، ولكن عليكم الجهد وحده، ابذلوه ولا تتطلعوا إلى نتائجه!.

ابذلوه بإيمان كامل، أن هذا واجبكم وهذه مهمتكم، **وأن واجبكم ومهمتكم ينتهيان بكم هناك، عند غرس الفسيلة في الأرض لا في التقاط الثمار! وهو إذ يقول لهم ذلك لايغرر بهم ولايضحك عليهم! إنما يقول لهم الشيء الواحد الصواب! فحين تسأل نفسك: متى تثمر الفسيلة وكيف تثمر، وحولها الرياح والأعاصير والشر من كل جانب؟ وحين يصل بك التفكير إلى أن تطرح الفسيلة جانباً وتنفض منها يديك.. حينئذ كيف تثمر؟ وأنى لها أن تعيش؟**

ألست قتلتها أنت حين أفلتها من يديك؟

ولكنك حين تغرسها في الأرض وترفع يديك لله بالدعاء.. حينئذ تكون أودعتها مكانها الحق، وعهدت بها إلى الحق الذي يرعاها ويرعاك»[١٠٨].

فما دام الداعية مستيقناً بالنصر، فليس من المهم أن يرى هو النصر مادام مستيقن به، وإنما عليه أن يقوم بدوره الذي حدده الله، من الدعوة إلى الله، وبذل كل الأسباب التي تحرز النصر، وبعدها فليس مهما أن يتحقق النصر على يديه أو يد غيره.

---

(١٠٨) قبسات من الرسول ٣٠، ٣١.

كيف ننتصر

* الخطوة الأولى التوكل على الله
* الخطوة الثانية إعداد العدة
* الخطوة الثالثة معرفة الجاهلية
* الخطوة الرابعة ترك الوهن
* الخطوة الخامسة الشعور بالعلو
* الخطوة السادسة الثبات

كيف ننتصر

إن غرس صفة «الثقة بالنصر» في نفوس الدعاة، بتحديد معنى النصر، ومقوماته لاتغني عن معرفة «كيفية النصر» إذ أن الجهل بالخطوات المؤدية للنصر، وإن أحرز نصراً سريعاً، فإنه لايؤدي أبداً إلى الاستخلاف والتمكين وربما أدى إلى نتائج وخيمة يرجع ضررها على الدعوة والدعاة. فلا بد من معرفة هذه الخطوات والتي في مقدمتها التوكل على الله ثم إعداد العدة، وبذل الأسباب وبعد الانتهاء من البناء الداخلي، وقبل الالتحام مع الخصوم لا بد من معرفة دقيقة للجاهلية، فإذا ما رأينا البهرج والزينة والانتفاخ الضخم لبناء الجاهلية فلا يكون هذا سبباً في غرس الوهن المضعف للمسير والمجاهدة، بل يجب الاستشعار بالعلو، وإذا ما وقع البلاء بعد الاحتكاك فلا مناص من الثبات الذي يزلزل أركان الباطل ويحيله كالهباء المنثور.

عرف الشيخ محمد بن علان التوكل في كتابه «دليل الفالحين» بأنه «إعتمادك على مولاك ورجوعك إليه، وخروجك عن حولك وقوتك، وانطراحك بين يديه»(١٠٩).

أنواع التوكل

وجميع أنواع التوكل تنقسم إلى قسمين توكل في أمور الآخرة، وتوكل في أمور الدنيا، وخيرها ما كان للآخرة. ويوضح هذه الأقسام الامام ابن القيم فيقول «فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه في الايمان، ونصرة دينه، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه. وفي محابه وتنفيذ أوامره. ودون هؤلاء من يتوكل عليه في إستقامته في نفسه، وحفظ حاله مع الله، فارغاً عن الناس، ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله منه. من رزق أو عافية، أو نصر على عدو، أو زوجة أو ولد، ونحو ذلك. فأفضل التوكل: التوكل في الواجب ـ أعني واجب الحق، وواجب الخلق، وواجب النفس ـ وأوسعه وأنفعه: التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية. أو في دفع مفسدة دينية، وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض»(١١٠) والانتصار الذي نعنيه هو انتصار دين الله، وبالتالي فإن التوكل الذي نريده هو توكل الأنبياء في إقامة دين الله، وهو الاعتماد والثقة بقدرة المولى عز وجل بالنصرة، وعدم الاعتماد فقط على بذل الأسباب، وإعداد العدة.

---

(١٠٩) دليل الفالحين ١/٢٥٦.

(١١٠) تهذيب مدارج السالكين ص ٣٣٦، ٣٣٧.

درس من الهجـرة:

فالرسول ﷺ ما ترك سبباً من الأسباب التي تخطر على بال بشر إلا وقام به عند الهجرة.

فقد ترك عليا رضي الله عنه ينام في مكانه.
وأعـد الراحلة واستأجر دليلاً يدله على الطريق.
واتجه جنوباً بدل أن يتجه شمالاً جهة المدينة تعميه على الأعداء.
وجعل عامر بن فهيرة يعفى بغنمه على الأثر.
واختبأ في غار ثور، وهو في أعلى جبل ثور، والوصول إليه شاق جداً.
وكلف إبن أبي بكر بجلب الأخبار من مكة.
وكلف إبنة أبي بكر ـ أسماء بجلب الطعام لهما وهما في الغار.

ومع بذل كل هذه الأسباب فإن الأعداء وصلوا إلى فتحة الغار، ولولا إرادة الله لاقتحموه، الأمر الذي جعل الصديق رضي الله عنه يقول: «يارسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا. فقال: ما ظنك يا أبابكر باثنين الله ثالثهـما»(١١١) وهـذا يدل على أن الرسول ﷺ لم يعتمد على الأسباب فحسب، بل كان معتمدا على الله منذ أول لحظة خرج بها من بيته بين صفوف المتحلقين على البيت، حتى في تلك اللحظات الحرجة في الغار، وهو لايغيب عن باله التوكل على الله والثقة بنصره. ومن هنا نستنتج أن الحركة الاسلامية المعاصرة إذا ما أرادت أن تنتصر فيجب ألا تعتمد على تنظيمها وخططها وأفرادها وعدتها وتنسى الاعتماد على الله، فهي أول خطوة في الطريق المؤدية للنصر.

---

(١١١) متفق عليه ـ اللؤلؤ والمرجان ـ ١٥٤٠.

فالعدة جزء من الأسباب التي يجب أن نبذلها، والعدة لا تعني فقط السلاح، بل تعني أموراً أكثر من ذلك،وكذلك الأسباب لا تعني شيئا بذاته بل تعني بذل كل أمر يؤدي أو يساعد على النصر، ويكشف الامام البنا هذه الأسباب بقوله للمتعجلين للنصر، وهم لم يكملوا بعد بذل أسباب النصر «**وفي الوقت الذي يكون فيه منكم ـ معشر الاخوان المسلمين ـ ثلاثمائة كتيبة قد جهزت كل منها نفسها روحياً بالايمان والعقيدة، وفكرياً بالعلم والثقافة، وجسمياً بالتدريب والرياضة، في هذا الوقت طالبوني بأن أخوض بكم لجج البحار، وأقتحم بكم عنان السماء، وأغزو بكم كل عنيد جبار، فإني فاعل إن شاء الله**»(١١٢).

قلة تغلب الكثرة

يقول تعالى: ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾(١١٣).

القضية العددية وإن كانت مهمة، وهي جزء من إعداد العدة التي أمرنا الله ببذلها لتحقيق سنته في النصر، ولكنها ليست كل شيء، كما أنها ليست الأهم من بين الأسباب المعدة، خاصة إذا استنفذت فئة الحق كل ما لديها من طاقة،وبذلت كل ما أمرت به من أسباب، فما كان المسلمون في معظم حروبهم ذوي كثرة عددية بقدر ما لديهم من كثرة إيمانية قد إتصلت بصاحب الأسباب، مع بذلها لكل ماتستطيع من أسباب. فقد كانوا في بدر مايقارب الثلاثمائة بينما كان عدوهم يقارب الألف.

(١١٢) الرسائل ص ١٢٨ ـ ط ـ المؤسسة الاسلامية.
(١١٣) البقرة ٢٤٩.

وكانوا في أحد سبعمائة، وعدوهم ثلاثة آلاف.
وفي الخندق كانوا ثلاثة آلاف، وعدوهم عشرة آلاف.
وفي حروب الردة كانوا إثني عشر ألفاً، وعدوهم أربعين ألفاً.
وفي اليرموك كانوا أربعين ألفاً، بينما بلغ عدوهم مائتي وأربعين ألفاً.

وهكذا في معظم المعارك، تكون النسبة مابين ١ إلى ٣ أو ١ إلى ٦، وما كانوا يتعمدون تقليل عددهم، ولكن كان ذلك كل ما استطاعوا تجميعه آنذاك، فعوضهم الله بعدما بذلوا ما أمروا به من أسباب بالملائكة لتكمل النقص العددي، فقد قال الله تعالى في معركة بدر ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾(١١٤) فأصبح عددهم ألف وثلاثمائة، ولم يترك هذه القلة مع تلك الكثرة بإمداد الملائكة فقط، بل أعطاهم الراحة الجسدية الضرورية للقتال، فقال في ذلك ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾(١١٥)، وزاد في نصرة الفئة القليلة على الكثيرة بأنه زلزل قلوب معسكر الباطل مع كثرتهم، وذلك بقوله ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾(١١٦) ثم يقللهم في عيون أعدائهم، ويقلل عدد أعدائهم في أعينهم، وهذا عامل نفسي مهم في الانتصار لايملكون الاعداد له لولا مؤازرة الله لهم، فيقول تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾(١١٧).

إنتصار ظاهره هزيمة

وقد لا تكون الفئة المؤمنة القليلة هي المنتصرة دائماً، لذلك قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ﴾ ولم يقل «كل فئة قليلة» كما حدث في معركة أحد،

---

(١١٤) الأنفال ٩.
(١١٥) الأنفال ١١.
(١١٦) الأنفال ١٢.
(١١٧) الأنفال ٤٤.

ومعركة مؤتة، ومن ثم لابد من وجود أسباب لهزيمة الفئة المؤمنة القليلة، وقد تكون القضية العددية هي أحد الأسباب، كما كان في معركة مؤتة، إذ كان عدد المسلمين نحو ثلاثة آلاف، بينما عدد الروم ومن تبعهم مائتي ألف، أي مايقارب ١ إلى ٦٦، وهذه بلا شك نسبة تفوق العقل البشري. ومع أهمية القضية العددية التي كان يدركها بعض الصحابة الذين اقترحوا إرسال كتاب للرسول ﷺ ليمدهم بالرجال، إلا أنهم بذات الوقت كانوا يعتقدون اعتقادا جازماً بأن النصر لايتعلق بالعدد، متى ما بذلوا كل ما بوسعهم من طاقة وسبب، لهذا قال لهم عبدالله بن رواحة، وكان أحد أمرائهم **«ياقوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة، فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة»**[١١٨] ومع هذه الكثرة في جيش العدو، إلا أن بعض الروايات لاتعد ما حدث في مؤتة هزيمة للمسلمين، بل تعده فتحا ونصراً. يقول الكاتب الاسلامي شوقي أبو خليل «لقد استطاع خالد بن الوليد تحقيق إنسحاب مدروس منظم، مع حماية دقيقة لمؤخرة الجيش، وإلا لانقلب الانسحاب إلى هزيمة منكرة، وخسائر كبيرة، وكارثة محتملة. فالارتداد المأمون أصعب من النصر في بعض المآزق، لأن النصر ميسور مع اجتماع العدة، واحتمال الشدة فيه، ولكن الارتداد المأمون غير ميسور لكل من يريده وهو في أضعف الموقفين، إلا أن تكون له ـ القائد ـ خبرة القيادة تكافيء الرجحان في قوة العدو الذي يرتد بين يديه»[١١٩]. وعلى هذا تصدق القاعدة **«بأن الفئة المؤمنة، إذا ما بذلت ما بوسعها من الأسباب فالنصر حليفها بإذن الله»** ولا تبقى المسألة العددية عائقا يحول دون النصر، وهذا ما استيقنه أتباع طالوت القلة، عندما

---

(١١٨) البداية والنهاية ٤/٢٤٣.

(١١٩) غزوة مؤتة ـ شوقي ـ ص ١١٢.

واجهوا عدوهم الذي يفوقهم بالعدد، فقالوا قولتهم «كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ» وكذلك قالها ابن رواحة وصحبه في مؤتة فنصرهم بإذنه.

يقول سيد رحمه الله «**فهذه هي القاعدة في حس الذين يوقنون أنهم ملاقوا الله، القاعدة أن تكون الفئة المؤمنة قليلة لأنها هي التي ترتقي الدرج الشاق حتى تنتهي إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار. ولكنها تكون الغالبة لأنها تتصل بمصدر القوى، ولأنها تمثل القوة الغالبة. قوة الله الغالب على أمره، القاهر فوق عباده، محطم الجبارين، ومخزي الظالمين وقاهر المتكبرين**»(١٢٠).

النصر السريع

إن بذل هذه الأسباب المتعددة مع ما فيها من عناء، وبذل الدعاة لكل ما لديهم من طاقة مع توكلهم على الله لهي من أكبر الأسباب المؤدية للنصر. إن النصر السريع الذي يريد البعض الحصول عليه دونما بذل للأسباب التي قد تطيل الطريق لا يمكن أن يبقى طويلاً إن حدث، لأنه مخالف لسنة الله، يقول سيد رحمه الله «**والنصر السريع الذي لا يكلف عناء، والذي يتنزل هيناً ليناً على القاعدين المستريحين، يعطل تلك الطاقات عن الظهور، لأنه لايحفزها ولايدعوها وذلك فوق أن النصر السريع الهين اللين. سهل فقدانه وضياعه. أولاً لأنه رخيص الثمن لم تبذل فيه تضحيات عزيزة. وثانياً لأن الذين نالوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ به، ولم تشحذ طاقاتهم وتحشد لكسبه. فهي لا تتحفز ولا تحتشد للدفاع عنه**»(١٢١).

---

(١٢٠) الظلال ١/٢٦٩.

(١٢١) الظلال ٤/٢٤٢٦.

لا يقول عاقل بأن قائداً من القواد، أو فئة من الفئات تستطيع الانتصار على خصمها دون معرفة دقيقة بنقاط الضعف ونقاط القوة لديه، ومالم يتعرف أصحاب الحق على الجاهلية معرفة دقيقة تجعلهم يعرفون من خلالها نقاط الضعف ونقاط القوة، فإنهم لن يستطيعوا مواجهتها.

ما هي الجاهلية؟

فالجاهلية كما يصفها الاستاذ محمد قطب بأنها «**حالة نفسية ترفض الاهتداء بهدى الله، ووضع تنظيمي يرفض الحكم بما أنزل الله.. ثم تصيبها النتائج الحتمية لهذا الانحراف. نتائج تختلف باختلاف صورة الانحراف ومداه.. ولكنها تتفق في أنها إضطراب في حياة البشر، وشقاء، وقلقلة وتدمير وعذاب..**»

ومن ثم فهي ليست محصورة في الجاهلية العربية، ولا في فترة من الزمن معينة.. وإنما هي حالة يمكن أن توجد في أي وقت وفي أي مكان... كما توجد كذلك في أي «مستوى» من المعرفة و «الحضارة» والتقدم المادي والقيم الفكرية والسياسية والاجتماعية و «الانسانية».. إذا كانت هذه كلها لاتهتدي بالهدى الرباني، وتتبع أهواءها، وترفض أن تتبع ما أنزل الله.

وأن «الجاهلية» و «الهوى».. سيان.. فالذين يتبعون أهواءهم يرفضون أن يتبعوا ما أنزل الله.. وهم حينئذ في «الجاهلية» لهذا السبب عينه: لأنهم يرفضون هدى الله.. أيا كان مبلغهم من العلم البشري، ومبلغهم مما يسمى الحضارة والتقدم المادي، والتنظيم السياسي والاجتماعي والاقتصادي.. وهم

كذلك عرضة للنتائج الحتمية لهذه الجاهلية.. من إضطراب وشقاء، وتفتت وحرمان»[١٢٢].

معرفة سبيل المجرمين..

فالجاهلية عكس الهداية، فكل وضع لايهتدي بهدى الله فهو من الجاهلية، وكل مجتمع لايهتدي بهدى الله فهو مجتمع جاهلي، فكما أن أصحاب الحق عرفوا سبيل المؤمنين، فلا بد لهم من معرفة سبيل الطغاة والمجرمين، لكي يتقنوا تجنيب الناس الذين يلبس عليهم سبل الطغاة فيحسبوها سبل هداية، وليزيلوا الزينة التي غطى بها الباطل وجهه القبيح، فيظهر على حقيقته ليتجنبه العقلاء. وفي هذا يقول الإمام إبن القيم «**فالعالمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية، فاستبانت لهم السبيلان كما يستبين للسالك الطريق الموصل إلى مقصوده، والطريق الموصل إلى الهلكة. فهؤلاء أعلم الخلق وأنفعهم للناس، وأنصحهم لهم، وهم الأدلاء الهداة**، وبذلك برز الصحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة، فإنهم نشأوا في سبيل الضلال، والكفر والشرك والسبل الموصلة إلى الهلاك، وعرفوها مفصلة ثم جاءهم الرسول فأخرجهم من تلك الظلمات إلى سبيل الهدى وصراط الله المستقيم، فخرجوا من الظلمة الشديدة إلى النور التام. فإن الضد يظهر حسنه الضد، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها. **وأما من جاء بعد الصحابة، فمنهم من نشأ في الإسلام غير عالم تفضيل ضده، فالتبس عليه بعض تفاضيل سبيل المؤمنين بسبيل المجرمين، فإن اللبس إنما يقع إذا ضعف العلم بالسبيلين أو أحدهما كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه «إنما تنقض عرى الاسلام عروة عروة إذا نشأ في الاسلام من لم يعرف الجاهلية»** وهذا من كمال علم عمر رضى الله عنه، فإنه إذا لم يعرف

---

(١٢٢) جاهلية القرن العشرين ص ١١ - وهبه.

الجاهلية وحكمها، وهو كل ما خالف ما جاء به الرسول ﷺ فإنه من الجاهلية، فإنها منسوبة إلى الجهل، وكل ما خالف الرسول فهو من الجهل»[١٢٣] فلا بد أن يعرف أفراد الحركة الاسلامية النظام الاقتصادي الجاهلي، وما يسبب للعالم من ظلم وفقر واحتكار وحروب وأحقاد.

وأن يعرفوا النظام الاجتماعي الجاهلي الذي ساوى الرجل بالمرأة فامتهنها ووضع من قيمتها، وانتشرت الفاحشة بخروجها وتبرجها، وضاع الأطفال بغياب الأمهات، فخرجت أجيال من الشباب الذي لايعرف الله ولايريد أن يعرف الصلة بالله. ولابد أن يعرف النظام السياسي الجاهلي، الذي احتكم إلى تشريع البشر فجعل البشر هم الآلهة من دون الله.

ولابد أن يعرفوا أن هؤلاء الطغاة الذين يحتكمون إلى الجاهلية في سياستهم واقتصادهم وعاداتهم وأخلاقهم لايريدون أن يعبد أحداً سواهم وأنهم سيقضون على كل من يحاول تغيير جاهليتهم وقوانينها، ولابد أن يعرفوا أن الطغاة قد وضعوا في سبيل الحفاظ على طاغوتهم كل الوسائل والخطط المدروسة للقضاء على كل فئة تحاول القضاء على جاهليتهم، فلابد أن يكونوا مدركين لهذه الخطط حذرين منها. وبهذه المعرفة التفصيلية بالجاهلية نكون قد بذلنا سبباً كبيراً من أسباب النصر بإذن الله.

---

(١٢٣) الفوائد ١٤٢، ١٤٣ ـ النفائس.

الوهن صفة من صفات الضعف، والضعيف لايمكن أن ينتصر حتى يزيل هذا الضعف، والوهن قد ينتج من كثرة الابتلاء، أو كثرة أعداد الباطل، وكثرة عدته، وقد ينتج من سقوط القادة أو قتلهم. والصبر هو المنقذ من تغلغل الوهن في نفوس الدعاة، ولا يقوى على الصبر إلا نوعية من الدعاة، هم الذين ينالون شرف رفع الراية، ويكتب الله النصر على أيديهم.

الربيون

يقول تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾(١٢٤).

والربيون كما جاء في تفسير الطبري عن الحسن هم العلماء الفقهاء، وقال الامام الطبري مفسراً لقوله تعالى: ﴿فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله﴾ «فما عجزوا لما نالهم من ألم الجراح الذي نالهم في سبيل الله، ولا لقتل من قتل منهم، عن حرب أعداء الله، ولا نكلوا عن جهادهم «وما ضعفوا» يقول: وما ضعفت قواهم لقتل نبيهم، «وما استكانوا» يعني وما ذلوا فيتخشعوا لعدوهم بالدخول في دينهم ومداهنتهم فيه خيفة منهم، ولكن مضوا قدما على بصائرهم ومنهاج نبيهم، صبراً على أمر الله، وأمر نبيهم، وطاعة لله وإتباعاً لتنزيله ووحيه «والله يحب الصابرين» يقول: والله يحب هؤلاء وأمثالهم من الصابرين لأمره وطاعة رسوله في جهاد عدوه، لا من فشل ففر عن عدوه، ولا من انقلب على عقبيه فذل لعدوه لأن قتل نبيه أو مات، ولا من دخله وهن من عدوه، وضعف لفقد نبيه»(١٢٥).

---

(١٢٤) ال عمران ١٤٦.

(١٢٥) تفسير الطبري ٢٦٩/٧، ٢٧٠.

فالربيون أحبهم الله لأنهم فقهوا طبيعة الطريق الذي سلكه الأنبياء وأتباعهم من قبل، فلا بد من الابتلاء، ولا بد من صبر يقابل ذلك الابتلاء، صبر لا يعرف الوهن ولا الضعف ولا الاستكانة، فليست هذه من صفات السالكين لطريق الحق، بل هي صفات أولئك المتذبذبين، الشاكين بوعد الله والجاهلون لطبيعة هذا الطريق. وإلى هؤلاء كان سيد رحمه الله ينادي بلغة الأخوة..

أخي هل تراك سئمت الكفاح وألقيت عن كاهليك السلاح
فمن للضحايا يواسي الجراح ويرفع رايتها من جديد[١٢٦]

نعم فمن لضحايا الظلم والطغيان غير الدعاة إلى الله يواسي جراحهم؟ ومن غيرهم يرفع الراية من جديد؟ فإذا سئم هؤلاء فماذا ينتظر ممن دونهم؟

يألمون كما تألمون

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾[١٢٧].

فلا بد للسالكين لهذا الطريق أن يعرفوا بأن الألم الذي يصيبهم بسبب البلاء الواقع عليهم، هو ذاته يقع على خصومهم من أصحاب الباطل، فكما أن أصحاب الحق يتألمون نفسياً وجسدياً فكذلك أصحاب الباطل يتألمون أضعاف أضعاف أصحاب الحق. ومتى ما أدرك أصحاب الحق هذه الحقيقة فلا ينبغي لهم أن يهنوا ويضعفوا لمواصلة الصراع، ويفتروا في منتصف الطريق. وعار على أصحاب الحق أن يتحمل أصحاب الباطل هذا الألم وهم لايحتملوه مع فارق التوجه والغايات.

---

(١٢٦) شعراء الدعوة الاسلامية ٤/٤٤.
(١٢٧) النساء ١٠٤.

يقول الاستاذ سيد قطب «ولربما أتت على العصبة المؤمنة فترة لاتكون فيها في معركة مكشوفة متكافئة.. ولكن القاعدة لا تتغير.. فالباطل لايكون بعافية أبداً، حتى ولو كان غالباً! إنه يلاقي الآلام من داخله. من تناقضه الداخلي، ومن صراع بعضه مع بعض. ومن صراعه هو مع فطرة الأشياء وطبائع الأشياء. وسبيل العصبة المؤمنة حينئذ أن تحتمل ولا تنهار. وأن تعلم أنها إن كانت تألم، فإن عدوها كذلك يألم، والألم أنواع. والفرح ألوان.. «وترجون من الله مالا يرجون».. وهذا هو العزاء العميق.. وهذا هو مفرق الطريق»(١٢٨).

الله معكم

يقول تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾(١٢٩).

كيف يهن قوم هم الأعلون عند الله بما عندهم من منهج الله؟

وكيف يهن قوم ويضعفوا ويخافوا، ويشكوا بالنصر، ويتضعضعوا في الطريق، والقوة العظمى في جانبهم؟!

وكيف يهن قوم لا ينقص من أعمالهم شيء، وكل شيء مسجل لهم في كتبهم أضعافاً مضاعفة؟! إن على أفراد الحركة الإسلامية أن يعوا هذه القضية، فيرفضوا بعد ذلك المهادنة مع أهل الباطل. يقول علامة القصيم الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي معلقاً على الآية الكريمة «أي لاتضعفوا عن قتال عدوكم، ويستولي عليكم الخوف، بل اصبروا واثبتوا، ووطنوا أنفسكم على القتال والجلاد، طلباً لمرضاة ربكم، ونصحاً للإسلام، وإغضابا للشيطان (ولا تدعوا إلى السلم) والمتاركة بينكم وبين أعدائكم، طلباً للراحة.

(١٢٨) الظلال ٢/٧٥٠.
(١٢٩) محمد ٣٥.

والحـــال أنكم [أنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم] أي ينقصكم [أعمالكم] فهذه الأمور الثلاثة، كل منها مقتض للصبر، وعدم الوهن، كونهم الأعليين، أي قد توفرت لهم أسباب النصر، ووعدوا من الله بالوعد الصادق: فإن الانسان لايهن، إلا إذا كان أذل من غيره، وأضعف عدداً، أو عُددا وقوة داخلية وخارجية.

الثاني: أن الله معهم، فإنهم مؤمنون، والله مع المؤمنين، بالعون، والنصر، والتأييد. وذلك موجب لقوة قلوبهم، وإقدامهم على عدوهم.

الثالث: أن الله لاينقصهم من أعمالهم شيئا، بل سيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله»[١٣٠] ثم يقول «فإذا عرف الانسان أن الله تعالى لايضيع عمله وجهاده، أوجب له ذلك النشاط، وبذل الجهاد، فيما يترتب عليه الأجر والثواب. فكيف إذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة؟ فإن ذلك يوجب النشاط التام»[١٣١].

---

(١٣٠) (١٣١) تفسير كلام المنان ٨٧/٧، ٨٨.

إن من أكبر المشاكل التي تعانيها الحركة الاسلامية، أن من أفرادها من لايعي بعد طبيعة المنهج الذي يحمله، ولا طبيعة الطريق التي يسلكها، ومن ثم فإنه إذا تعرض لأي فتنة مهما صغرت، يعود إلى تصوراته الجاهلية، تلك التصورات البشرية البعيدة كل البعد عن موازين الآخرة، إنه يجهل صفات القوة التي يركن إليها، ويتمسك فيها، ولهذه الفئة التي يتكرر تواجدها في فئة الحق في كل جيل، يوجه الحق هذا النداء، مذكراً بالقوة التي يملكونها ثم يغفلون عنها في حمأة البلاء المتساقط عليهم من كل صوب وحدب، فيقول لهم ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾(١٣٢) ويقول لهم ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾(١٣٣) ويقول لهم ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾(١٣٤).

يقول الأستاذ سيد قطب «**أنتم الأعلون اعتقادا وتصوراً للحياة.**

وأنتم الأعلون إرتباطاً وصلة بالعلي الأعلى.

وأنتم الأعلون منهجاً وهدفاً وغاية.

وأنتم الأعلون شعوراً وخلقاً وسلوكاً.

وأنتم الأعلون قوة ومكاناً ونصرة. فمعكم القوة الكبرى: «والله معكم» فلستم وحدكم. إنكم في صحبة العلي الجبار القادر القهار. وهو لكم نصير حاضر معكم. يدافع عنكم. فما يكون أعداؤكم هؤلاء والله معكم؟ وكل ما تبذلون، وكل ما تفعلون، وكل ما يصيبكم من تضحيات محسوب لكم، لايضيع منه شيء عليكم: «ولن يتركم أعمالكم».. ولن يقطع منها شيئا لايصل إليكم أثره ونتيجته وجزاؤه. فعلام يهن ويضعف ويدعو إلى السلم، من يقرر الله سبحانه وتعالى له أنه الأعلى وأنه معه. وأنه لن يفقد شيئا من

---

(١٣٢) (١٣٣) (١٣٤) محمد ٣٥.

عمله. فهو مكرم منصور مأجور؟»[١٣٥] إن الشعور بالعلو والخيرية والارتقاء أمر رئيسي في الانتصار، وذلك لأن الشعور بالمهانة والذل والضعف والانحدار لا يسبب إلا الهزائم المتتالية لأن صاحب هذا الشعور لا يرى أنه مستحق للقيادة، من هنا تبرز أهمية الشعور بالاستعلاء لدى أصحاب الحركة الاسلامية، حتى يكون ذلك حافزاً للتحرك الدائب، الذي يقرب النصر إن شاء الله.

(١٣٥) الظلال ٦/٣٣٠٢.

وجعلها الإمام البنا من أركان البيعة وجاء ترتيبها بعد التضحية والطاعة، وكأن ذلك إشارة بأن التضحية والطاعة من المسببات الرئيسية للثبات، حيث أن التضحية كما يعرفها الامام البنا هي «بذل النفس والمال والوقت والحياة وكل شيء في سبيل الغاية»(١٣٦) وإذا ثبت لنا بأن جميع أنواع السقوط كانت بسبب من أسباب الدنيا فإن المضحي يظل ثابتا ويعصمه الله من السقوط لأنه قد باع كل ما يتعلق بالدنيا لله سبحانه وتعالى. والطاعة لون من ألوان الالتزام والذي يكون مؤشراً من مؤشرات الثبات في حياة الداعية.

والثبات كما يعرفه الامام البنا هو «أن يظل الأخ عاملاً مجاهداً في سبيل غايته، مهما بعدت المدة وتطاولت السنوات والأعوام، حتى يلقى الله على ذلك وقد فاز بإحدى الحسنين، فإما الغاية وإما الشهادة في النهاية ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ ۖ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾(١٣٧) (١٣٨).

أسباب السقوط..

إن أخبار السقوط والساقطين لتكاد أن تخلع القلب من الخوف، خاصة إذا كان الساقط من القدوات والمتكلمين، ولكن الذي يسكن رجفة القلب ما ذكره بعض العلماء من أسباب للسقوط.

---

(١٣٦) مجموعة الرسائل ص ٣٦١ ـ المؤسسة الاسلامية.
(١٣٧) الأحزاب ٢٣.
(١٣٨) مجموعة الرسائل ص ٣٦٣ ـ المؤسسة الاسلامية.

ففي تعليقه على حديث «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار»[١٣٩] يقول الامام ابن القيم **«لما كان العمل بآخره وخاتمته لم يصبر هذا العامل على عمله حتى يتم له، بل كان فيه آفة كامنة ونكتة خذل بها في آخر عمره فخانته تلك الآفة والداهية الباطنة في وقت الحاجة فرجع إلى موجبها وعملت عملها، ولو لم يكن هناك غش وآفة لم يقلب الله إيمانه»**[١٤٠].

فبسبب وجود هذه الآفة الكامنة في الأعماق والتي ما كان يلحظها بسبب ما كان يغره ما عليه من مظاهر الصلاح كان السقوط، وقد تكون تلك الآفة الكامنة، حبه للرئاسة والبروز، أو إعجابه برأيه أو عدم سلامة صدره على الآخرين، أو لكبر يوجد فيه بسبب علم أو جاه أو منصب. وأخذت هذه الآفة تكبر يوماً بعد يوم حتى خرجت من الباطن وأصبحت ظاهرة عليه فصرعته فأصبح من الساقطين. والسقوط أنواع، فمنها ما يكون إبتعاد عن صف الدعاة، مع عدم تركه للواجبات الدينية مع بقاء حبه للجماعة ومحافظته على ما كان قد ائتمن عليه.

ومنها ما يكون إبتعاد عن الصف مع عدم تركه للواجبات، ولكن مع حقده على الجماعة والعمل ضدها بكل ما يملك.

ومنها ما يكون سقوطاً حقيقياً في الضلال، وهذا النوع لا يكون أبداً لمن استقام ظاهره وباطنه، بل لا بد لهذا النوع من وجود بلية باطنية استمرت بالنمو يوماً بعد يوم، مع غفلة عنها حتى سببت ذلك السقوط، لهذا ينقل الامام القرطبي عن أبي محمد عبدالحق قوله **«إعلم أن سوء الخاتمة أعاذنا الله منها ـ لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، ما سمع بهذا ولا علم به ـ**

---

(١٣٩) البخاري ـ الفتح ٣٣٣٢.

(١٤٠) الفوائد ص ٢١٣ ـ النفائس.

والحمد لله ـ وإنما تكون لمن كان له فساد في العقل، أو إصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة»[١٤١].

نتـائج الســقوط

يقول الأستاذ فتحي يكن في كتابه القيم «المتساقطون على طريق الدعوة».

«وظاهرة التساقط هذه تسببت وتتسبب بكثير من الاساءات البالغة على الساحة الاسلامية، يكفينا أن نعرض هنا لبعضها..

ـ لقد تسببت هذه الظاهرة في أكثر الأحيان بهدر طاقات الحركة وأوقاتها في المعالجات التي قل أن تجدي نفعاً..

ـ وتسببت في إشاعة الفتن والتفسخ والتسمم في أجواء الحركة مما يعتبر عاملاً مساعداً على خسارة قريبي العهد بالإسلام وبالدعوة..

ـ وتسببت في كشف خبايا وأسرار ما كان لها أن تنكشف لولا أجواء الفتنة الضاغطة ووقوع الألسن والآذان في قبضة الشيطان.

ـ وتسببت بإضعاف الحركة، وبإغراء العدو بها، والاستعجال في ضربها وتصفيتها.

ـ وتسببت في بعد الناس عنها وزعزعة الثقة بها والتطاول عليها، مما يعطل دورها، وقد يوقف بالكلية سيرها.»[١٤٢].

وإذا كانت هذه النتائج تعتبر بلا شك عوائق تعيق الحركة الاسلامية عن الوصول للنصر، أو على الأقل تؤخر النصر الذي سيتم. فإن الثبات هو عنصر أساسي في عملية النصر المؤزر باذن الله.

---

(١٤١) التذكرة ١/٥٣.

(١٤٢) المتساقطون على طريق الدعوة ص ٦، ٧.

لنثبت على الطريق

يقول الأستاذ مصطفى مشهور «لنثبت يا أخي على طريق الدعوة، فلا تزل قدم بعد ثبوتها، ولنظل على الطريق لا نمل السير كل الوقت، وفي كل مكان، وتحت كل الظروف، ولو كان الواحد منا وحده في أقاصي الأرض، أو في أعماق السجون، مستشعرين معية الله، فهو نعم المولى ونعم النصير، لا تمل السير ياأخي ولو تباعدت أمام ناظريك تباشير النصر، أو ثمار أعمالك وجهادك. فالله سبحانه من رحمته بنا يحاسبنا على الأعمال والنيات، ولا يحاسبنا على النتائج»[١٤٣].

ويخطيء الطغاة حيث يظنون بأن البطش يطفيء الدعوة والدعاة، فلهذا يستخدمون أقسى أنواع التعذيب لثني الدعاة عما يدعون إليه، ولكنهم يفاجئوا بأن الدعاة بعد هذا التعذيب يزداد عزمهم، ويجددوا البيعة بالثبات على عهد الله، ويمثل هذا الشاعر جمال فوزي حيث يقول:

«برغم البطش والتنكيل قمنا ... نجدد بيعة مهما لقينا
ونعلنها وفي الآفاق أنا ... بعهد الله متنا أم حيينا»[١٤٤]

وفي وسط حلقات التعذيب سنة ١٩٥٤، ومن حجرة مظلمة في سجن القلعة صاح شاعرنا جمال فوزي مثبتاً إخوانه، وموضحاً لهم سنة الله في الدعاة إذ يقول:

«سنبذل روحنا في كل وقت ... لرفع الحق خفاقاً مبينا
فإن عشنا فقد عشنا لحق ... ندك به عروش المجرمينا
وإن متنا ففي جنات عدن ... لنلقى أخوة في السابقينا»[١٤٥]

---

(١٤٣) طريق الدعوة (١) ص ١٤٠.
(١٤٤) ديوان الصبر والثبات ص ٤٨.
(١٤٥) ديوان الصبر والثبات ص ١٠٧، ١٠٨.

وفي تحد واضح يثير أعصاب زبانية الطغاة، يصيح شاعرنا جمال فوزي فيهم وهو تحت سياطهم..

«فصبوا كيف شئتم من عذاب سجون الغدر أجمل ما لقينا
تعلمنا الثبات فهل أفقتم غدا سترون عقبى الظالمينا»[١٤٦]

فهذا وإن كان تحت التعذيب، يدرك أن لهذا البلاء خاتمة، وأن للطغاة نهاية قريبة.

ومن صيحة جمال فوزي إلى صرخة وليد الأعظمي في وجه الطغاة معلماً لهم أن التعذيب لن يزيده إلا ثباتاً، ولن يثنيه عن طريق الحق فيقول:

«وصرخت في وجه الطغاة مغاضباً كفوا عن التعذيب والايلام
والله لو قطعتم لحمي أذى وطحنتم قبل الممات عظامي
ما زغت عن هدى النبي محمد كلا ولا نافقت للحكام»[١٤٧]

إننا لا نتمنى الفتنة، ولكننا نسأل الله الثبات إذا جاءت، ونردد مع رسولنا ﷺ «يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[١٤٨].

---

(١٤٦) ديوان الصبر والثبات ص ٥١.
(١٤٧) أغاني المعركة ٤٩، ٥٠.
(١٤٨) رواه الترمذي ـ وصححه الألباني ـ ص ج ص ٧٨٦٤.

أسباب تأخير النصر

* دفاع الله عن أوليائه حق
* سيد يذكر الأسباب

أسباب تأخير النصر

يقول تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾(١٤٩).

إن دفاع الله عن أوليائه حق، ووعد من الله، ولكنه شاء أن يكون هذا الدفاع بأسباب يبذلها أولياءه، من إعداد شامل لكل أسباب النصر، سواءاً المادية منها أو المعنوية، ومع قدرة الله على النصر بدون هذه الأسباب، إلا أنه شاء أن يربط النصر بمسبباته، وقد يعجل النصر أو يتأخر على قدر إحاطتنا أو عدم إحاطتنا لهذه الأسباب، فهزيمة المسلمين في أحد كان بسبب معصيتهم لأوامر الرسول ﷺ، وهزيمتهم في بداية حنين كان بسبب إغترارهم بالكثرة، كما أن هزيمتهم في بلاط الشهداء كان بسبب الغنائم التي انشغلوا بها عن مجابهة العدو، فكما أن للنصر أسباب، كذلك للهزيمة أسباب.

يقول الأستاذ سيد قطب «والنصر قد يبطيء على الذين ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا: ربنا الله، فيكون هذا الابطاء لحكمة يريدها الله.

قد يبطيء النصر لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها، ولم يتم بعد تمامها، ولم تحشد بعد طاقاتها، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى

---

(١٤٩) الحج ٣٨-٤٠.

المذخور فيها من قوى واستعدادات. فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكاً لعدم قدرتها على حمايته طويلاً! وقد يبطيء النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة، وآخر ما تملكه من رصيد، فلا تستبقي عزيزاً ولا غالياً لا تبذله هيناً رخيصاً في سبيل الله.

وقد يبطيء النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر. إنما يتنزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الأمر بعدها إلى الله.

وقد يبطيء النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله، وهي تعاني وتتألم وتبذل، ولا تجد لها سنداً إلا الله، ولا متوجهاً إلا إليه وحده في الضراء.

وقد يبطيء النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها، وتضحياتها لله ولدعوته، فهي تقاتل لمغنم تحققه، أو تقاتل حمية لذاتها، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها، والله يريد أن يكون الجهاد له وحده وفي سبيله.

كما قد يبطيء النصر لأن في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير، يريد الله أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصاً، ويذهب وحده هالكاً، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار!.

وقد يبطيء النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماماً. فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصاراً من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعد بفساده، وضرورة زواله، فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تتكشف لهم الحقيقة. فيشاء الله أن يبقى الباطل حتى يتكشف عارياً للناس، ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية!

وقد يبطيء النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة. فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لايستقر

لها معها قرار. فيظل الصراع قائماً حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر، ولاستبقائه!

من أجل هذا كله، ومن أجل غيره مما يعلمه الله، قد يبطيء النصر، فتتضاعف التضحيات، وتتضاعف الآلام. مع دفاع الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية. وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه، وتهيؤ الجو لاستقباله واستبقائه»(١٥٠).

وتصديقا لما ذكره الأستاذ سيد رحمه الله، فما زلنا نرى من المصلين من يصفق لرموز الطغاة في العصر الحديث ولا يقبل أبدا أن يمسهم أحد بكلمة سوء وما زلنا نرى جموعاً من رواد المساجد من يخاف من تطبيق الحدود، وما زلنا نرى مثل هذه الجموع وأكثر ممن يصدقون بأجهزة إعلام الطغاة بما يلصق ليل نهار بالحركة الاسلامية من اتهامات وأباطيل بريئون منها. وغيرها من الظواهر التي تؤكد حكمة الله بتأخير النصر. **إلا أن أبرز مظهر وأكثرهم إيلاماً هو عدم تصافي الجماعات الاسلامية بعضها مع بعض، فما زال الكثير منها يطعن بالبعض الآخر، ويستحل غيبته والاساءة إليه بحجة تبيين الحق، بل وأكثر من ذلك فإننا نجد في الجماعة الواحدة الانقسامات التي تعمل ضد بعضها البعض، وتحقد بعضها على البعض الآخر، فكيف ننتظر نصراً سريعاً للاسلام، والحركة الاسلامية التي هي أمل الأمة بالإنقاذ تتجاذبها هذه التجزءات، وتتبريء من كثير من أخلاق الأخوة الاسلامية. أفينصر الله من تشتت قلوبهم بعد أن توحدت قلوب أعدائهم عليهم؟؟!**

---

(١٥٠) في ظلال القرآن ٤/٢٤٢٧ ـ بتصرف.

متى يتم النصر

* العلامة الأولى - استنفاذ كل الطاقة المدخرة
* العلامة الثانية - بروز القلوب المجردة
* العلامة الثالثة - الثبات عند المحنة المزلزلة

إن ساعة النصر غيب لايعلمه أحد، ولكننا نستدل على قربها كبشر ببعض العلامات، كما نستدل على قرب القيامة بعلاماتها الصغرى والكبرى، وبعض هذه العلامات نشارك نحن كبشر بصنعها مثل بذل الأسباب التي أمرنا الله ببذلها ليتحقق النصر، فإن تحققت هذه الأسباب بأرض الواقع كانت علامة من علامات قرب ساعة النصر، ولكن هناك علامات خارجة عن طاقة البشر، وأن الذي يصنعها ويهيء لها هو الله وحده كلما يرى في الساحة من يستحق النصر ويقدر على مواصلة الدرب والثبات على حمل الراية. ومن خلال آيات القرآن الكريم يتبين لنا أن هناك ثلاثة علامات إذا تحققت نستطيع أن نستدل بها على ساعة النصر.

العلامة الأولى - إستنفاذ كل الطاقة المدخرة

يقول تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾[151].

واليأس هو آخر ما يصيب الرسل، بعد أن يبذلوا كل ما في طاقتهم من جهد ولا يجدوا لهذا الجهد نتيجة، بل يجدوا زيادة بالاصرار والعناد والمحاربة لكلمة الحق، وصبر الرسل يختلف تماماً عن غيرهم من البشر، فعندما ينفذ فإن ذلك يدل على شدة وضراوة المحنة التي يعيشها أولئك الرسل، فإذا كان الرسل الذين قد أعدهم الله إعداداً خاصاً للتحمل والصبر ييأسوا فلنا أن نتصور ما كان عليه أتباعهم من الحالة النفسية، من الشدة وشبه

(١٥١) يوسف ١١٠.

الانهيار. وفي تلك اللحظات التي يبلغ فيها الكرب مداه، وتصل فيها حتى نفوس الرسل الصلبة إلى شبه النهاية، ويستنفذ الدعاة كل ما لديهم من طاقة، يأتي النصر لأصحاب الحق. يقول سيد رحمه الله «إنها صورة رهيبة، ترسم مبلغ الشدة والكرب والضيق في حياة الرسل، وهم يواجهون الكفر والعمى والإصرار والجحود. وتمر الأيام وهم يدعون فلا يستجيب لهم إلا قليل، وتكر الأعوام والباطل في قوته وكثرة أهله، والمؤمنون في عدتهم القليلة وقوتهم الضئيلة، إنها ساعات حرجة، والباطل ينتفش ويطغى ويبطش ويغدر.

والرسل ينتظرون الوعد فلا يتحقق لهم في هذه الأرض. فتهجس في خواطرهم الهواجس.. تراهم كُذِبوا؟ ترى نفوسهم كذبتهم في رجاء النصر في هذه الحياة الدنيا؟

في هذه اللحظة التي يستحكم فيها الكرب، ويأخذ فيها الضيق بمخانق الرسل، ولا تبقى ذرة من الطاقة المدخرة.. في هذه اللحظة يجيء النصر كاملاً حاسماً فاصلاً. « جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ».

«تلك سنة الله في الدعوات لا بد من الشدائد، ولا بد من الكروب، حتى لا تبقى بقية من جهد، ولا بقية من طاقة. ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس. يجيء النصر من عند الله، فينجو الذين يستحقون النجاة، ينجون من الهلاك الذي يأخذ المكذبين وينجون من البطش والعسف الذي يسلطه عليهم المتجبرون»[١٥٢].

تلك اللحظات التي يتحقق فيها معنى التوكل بأنصع صوره فيتجرد المؤمنون من الأسباب بعد أن بذلوها، ويتعلقون فقط برب الأسباب، تعلقاً لايجعل في قلوبهم ذرة من الالتفات إلى الأسباب، وهذا ما يؤدي لتكوين العلامة الثانية من علامات تحديد ساعة النصر.

---

(١٥٢) الظلال ٤/٢٠٣٥، ٢٠٣٦.

العلامة الثانية ـ بروز القلوب المتجردة

فما زالت الحركة الاسلامية تعاني من نقص كبير في تواجد مثل هذه القلوب، التي كانت تكثر أيام الرعيل الأول.

تلك القلوب المتجردة التي تقول «ما على هذا اتبعتك» فلا تنظر إلى متاع دنيوي طيلة مسيرتها في طريق الدعوة.

تلك القلوب المتجردة، التي لايهمها على لسان من تكون كلمة الحق ما دامت تقال. تلك القلوب المتجردة، التي لاتنظر إلى المنصب، ولا تتمناه. تلك القلوب المتجردة، التي لايهمها أين تقف في طريق الدعوة في المؤخرة أم في المقدمة ما دامت ثابتة في الطريق تدعو إلى الله.

تلك القلوب المتجردة، التي لا تعرف الراحة ولا الملل والضجر، وتدعو كلما انغمست في أعمال الدعوة «اللهم أشغلنا بالحق ولا تشغلنا بالباطل». تلك القلوب المتجردة التي لا تعرف وقتاً محدداً تعمل فيه للدعوة، وآخر لا تعمل فيه، بل جعلت كل لحظة في حياتها للدعوة، وكانت وقفاً على الدعوة.

تلك القلوب المتجردة ـ التي لا تعمل من أجل فلان وعلان، ولا من أجل جماعة، ولا من أجل عرض من أعراض الدنيا، إنما تعمل لارضاء الله فحسب.

تلك القلوب المتجردة، التي تقدم عندما يحجم الآخرون وتثبت عندما يزل الآخرون، وتصبر عندما يجزع الآخرون، وتحلم عندما يحمق الآخرون، وتغفر عندما يخطيء بحقها الآخرون.

تلك القلوب المتجردة، التي لاتوجد فيها مساحة أو موضع إبرة من حقد على مسلم، تلك القلوب المتجردة التي لا تعرف الثأر لنفسها.

تلك القلوب المتجردة، التي لا تجدللنوم طعماً ألماً على ما يصيب الاسلام والمسلمين.

يقول سيد رحمه الله «لقد كان القرآن ينشيء قلوباً يعدها لحمل الأمانة، وهذه القلوب كان يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد بحيث لا تتطلع - وهي تبذل كل شيء وتحتمل كل شيء - إلى شيء في هذه الأرض، ولا تنظر إلا إلى الآخرة، ولا ترجو إلا رضوان الله، قلوباً مستعدة لقطع رحلة الأرض كلها في نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية حتى الموت. بلا جزاء في هذه الأرض قريب، ولو كان هذا الجزاء هو انتصار الدعوة، وغلبة الإسلام، وظهور المسلمين، بل لو كان هذا الجزاء هو هلاك الظالمين بأخذهم أخذ عزيز مقتدر كما فعل بالمكذبين الأولين! **حتى إذا وجدت هذه القلوب، التي تعلم أن ليس أمامها في رحلة الأرض إلا أن تعطي بلا مقابل - أي مقابل - وأن تنتظر الآخرة وحدها موعداً للفصل بين الحق والباطل. حتى إذا وجدت هذه القلوب، وعلم الله منها صدق نيتها على ما بايعت وعاهدت، أتاها النصر في الأرض، وأئتمنها عليه. لا لنفسها، ولكن لتقوم بأمانة المنهج الالهي وهي أهل لأداء الأمانة منذ كانت لم توعد بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضاه، ولم تتطلع إلى شيء من المغنم في الأرض تعطاه. وقد تجردت لله حقاً يوم كانت لا تعلم لها جزاء إلا رضاه»**[١٥٣].

العلامة الثالثة - الثبات عند المحنة المزلزلة

لقد تكلمنا عن الثبات في موضع آخر، ولكن هذا الثبات الذي نحن بصدده هو ثبات من لون آخر، هو ثبات على محنة مزلزلة تجعل أشد الناس

---

(١٥٣) معالم في الطريق ١٨٣، ١٨٤ فصل - هذا هو الطريق -.

وأصبرهم وأتقاهم، وأشدهم صلة بالله، وهم الرسل وأتباعهم يستبطؤون النصر من شدة هول المحنة ويقولون «متى نصر الله».

حيث يقول تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾[١٥٤].

يقول سيد رحمه الله «وإنها لتجربة عميقة جليلة مرهوبة.. إن هذا السؤال من الرسول والذين آمنوا معه. من الرسول الموصول بالله، والمؤمنين الذين آمنوا بالله. إن سؤالهم: «متى نصر الله؟» ليصور مدى المحنة التي تزلزل مثل هذه القلوب الموصولة. ولن تكون إلا محنة فوق الوصف، تلقى ظلالها على مثل هاتيك القلوب، فتبعث منها ذلك السؤال المكروب: «متى نصر الله؟».

وعندما تثبت القلوب على مثل هذه المحنة المزلزلة.. عندئذ تتم كلمة الله، ويجيء النصر من الله: ﴿ألا إن نصر الله قريب﴾...

إنه مدخر لمن يستحقونه. ولن يستحقه إلا الذين يثبتون حتى النهاية. الذين يثبتون على البأساء والضراء. الذين يصمدون للزلزلة. الذين لايحنون رؤوسهم للعاصفة. الذين يستيقنون أن لا نصر إلا نصر الله، وعندما يشاء الله. وحتى حين تبلغ المحنة ذروتها، فهم يتطلعون فحسب إلى «نصر الله» لا إلى أي حل، ولا إلى أي نصر لا يجيء من عند الله. ولا نصر إلا من عند الله. بهذا يدخل المؤمنون الجنة مستحقين لها، جديرين بها، بعد الجهاد والامتحان، والصبر والثبات، والتجرد لله وحده، والشعور به وحده، وإغفال كل ما سواه، وكل من سواه»[١٥٥].

---

(١٥٤) البقرة ٢١٤.

(١٥٥) الظلال ١/٢١٨، ٢١٩.

هذه هي العلامات التي نستدل بها على قرب النصر، ولا يعني أنها هي العلامات الوحيدة التي تدل على قرب النصر، ولكنها هي البارزة بين العلامات، ولا نستطيع من خلال هذه العلامات أن نحدد وقتاً معيناً للنصر، بل ربما يؤخر الله النصر لحكمة لا نعلمها كبشر، وما علينا إلا أن نقوم بما أمرنا به من العمل ونكل النتائج وتحديد وقت النصر كله لله.

الخاتمة

يقول الدكتور عبدالودود شلبي:

«أذكر أنني ترددت كثيراً جدا على مركز من مراكز إعداد المبشرين في مدريد، وفي فناء المبنى الواسع وضعوا لوحة كبيرة كتبوا عليها «أيها المبشر الشاب: نحن لا نعدك بوظيفة أو عمل أو سكن أو فراش وثير. إننا ننذرك بأنك لن تجد في عملك التبشيري إلا التعب والمرض. كل ما نقدمه إليك هو العلم والخبز وفراش خشن في كوخ فقير. أجرك كله ستجده عند الله إذا أدركك الموت وأنت في طريق المسيح كنت من السعداء»[أ].

هذا ما يقال لمن هم على الباطل، وليس لعملهم مهما كثر إلا النار، ومع هذا فإن مثل هذه الكلمات حركت المئات من المبشرين في أنحاء العالم من حملة شهادات الطب والجراحة والصيدلة وغيرها من التخصصات للذهاب إلى الصحاري القاحلة التي لا توجد فيها إلا الخيام، والمستنقعات المليئة بالنتن والمكروبات، والمكوث هناك السنين الطوال دون راتب، ودون منصب، ولو أراد أحدهم العمل بمؤهله لربح مئات الآلاف من الدولارات، ولكنه ضحى بكل هذا من أجل الباطل الذي يعتقد بصحته.

أيجوز بعد هذا أن يتذرع بعض من لم تسري الدعوة في عروقه مسرى الدم، وهو متكيء على أريكته بالحديث الضعيف «روحوا القلوب ساعة فساعة»[ب] متخذاً من هذا الحديث عذراً له للتخلف عن الركب، وللدنيا التي سكن إليها، ولدنو الهمة التي غرق فيها، ومنتقدا بذلك أصحاب «الحركة

(أ) في محكمة التاريخ ص ٨٠.

(ب) رواه أبو داود في «مراسيله» وضعفه الألباني «ض ج ص ٣١٤٠».

الـدائبـة» الـذين لايلجؤون إلى الـراحة حباً بالراحة، ولكن لكي يجددوا الانطلاق وليواصلوا الحركة الدائبة» متبعين بذلك هدى نبيهم ﷺ عندما شك الصحـابي الجليل حنـظلة بنفسـه أنـه أصيب بالنفاق عندما أحس بتبدل استشعاره الايماني عندما يكون مع أهله وأولاده عنه عندما يكون مع رسول الله ﷺ، فقال له «ياحنظلة! ساعة وساعة» ثلاث مرات(جـ) يقول الشيخ محمد بن علان «ولكن ياحنظلة ساعة» أي لأداء العبودية، (وساعة) للقيام بما يحتاجه الانسـان»(د) وعلى إفتراض أن حديث «روحوا القلوب..» صحيحاً، فإنه لا يعني أبداً ما أراد به المتذرعون، دليلاً على توانيهم وكسلهم ودنو همتهم، وأن تكـون الراحة هي الأصل، والعمل في سبيل الله هو الفرع، ويترك لفضول الأوقات. بل ينبغي أن يتطابق تماماً مع الحديث الصحيح الذي رواه مسلم السابق الذكر «فساعة وساعة» معناها كما يذكر الإمام المناوي «أي أريحوها» بعض الأوقات من مكابدة العبادات بمباح لا عقاب فيه ولا ثواب»(هـ).

وكان الصحابي الجليل أبو ذر يسمى هذا المباح «باطلاً» ويقول بعد أن وجهه الرسول ﷺ، لتركه لهذه الراحة الضرورية لتجدد الطاقة لمواصلة الطريق «إني لأجم فؤادي ببعض الباطل - أي اللهو الجائز - لأنشط للحق»(و).

وكما أن هذه الراحة ضرورية لمواصلة الحركة الدائبة، فإن الثقة بالنصر ضرورة أخرى لاستمرارية هذه الحركة، وبدونها يضعف المسير، ولابد أن تكون اللافتة التي يرفعونها وينظرون إليها دائماً وهم في مسيرتهم قوله تعالى ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾(ز).

فكيف يفتر مشي من يعتقد أن الأقوى معه، وأنه ناصره؟!

(جـ) جزء من الحديث الذي رواه مسلم (٢٧٥٠) كتاب التوبة.
(د) دليل الفالحين ١/٤٠٣.
(هـ) (و) فيض القدير ٤/٤٠.
(ز) سورة المجادلة ٢١.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المصفى من صفات الدعاة

ويشمل: ① الفتن في حياة يوسف
② فطنة البناة في تربية الدعاة.
③ بر المربين.

عبد الحميد البلالي

الجزء الثالث

المبحث الأول

الفتن في حياة يوسف عليه السلام

مقدمة:

سورة يوسف من أبرز السور التي تتجلى فيها الفتن التي تحدث للداعية، بأنواعها وأشكالها، وفيها يتضح اليسر بعد العسر في كل فتنة يصادفها الداعية يوسف في حياته.

كما أن فيها يتضح معنى البلاء على قدر الطاعة، وأحياناً يكون البلاء بسبب الابتعاد ولو قليلاً في أحد معاني العبودية.

كما يتبين من خلال السورة، والفتن التي يمر بها يوسف عليه السلام أن الانفراج بعد الشدة يسبقه ثبات على المنهج، وقد يكون هو الهدية لذلك الثبات، وقد يكون الانفراج في حد ذاته فتنة أخرى يختبر الله بها ثبات عبده في اليسر، فكم من الدعاة من ثبت حين المحنة والشدة، فلما جاء اليسر والانفراج والرخاء حاد عن الجادة، وابتعد عن الصف.

هذه المعاني وكثير غيرها يجدها القارئ من خلال سورة يوسف، فهي سورة تمثل منهج البلاء، ونتيجة هذا البلاء.

الفتنة الأولى: مؤامرة الاغتيال:

كانت المؤامرة من صنع أقرب الناس إليه، وهم إخوته، مما يجعل

لهذا البلاء مذاقاً مرّاً يختلف بطبيعته عن باقي مؤامرات الاغتيال، والتي عادة تكون من أعداء بعيدين النسب، أما أن يكون صاحب المؤامرة هو الأخ الذي خرج معه من صلب واحد، فهذا ما يزيد من قساوة الفتنة، وبخاصة إذا كان سبب القتل سبباً تافهاً كالذي ذكره إخوة يوسف وهم يناقشون أمر اغتياله:

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾﴾ (يوسف).

إذن كان سبب المؤامرة حب أبيهم ليوسف وتفضيله عليهم بادعائهم، ولننظر كيف يكون تفكير من استولى عليه الشيطان حتى أعمى بصيرته عن رؤية البديهيات من الأمور، لقد غاب عن أذهانهم الاحتمالات الأخرى الناتجة عن الجريمة، وتذكروا ـ كما سوَّل لهم الشيطان ـ احتمالاً واحداً، وهو بقاؤهم بعد يوسف ليكونوا هم الخيار الوحيد والأبناء الوحيدين ليعقوب، ليخلو بعد ذلك وجهه لهم، ولم يضعوا في الحسبان احتمال اكتشاف جريمتهم، وحزن يعقوب على يوسف، وشكه فيهم، وخطئهم في التنفيذ، واحتمال بقائه حياً، وإرجاعه لأبيه، وغيرها من الاحتمالات الواردة.

ونلاحظ لطف القدير بيوسف، بأن أنطق أحدهم لتمضي مشيئته بأن يكون اقتراح أحدهم بمثابة الانفراج الأول للفتنة الأولى:

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ (يوسف).

وأخذوا بهذا الاقتراح ومضوا جميعاً بعد حَبك المؤامرة لأبيهم، ليقنعوه بأخذ يوسف للذهاب معهم في رحلتهم، وبالرغم من تردد يعقوب عليه السلام، إلا أنهم أقنعوه بأخذه معهم، ومضوا به ليبدأ يوسف عليه السلام في الجب فتنته الثانية.

الفتنة الثانية: الإلقاء في الجُب:

إن الذي اقترح عدم قتله وإلقائه في الجب لاحتمال أن يلتقطه بعض السيارة، ليس احتمالاً مؤكداً، فقد تتأخر القوافل المارة بذلك الجب، مما يعرض يوسف للموت جوعاً، وهذا الأمر قد يكون مر بذهن يوسف - والله أعلم - ، ومما يزيد في حجم هذه الفتنة رؤية يوسف عليه السلام لإخوانه وهو الغلام الصغير، وهم يمسكونه ويتعاونون جميعاً لإنزاله في الجب، ثم يراهم وهم يغادرون ليتركوه وحيداً في تلك الصحراء ليمكث في ظلام الجب، من غير أنيس ولا جليس من البشر سوىٰ جدران الجب الصماء، وأسفل منه ماء الجب، وكأن ذلك تهييئاً له للسجن الحقيقي الذي يقدر الله أن يدخله في مراحل الفتن المتلاحقة في حياته، ثم يأتي الفرج بعد تلك الشدة وذلك الصبر ليوسف عليه السلام وهو يعاني الوحدة القاتلة في ذلك الجب علىٰ شكل قافلة تمر فتلتقطه من الجب:

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ (يوسف).

لقد أُخرج من الجب ليرىٰ الدنيا مرة ثانية، ويُكتب له أن يمارس حياته من جديد في دنيا الناس، ولكن هذا الخروج كان بداية لفتنة جديدة في حياته.

الفتنة الثالثة: الاستعباد:

يلتقطه هؤلاء السيارة من الجب، فيعجبون بجماله، ويغلب على ظنهم أنه من أسرة عريقة النسب، لذلك أسرعوا في بيعه عبداً بسعر زهيد في مصر:

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (يوسف).

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ.. ﴾ (يوسف: ٢١).

ينتقل يوسف عليه السلام من الحرية التي كان يعيشها مع والديه بعز وتقدير حسده عليه إخوانه، إلى ذل العبودية والاستعباد في قصر عزيز مصر، شأنه شأن العبيد المملوكين يحمل الأثقال لسيده، ويكنس الأوساخ، ويقضي الحاجات الحقيرة، ويؤمر فيطيع، وهذه الفتنة في حد ذاتها تحتاج إلى صبر، ولا يعرف معاناة العبيد إلا من استمع إليهم، أو عاش عيشتهم، وحسب العبد أنه ليس كباقي البشر ولا يعامل معاملة البشر، بل يعامل معاملة أقرب للحيوان منها للبشر في معظم الأحيان.

الفتنة الرابعة: فتنة النساء:

يوسف عليه السلام كان صارخ الجمال، فتن بجماله امرأة العزيز مع فارق السن الكبير بينهما، ولم تستطع أن تكتم عشقها وتعلقها، وهي السيدة وهو العبد، حتى أقدمت بعد أن بلغت شهوتها الذروة إليه وقالت: ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ بعد أن غلّقت الأبواب، وتأكدت من خلو القصر، فقال:

﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) ﴾ (يوسف).

إن المرأة لا تقول هذه الكلمة للرجل حتىٰ تكون قد استعدت لذلك بكل ما أُوتيت من دهاء الجاذبية، وفعلت كل ما من شأنه جذب من تريد إليها.

فقد تكون قد تعرَّت تماماً، أو كشفت الكثير من مفاتنها في أقل التقديرات، أو كشفت ما يثير شهوة الرجل، ووضعت الأصباغ علىٰ وجهها، والعطور علىٰ جسدها.

إن فتنة النساء التي فتن بها يوسف عليه السلام هي من أعظم الفتن التي واجهها في حياته، وحتىٰ نعرف عِظَم هذه الفتنة لابد من أن نعرف ما العوامل التي تدفع الرجال للزنىٰ بالنساء، لاشك في أنها كثيرة، وكثيراً من الأحيان يكون توافر عامل واحد منها كافياً لحدوث الزنىٰ، فكيف إن اجتمعت جميعها في موقف يوسف مع امرأة العزيز؟

إن من أبرز هذه العوامل:

١ ـ **جمال الرجل**: يدعوه إلىٰ التقرب للنساء غروراً بجماله، غير ذلك القبيح الذي يعلم سلفاً أنه غير مرغوب فيه.

٢ ـ **طلب المرأة لذلك**: وهو من أقوىٰ العوامل، ويكون هذا العامل أقوىٰ عندما يكون طلبها لحبها لقضاء الشهوة مع ذلك الرجل وليس للمال أو لأمر آخر، وهو ما حدث ليوسف عليه السلام.

٣ ـ **غربة الرجل**: فالغريب لا يعرفه أحد، مما يسهل القيام بعملية الزنىٰ بعيداً عن رقابة المعارف.

٤ ـ **العبودية**: والعبد رهن لأمر سيده، لا يستطيع ردها، لأن من عمله الطاعة دون تردد، ذلك لأنه لا يملك قرار نفسه.

٥ ـ **الفتوة والشباب**: فيوسف كان شاباً صغيراً، وهذا عامل رئيس في قبوله للزنى بخلاف كبير السن الذي انقطعت شهوته أو كادت أن تنقطع.

٦ ـ **تهيؤ المرأة للزنى**: وهذا يختلف عن طلبها للزنى وهو يعني أنها وضعت وفعلت كل المغريات التي تغري الرجل بالمرأة:

﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ (يوسف: ٢٣).

٧ ـ **إغلاق الأبواب**: وهذا أدعى للأمان لفعل الفاحشة، وبعيداً عن رقابة عمال القصر، أو الأقرباء لهذه المرأة:

﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ ﴾ (يوسف: ٢٣).

٨ ـ **المنصب**: فامرأة العزيز كانت زوجة رئيس الوزراء في عهد الفراعنة، ومنصبها يجعلها قادرة على إخفاء الجريمة حتى وإن انكشف أمرها، وهذا عامل أمانٍ آخر يغري الرجل بالإقدام، وهو ما حدث فعلاً في هذه الفتنة.

٩ ـ **دياثة الزوج**: ومن الآيات يتبين أن العزيز زوجها كان ديوثاً، بدليل قوله تعالى:

﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ (يوسف).

وبعد المحاكمة وظهور الحق بجانب يوسف عليه السلام ما زاد على قوله ليوسف عليه السلام:

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ (يوسف: ٢٩).

ولزوجته:

﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾ (يوسف).

وهذا دافع كبير لاقتراف هذه الفاحشة مادام الشخص المفروض (وهو الزوج) لا يمانع من ذلك.

١٠ ـ **التهديد بالسجن**: وقد يضعف الإنسان ويرضخ لمثل هذا التهديد، وهو أيضاً من العوامل الفاعلة والمؤثرة في الكثير من الناس، وهذه العاشقة قد هددته أمام نساء المجتمع المخملي، بعد أن قطعن أيديهن إكباراً لجماله الفتان، والذي لم يصدقن أنه جمال بشر، بل ملك من الملائكة، هددته بعد ذلك وقالت:

﴿ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) ﴾ (يوسف).

إن الكثير من الجرائم الخطيرة ترتكب إذا استعمل التهديد بالسجن، فكيف إذا كانت الجريمة مما ترغب به النفس وتتهالك عليه، وهو الزنى من امرأة القصر صاحبة السلطة والمنصب.

هذه العوامل جميعها تحققت في هذه الفتنة التي خاضها يوسف عليه السلام، فإذا كان عاملٌ واحدٌ من هذه العوامل يتساقط بسببه الرجال،

فكيف وقد تجمعت جميعها ليوسف، هذا يقرِّب لنا لون وطبيعة الثبات الذي ثبت به يوسف عليه السلام، ويعطينا الزاد للتربية الأصيلة التي تربى عليها، فكانت سبباً من أسباب الثبات، لأنه لا يمكن أن يثبت في مثل هذه المواقف الذين يتركون نفوسهم ترتع حيث شاءت، ثم يتمنون الثبات، كلا لا يثبت إلا من تعب على نفسه وزكّاها، فيثبته الله تعالى في أعظم المحن والبلايا.

وبعد أن نجح يوسف في هذه الفتنة فرّج الله عنه وأخرجه من تلك الأزمة بعيداً عن رائحة القصر التي تفوح بالفساد والانحلال الخلقي، وذلك بعد أن لجأ لله وحده معترفاً بضعفه البشري أمام شلال الفتن المنهمر:

﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾ (يوسف).

أخرجه من تلك الفتنة واستجاب له، ولكن إلى فتنة من لون جديد، إنها فتنة السجن:

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ (يوسف: ٣٣).

الفتنة الخامسة: السجن:

يقول تعالى:

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ (يوسف).

عندما دخل السجن الذي كان له جنة بمقارنته بذلك القصر الموبوء، لم ينس قضيته ورسالته، وقد كان معه فتيان سجينان، وثقا بعلمه الذي أعطاه الله إليه، وطلبا منه أن يفسر لهما ما رأيا في منامهما:

﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ(٣٦)﴾ (يوسف).

استغل يوسف عليه السلام هذه الثقة فيه، واستغل أيضاً إقبالهما عليه وحاجتهما لكي يتعرفا على تلك الرؤى الغريبة، فبدأ يشرح لهما التوحيد بتدرج ذكي قبل أن يبدأ بإجابة مطلبهما.

لقد قضى معظم الوقت يشرح أصول التوحيد، ويرغبهما فيه، أما جواب سؤالهما لم يزد على عبارتين:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١)﴾ (يوسف).

إن أقسى ما يجده المسجون في السجن، هو فصله عما يحدث في الخارج، عن أهله وأبنائه، والأحداث اليومية.

وأقسى من ذلك، عندما يدخل السجن وهو بريء من غير ذنب، ويُهمل هناك دون أن يلتفت أحد بالخارج أن هناك إنساناً يعيش في السجن، وأقسى من ذلك أن السجين لا يملك قرار نفسه بالذهاب والإياب والطعام والبقاء في هذا المكان أو غيره.

الفتنة السادسة: الإطالة في السجن:

إن ذلك السجين الذي يعلم متى يخرج، وفي أي ساعة ينتهي ذلك الحبس لا يعاني مثل ذلك الذي لا يعلم متى تنتهي مدة الحبس، ولا يُقال له متى الخروج، يظل يترقب كل يوم، وكل يوم يمضي يشابه الذي قبله، دون استيقان حتى النهاية، مما يجعله في عذاب نفسي دائم، وبخاصة إذا طالت المدة دون أن يشعر به أحد، وهذا ما حدث ليوسف عليه السلام، فقد قال لأحد السجينين الذي ظن أنه ناجٍ منهما:

﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ﴾ (يوسف: ٤٢).

ولكن الشيطان أنسى ذلك الرجل أن يتذكر يوسف المظلوم عند سيده، مما زاد في نسيانه:

﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (يوسف).

ولم يتذكره أحد إلا بعد أن احتاج الملك إلى من يؤول له رؤياه فتذكر حينها ذلك الرجل صديقه يوسف عليه السلام، وذكر للملك آنذاك، ولكن الأصالة أبت عليه الخروج بهذه الطريقة، ورفض أن يخرج وملصوقة به تهمة الزنى، حتى يعلن رسمياً على الملأ مَنْ المجرم الحقيقي؟، وتعلن براءته، ونصاعة صفحته، إنه يرد على رسول الملك بإباء لم يُؤثِّر عليه ظلام السجن ومشقته وطول المكث فيه:

﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ (يوسف: ٥٠).

فلما سألهن الملك واسترجع تفاصيل الجريمة مع من حضروا

وشاركوا في أحداثها اعترف المجرم بالذنب:

﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ(٥١) ﴾ (يوسف).

عندها فقط رضي أن يخرج عزيزاً بريئاً لا مجرماً يخرج بكرم الملك وحاجته له، ولكنه خرج إلى فتنة قلَّ أن يثبت فيها الرجال وهي:

الفتنة السابعة: فتنة المنصب:

ولاشك في أن فتنة المنصب من أكبر الفتن التي يمكن أن يتعرض لها الدعاة، ويوسف عليه السلام يطلب هنا المنصب لا حباً فيه، إنما يعلم أنه لا يوجد من هو أكفأ منه، والتخلي عن ذلك فيه تخلٍّ عن مسؤولية الداعية التي يجب أن يمارسها في إنقاذ العباد، إذا كان يملك القدرة، أما إذا كان يعلم أن هناك من هو أكفأ منه، فالأولى هنا الزهد في المنصب، لأن حبه في هذا الحال ما هو إلا ضربٌ من حب الدنيا، بل إن القاسم بن عثمان الجوعي عده أصل من الموبقات فقال: «حب الرياسة أصل كل موبقة» (صفوة الصفوة: ٤/ ٢٣٦).

والمتهالكون على المناصب والرئاسة يحرمهم الله لذة الإيمان والخشوع، لأن قلوبهم معلقة بغير الآخرة، وهذا ما أشار إليه أبو جعفر المحولي عندما قال: «حرام على نفس عليها رياسة الناس، أن تذوق حلاوة الآخرة» (صفوة الصفوة: ٢/ ٣٩٠).

ولكن يوسف عليه السلام لم يكن من ذلك الصنف المتهالك على الدنيا، بل إن قلبه معلق بالآخرة، فلم تهزه فتنة المنصب على الاستسلام

لله، والتأدب معه، والاعتراف، بنعمه عليه، فها هو يقول في آخر المطاف بعد أن جمع الله له والديه وإخوته في مصر:

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾ (يوسف).

يقول سيد: «وهكذا يتوارى الجاه والسلطان، وتتوارى فرحة اللقاء واجتماع الأهل ولمة الإخوان، ويبدو المشهد الأخير مشهد عبد فرد يبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه، وأن يلحقه بالصالحين بين يديه، إنه النجاح المطلق في الامتحان الأخير» (في ظلال القرآن: ٤/ ٢٠٣٠).

الخاتمة:

لابد للدعاة من أن يتعلموا الكثير من هذه القصة القرآنية العظيمة:

وأول ما يجب أن يتعلموه: سنة الله في البلاء.

والخطوة الثانية في كل ما يتعرض له المؤمن من بلاء خطوط، وأكثر هذه الخطوط وضوحاً:

- **الخط الأول:** مقدار البلاء يتناسب مع مقدار القرب من الله.
- **الخط الثاني:** يكون البلاء أحياناً بسبب الابتعاد ولو قليلاً في أحد معاني العبودية.
- **الخط الثالث:** أن كل بلاء يصاحبه لطف من الله.
- **الخط الرابع:** أن الانفراج بعد الشدة يسبقه ثبات على المنهج.

فنلاحظ هذه الخطوط في قصة يوسف واضحة جلية، فمقدار البلاء يزداد بالتدريج في كل فتنة ينتقل إليها يوسف عليه السلام، ونلاحظ الخط الثاني عندما اعتمد يوسف عليه السلام على الذي ظن أنه ناجٍ منهما ولم يستعن بالله أولاً، فعاقبه الله بذلك النسيان:

﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (يوسف).

ونلاحظ **الخط الثالث** في جميع الفتن التي مر بها يوسف:

- **ففي الفتنة الأولى** كان اللطف في مؤامرة القتل أن ألقى الله الرحمة في قلب أحد إخوانه ليعدل قرار القتل إلى إلقاء في الجب.

- **وفي الفتنة الثانية** نرى أن اللطف هو عدم موته، وبقائه على قيد الحياة.

- **وفي الفتنة الثالثة** نرى اللطف في حياة الاستعباد، أنه كان في قصر عزيز مصر، وكان الذي اشتراه يعامله معاملة الابن المدلل.

- **وفي الفتنة الرابعة** نرى اللطف أنه رأى برهان ربه عندما استبدت به الفتنة.

- **وفي الفتنة الخامسة** نرى اللطف في أن السجينين اللذان سُجنا معه قد وثقا به، واستطاع أن يروِّح عن نفسه بالدعوة إلى الله.

- **ونرى اللطف في الفتنة السادسة** أنها تصاحب مع كارثة غذائية عظيمة يهرب منها أشد الرجال.

أما **الخط الرابع** فكان جلياً أيضاً ، فكلما ثبت يوسف عليه السلام في فتنة أهداه الله تعالى هدية ذلك الثبات ، وإن المؤمن عندما يعيش هذه السنة ، فإنه لا يستغرب ما يصيبه من بلاء ، وهذا يجعله أكثر ثباتاً ورهناً بما يصاب به من عند مولاه .

* * *

المبحث الثاني

فطنة البناة في تربية الدعاة

البناة هم الذين نذروا أنفسهم لتربية الآخرين، وبخاصة من يجدون فيهم ملامح القدوات، الذين يخلفونهم من بعدهم، والفطنة هي الانتباه لأمور قد تغيب على الآخرين، أو لا يلقون لها بالاً، بينما يتنبه لها ذلك البنَّاء، وبحسه الدعوي والإيماني يدرك خطورة تلك الهفوة أو الصفة على مسيرة ذلك الداعية، فيقوم على تنبيهه منها.

والمربون بشكل عام، والناذرون أنفسهم لتربية الدعاة بشكل خاص، مطالبون بالانتباه لهذه الزلات والهفوات، والتي تبدو صغائر في أعين فاعليها، ولكن لها أثراً كبيراً في مستقبلهم الدعوي، وبناؤهم التربوي، حتى يؤدوا الأمانة التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال، حق الأداء.. ويصنعوا رجالاً من بعدهم قادرون على مواصلة الحمل لهذه الأمانة، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

الغضب منبع الشرور:

الخطأ يتولّد إما من الجهل أو الهوى، والإصرار على فعله بعد العلم به ناتج من الطبيعة الغضبية في الإنسان، والتي يزيدها اشتعالاً فيه عدو الله إبليس، ونفسه التي تسوّل له الإصرار على الخطأ، ولهذا السبب كان النبي

ﷺ دائماً ينبه على اجتناب الغضب، وفي حديث البخاري قال لذلك الرجل الذي جاء يستنصحه، فقطن النبي ﷺ من خلال طريقة سؤاله، وطبيعته بأنه غضوب، فقال له: **«لا تغضب»**[1].

وعندما استقلها الرجل، وحاول أن يأتيه من عدة جهات، ويكرر عليه السؤال ذاته، والرسول ﷺ يكرر عليه الوصية نفسها: (لا تغضب) أدرك بأن الغضب شر تنبع الشرور منه.

وما أروع فطنة الإمام بكر بن عبدالله، عندما قرن علاج نار الغضب بتذكر نار الآخرة، مما جعل إمام التابعين الحسن البصري يعجب به ويقول مادحاً: (لله در بكر بن عبدالله لقد سمعته يأمر بالحلم، ويحث على العفو، ويقول: أيها الناس أطفئوا نار الغضب بذكر نار جهنم، فقد كان أبو الدرداء يقول: أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب)[2].

ذلك أن ثورة الغضب تعميه عن اتباع الحق الأبلج.

الفطنة في مخاطبة الناس:

الناس بطبيعتهم لا يتقبلون بسهولة كلام من لم يتعودوا على سماعه وأخذ العلم منه، ويصعب عليهم سماع النصيحة أو الفتوى من غير علمائهم ووعاظهم الذين تعودوا عليهم، ولابد للبناة من الدعاة أن ينتبهوا لذلك، حتى يكون ذلك الانتباه والفطنة داعياً لتقبل دعوتهم.

وكان الإمام أبو حنيفة ينبه تلامذته بعد أن يخرجهم في جامعته

---

(١) البخاري (١٠ / ٤٣١) في الأدب.

(٢) الحسن البصري: ص ٣٨.

الفقهية لهذا الأمر الذي يخفى على كثير من طلبة العلم والدعاة، وبخاصة المتحمسون منهم، وكان يوسف بن خالد السمتي أحد هؤلاء الطلبة الذين نصحهم ونبههم الإمام أبو حنيفة لذلك قبل رحيلهم من الكوفة مقر الإمام أبو حنيفة إلى البصرة، فقال له: (إذا صرت إلى البصرة فإنك تجيء إلى قوم تقدمت لهم الرئاسة، فلا تعمل بالقعود عند اسطوانة، واتخاذ حلقة، ثم تقول، قال أبو حنيفة، وقال أبو حنيفة، فإنك إن فعلت ذلك لم تلبث حتى تقام) (٣).

ولكن يوسف السمتي نسي تلك النصيحة الغالية، وأعجبته نفسه، وجلس عند اسطوانة، مجالس العلماء، وبدأ يقول: (قال أبو حنيفة: كذا، وكذا)، فغضب الناس ولم يقبلوا أن يستشهد أحد بعالم من غير علمائهم، فأقاموه من المسجد، ولم يذكر أحد أبا حنيفة بعد ذلك، وظل أهل البصرة على هذا الحال، حتى قدم تلميذ آخر من تلامذة أبي حنيفة، ممن استفادوا من تجربة صاحبه يوسف السمتي، وممن فهموا من شيخهم أبو حنيفة تلك النصيحة الغالية، وممن أرضعهم الإمام أبو حنيفة الفطنة في معاملة الآخرين والدخول إلى قلوبهم، وما كان هذا البديل إلا الإمام (زُفر) الذي جعل يجلس عند الشيوخ الذين تقدمت لهم الرئاسة، فيحتج لأقوالهم بما ليس عندهم، فيعجبون من ذلك، ثم يقول: ههنا قول آخر أحسن من هذا! فيذكره، ويحتج له، ولا يعلم أنه قول أبو حنيفة، فإذا حسن في قلوبهم، قال: فإنه قول أبو حنيفة، فيقولون: هو قول حسن لا نبالي من قال به، فلم يزل بهم حتى ردهم إلى قول أبي حنيفة)(٤).

---

(٣) أخبار أبو حنيفة: ص ١٠٤.

(٤) أخبار أبو حنيفة: ص ١٠٤.

إنك لن تستطيع كسب قلوب الآخرين وإقناعهم بآرائك بالعناد والإصرار والمجابهة، بل باللين والحكمة والمسايسة.

مازلتُ أتذكر عندما أرسلتني وزارة الأوقاف لإلقاء خطبة في مسجد كان المصلون فيه يحبون خطيبهم الراتب، الذي تعودوا عليه سنين طويلة، وما إن ارتقيت المنبر، حتى قام الكثير من كبار السن أثناء وقوفي للخطابة محتجين على ذلك، ويريدون خطيبهم، وقام الشباب يناصرونني، ويعارضون كبار السن ممن أرادوا شيخهم، فخشيت من الفتنة، ونزلت من المنبر، وقدمت شيخهم للخطابة، فكان لهذا الفعل أثره العظيم في نفوسهم، وقاموا بعد انتهاء الصلاة يعتذرون إليَّ، وأصبحت علاقتي معهم بعد ذلك حميمة، حتى أن بعض كبار السن ممن قام بالاحتجاج يطلب إليَّ كلما رآني في مسجد أن ألقي خاطرة، حتى توفاه الله، رحمه الله رحمة واسعة.

الفطنة في التحفيز:

جاء في ترجمة إمام أهل مصر في الفقه والحديث الليث بن سعد قول القاضي ابن خلكان:

(وكان يتخذ لأصحابه الفالوذج، ويعمل فيه الدنانير ليحصل كل من أكل كثيراً أكثر من صاحبه) (٥).

وهذا ابتكار في تربية البناة ليحصل من خلاله على الكثير من الأهداف التربوية، منها:

---

(٥) وفيات الأعيان: ٤ / ١٢٧.

١ ـ تحفيزهم على المداومة على الحضور لحلقات العلم، حيث كان معظم طلبة العلم فقراء، وقد غيبهم السعي على الرزق من الالتزام بالحضور.

٢ ـ هو لون من الممازحة بين المربي والمتربي، ليكسر الحواجز في مثل هذه اللعبة، حتى يفتح كل منهم قلبه لشيخه ويكسب حبه.

٣ ـ وفيه لفتة تربوية ليعرف من خلال ذلك أكثرهم جوعاً، أو أكثرهم شرها فيقوم بإصلاحه.

٤ ـ كما أنه كسر للروتين الممل، وإدخال لون من ألوان الراحة المحببة للنفوس، حتى تقوى على مواصلة الطريق الجاد.

والبناة مدعوون لابتكار الكثير من الطرق لتحقيق هذه الأهداف وغيرها مع الدعاة الذين يقومون بتربيتهم.

الفطنة في اكتشاف النبوغ:

ليس الداعية الذي يبني دعاة الغد مجرد ملقن للعلم فحسب، بل من واجبه وأساسيات عمله، اكتشاف الطاقات، واكتشاف المهارات فيمن يربيهم ليعينهم في تنميتها، والتخصص في المجال الذي يستطيعون العطاء المؤثر فيه، وهي فطنة قل من يوفق لها من البناة، ولكن الإمام الحافظ علم الدين البرزاني كان أحد هؤلاء الأعلام من المربين لجيل الدعاة، والذي يفتخر به تلميذه الإمام شمس الدين الذهبي الذي ملأت سمعته الدنيا لوفرة علمه، فيقول عنه، ذاكراً فضله في اكتشاف موهبته: (هو الذي حبب إليَّ

طلب الحديث، قال لي: خطك يشبه خط المحدثين، فأثر قوله فيَّ، وسمعت وتخرجت به أشياء)[٦].

هذا الثناء في ناحية لا ينتبه لها الكثير، سبب ولادة عالم من أكبر علماء الإسلام.. إنها الفطنة التي نحتاجها في دعاة اليوم لاكتشاف مواهب وطاقات من يقومون بتربيتهم والثناء على كل خير يلمحونه فيهم، وإن كان صغيراً.

الفطنة في تدارك الساقطين:

كم يسقط من الدعاة في طريق الدعوة؟

ولكن كم عدد من حاولنا انتشالهم للجادة تارة أخرى؟

إنها طبيعة المخالفين، هذا هو السبب الرئيس في تجنب الساقطين وعدم المحاولة معهم للرجوع للطريق، في غالب الأحيان، إما يأساً من عودته، أو خوفاً على إحداث فتنة في الصفوف، أو خشية من التأثير السلبي عليهم بضعفه، أو زلته.

يروي المغيرة - وهو أحد أتباع التابعي الجليل الإمام إبراهيم النخعي - عن فطنة شيخه إبراهيم فيقول: (كان رجل على حالٍ حسنة، فأحدث حدثاً أو أذنب ذنباً، فرفضه أصحابه، ونبذوه، فبلغ إبراهيم، فقال: مه تداركوه، وعظوه، ولا تدعوه)[٧].

---

(٦) فوات الوفيات ٣/ ١٩٨.

(٧) صفة الصفوة: ٣/ ٨٩.

نعم . . إن من الواجب علينا، وما يمليه حق الأخوَّة أن نقوم بالمحاولة إعذاراً لله تعالى، وألا نعين الشيطان عليه، بل الواجب على دعاة اليوم، وبخاصة من يقومون على تربية الآخرين في البحث عن الأسباب الحقيقية وراء ذلك الخلاف، أو المعصية، فلعل في حل السبب رجوع لذلك الأخ إلى الخير وأصحابه.

الفطنة في موعظة الآخرين:

يتساءل البعض عن سر تأثيره على فئة من الناس في ساعة دون أخرى للموعظة نفسها؟

أو سبب تأثير داعية من الدعاة في الناس، بينما لا ينقص الآخرون علمه، ولا فنه في الخطابة، ومع ذلك ليس لهم ذلك التأثير؟

وقد تتعدد أسباب التأثير في الآخرين، إلا أن من أبرز هذه الأسباب، هو اختيار الوقت المناسب للموعظة، والكلمة المناسبة، فالناس ليسوا سواء في قربهم أو ابتعادهم عن الله، ولا هم سواء في خوفهم أو أمنهم من الله تعالى، وبالتالي فليس من الفطنة استخدام قوالب من المواعظ جاهزة للجميع، بل لابد من أن يفقه البناة بأن لكل مقام مقال، ولكل شخص أو فئة مقال أيضاً، وعندما يصل البناة إلى هذه الفطنة في الموعظة تكون حينئذ مواعظهم مؤثرة، لها القدرة على بناء دعاة المستقبل. . هذا هو الاعتدال الذي يذكره الإمام ابن الجوزي في صيده، حيث يقول:

(اعلم أن أصلح الأمور الاعتدال في كل شيء، وإذا رأينا أرباب الدنيا قد غلبت آمالهم، وفسدت في الخير أعمالهم، أمرناهم بذكر الموت

والقبور والآخرة، فأما إذا كان العالم لا يغيب عن ذكره الموت، وأحاديث الآخرة، تقرأ عليه، وتجري على لسانه، فتذكاره الموت زيادة على ذلك لا تفيد إلا انقطاعه بمرة، بل ينبغي لهذا العالم الشديد الخوف من الله تعالى، الكثير الذكر للآخرة، أن يُشاغل نفسه عن ذكر الموت ليمتد نفس أمله قليلاً، فيصنف ويعمل أعمال الخير، ويقدر على طلب ولد، فأما إذا لهج بذكر الموت كانت مفسدته عليه أكثر من مصلحته، ألم تسمع أن النبي ﷺ سابق عائشة ـ رضي الله عنها ـ فسبقته، وسابقها فسبقها، وكان يمزح ويشاغل نفسه)[٨].

وكان العرب يقولون : (لا تكن يابساً فتُكسر، ولا ليناً فتُعصَر)، وهم يريدون بذلك الاعتدال في الأمور، فلنرخي أحياناً ونشد أحياناً أخرى حتى يستقيم البناء ويشمخ، ولا يؤثر فيه بعد ذلك زوابع الفتن!

فطنة التربية بالأحداث :

ما الحياة الدنيا إلا سلسلة متواصلة من الأحداث والمواقف، والبَنَّاء الفطن هو من يستغل الحدث في تربية الدعاة، ولاشك في أن التربية بالحدث أشد أثراً من التربية الاعتيادية عن طريق الإلقاء والاستماع من غير حدث، ذلك لأن الكلمة حينئذ تقترن بالصورة، فتكون أكثر تغلغلاً في النفس البشرية.

يقول الأستاذ محمد قطب : (الحياة الدنيا كد وكدح ونصب.. وتفاعل دائم مع الأحداث، ومادام الناس أحياء فهم عرضة على الدوام للأحداث.. تقع بسبب تصرفاتهم الخاصة، أو لأسباب خارجة عن

---

(٨) صيد الخاطر : ١٥١ .

تقديرهم، وخارجة عن إرادتهم، والمربي البارع لا يترك الأحداث تذهب سدىً بغير عبرة، وبغير توجيه، وإنما يستغلها لتربية النفوس وصقلها وتهذيبها، فلا يكون أثرها موقوتاً لا يلبث أن يضيع، والمثل يقول اضرب والحديد ساخن، لأن الضرب حينئذ يسهل الطرق والتشكيل، أما إذا تركته يبرد فهيهات أن تشكل منه شيئاً ولو بذلت أكبر الجهود) (٩).

فتعليق وجيز من هنا، ومثل من هنا، وقصة مؤيدة للحدث هنا، وتدليل بآية أو حديث، مع شرح موجز من هناك يثبت المعنى، ويغرس القيمة التي تريد بصمغ تربوي من الصعب إزالته، والقرآن الكريم يعلمنا هذا الفن من الفطنة في تربية النفوس بالحدث في الكثير من المواضع.

فبعد معركة أُحد، وما حدث فيها من هزيمة للمسلمين بسبب مخالفتهم لأمر رسول الله ﷺ، وبعد تساؤل الصحابة (أنَّى هذا) يتنزل القرآن، وجراحهم لم تندمل بعد فيقول:

﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) ﴾.

(آل عمران).

وكذلك نزل القرآن مربياً للصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بما حدث يوم حنين بعد الهزيمة في بداية المعركة بسبب عجبهم بكثرتهم، ونسيانهم أن النصر يأتي من عند الله تعالى بعد بذل الأسباب، ولا علاقة له بكثرة أو قلة، فيقول تعالى:

---

(٩) منهج التربية الإسلامية: ٢٥٥ و ٢٥٦.

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ﴾ .

(التوبة).

وهكذا في الكثير من الأحداث التي وقعت للنبي ﷺ أو وقعت للصحابة منفردين، أو وقعت لهم جميعاً، نجد القرآن حاضراً في تربيتهم بتلك الأحداث.

ليس هذا فحسب، بل إن المربي الفطن يستغل حتى الأحداث الكونية فيربي الدعاة من خلالها، ولا يتركها تمضي من غير استفادة تربوية يزيد فيها لبنة في بناء الرجال.

لقد تعلم عبد الله بن الزبير منهجية التربية من خلال الأحداث الكونية من الرسول ﷺ، فلقد رآه وهو غلام صغير يستغل ذلك في الكثير من هذه الأحداث.. لقد كان الرسول ﷺ يستغل طلوع البدر باستدارته الجميلة، فيقول للصحابة وهم ملتفون حوله: « **هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحاب...**»(١٠).

وتتلبد السماء بالغيوم السوداء فيرى أثر ذلك على وجهه، لخوفه من إنزال العقاب، فتربي تعابير وجهه ﷺ الصحابة الكرام.. وهكذا كان في باقي الأحداث.. لقد تأثر الغلام الفطن عبدالله بن الزبير لهذا المنهج، حتى أصبح هذا المنهج التربوي له سجية.

يروي عنه ابنه عامر بأن أباه (كان إذا سمع الرعد لهى عن حديثه،

---

(١٠) رواه مسلم (٢٩٦٨) في أول الزهد.

ثم قال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ثم يقول: إن هذا وعيد لأهل الأرض شديد)[11].

فطنة التربية على العمل:

إنهم يركزون على اقتران العلم بالعمل، لأنهم يؤمنون أن العلم بلا عمل كالجسد من غير روح، فماذا تجدي التماثيل التي تشبه المقاتلين مع كامل أسلحتهم، ولكن من غير قتال.

يتعلمون ذلك من كتاب الله تعالى، وسنة نبيه ﷺ، فلم تأتِ آية في كتاب الله يذكر الله فيها الإيمان من غير عمل.

فالعمل جزء لا يتجزأ من الإيمان، فلا إيمان من غير عمل، ولا عمل من غير إيمان، ولهذا جاءت عقيدة السلف الصالح في تعريفهم للإيمان بأنه (اعتقاد بالجنان، ونطق باللسان، وعمل بالأركان).

يروي الإمام أحمد في كتاب الزهد بأن (رجلاً شاباً كان سأل أم الدرداء ـ رضي الله عنها ـ قال فأكثر، فقالت له: أتعمل بكل ما تسأل عنه؟ فقال: لا، فقالت: فما ازديادك من حجة الله عليك)[12].

لا يعني هذا أننا ندعو إلى عدم السؤال عما لا يُعلم من الأمور، ولكن هناك فرقاً بين سائل يبحث عن إجابة ليعمل بها، بعد أن تكتمل الصورة الناقصة لديه، وبين آخر لا يدفعه إلا الترف الفكري، ليباهي به العلماء، ويقارع به الأقران، أو يُشار إليه بالبنان.

---

(١١) الزهد لأحمد: ٢٠١.

(١٢) الزهد: ١٧٦.

ولقد أحست أم الدرداء بفطنتها للدافع من وراء هذه الأسئلة المتوالية، ومن خبرتها التربوية، فقالت ما قالت.

فطنة التربية على الإخلاص:

الإخلاص أحد ركني قبول العمل، فالعبرة ليست بكثرة العمل، ولكن بنوعية العمل، الذي لا يقبل إلا أن يكون صحيحاً على السنة، وخالصاً لوجهه وحده سبحانه وتعالى، وقد ذكر الله تعالى هذين الشرطين في آية واحدة في ختام سورة الكهف حيث قال:

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾.

وجاءت الكثير من الأحاديث النبوية تحذر المؤمنين من الرياء بالعمل، وتحثهم على الإخلاص فيه، منها ذلك الرجل الذي يأتي بأعمال كجبال تهامة ثم ينسفها الله تعالى ويجعلها كالهباء المنثور، بسبب ريائه بتلك الأعمال.

لقد كانت تلك الآيات والأحاديث تخيف الصحابة الكرام ومن بعدهم، ويرتجفون عند سماعهم لها، وعلى سبيل المثال قوله تعالى:

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾.

(الفرقان).

وكانوا ذوي حساسية عالية في هذا الأمر، ويفطنون لكل عمل قد يشوبه الرياء، أو قد يؤدي بصاحبه إلى الرياء.

لقد رأىٰ الفاروق رجلاً مطأطأ في الصلاة، فلما سأل عنه قالوا: إنه يتخشع، فقال: (يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك، إنما الخشوع في القلوب)(١٣).

(ومر أبو أسامة برجل ساجد قد أطال السجود، وهو يبكي، فضربه برجله، وقال: يا لها من سجدة لو كانت في بيتك) (١٤).

ولهذا السبب كانوا ينكرون أشد الإنكار علىٰ البكائين في المساجد، وإذا فاجأهم أحد وهم يبكون في بيوتهم خشية من الله، تصانعوا بأنهم يعانون من الزكام، إخفاءً لأعمالهم، وخوفاً من عدم القبول.

ومن أبرز معاني الإخلاص توحيد التوجه والعبادة لله وحده دون إشراك أحد معه، وتعظيمه وحده دون تعظيم أحد سواه.

والمربي الذي يبني الدعاة يفطن لهذه المعاني التي قد تخفىٰ علىٰ بعض الدعاة أثناء حماستهم وحبهم لشيخهم. . لقد انتبه الإمام حسن البنا ـ رحمة الله عليه ـ لهذا الأمر أثناء (مؤتمر الطلاب للإخوان المسلمين) الذي انعقد بدار جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة عام ١٩٣٨م، حين وقف البنا يخطب، إذ تحمس أحد الإخوة من الطلاب فهتف بحياة حسن البنا، ومع أنه لم يردد الحاضرون هذا الهتاف، إلا أن الإمام البنا وقف صامتاً لا يتحرك برهة، فاتجهت إليه الأنظار في تطلع، ثم بدأ حديثه في غضب، فقال: (أيها الإخوان. . إن اليوم الذي يهتف في دعوتنا بأشخاص، لن

---

(١٣) مدارج السالكين ١/ ٥٢١.

(١٤) الزهد لأحمد: ص ١٧٦.

يكون ولن يأتي أبداً، إن دعوتنا إسلامية، قامت على عقيدة التوحيد فلن تحيد عنها)[١٥].

ومن دقائق الانتباه والفطنة في تربية الدعاة ما لاحظه على بعض المصلين إمام الشام وفقيهها التابعي القدوة رجاء بن حيوة، الذي اختار عمر بن عبدالعزيز للخلافة عندما استشاره بذلك سليمان بن عبدالملك.. فقد (نظر إلى رجل ينعس بعد الصبح، فقال: انتبه لا يظنون أن ذا عن سهر)[١٦].

إنه يعلمه الإخلاص في العمل، حيث إن من أبرز صفات الإخلاص إخفاء النوافل والقربات، وأن أي تصرف فيه نوع من الإعلان عن هذه النوافل، قد يخرجها من دائرة الإخلاص.. إنها لفتة دقيقة، ولكنها تنم عن متابعة وفطنة لذلك التابعي الجليل في تربية الدعاة على هذا الأمر.

فطنة التربية على المواجهة:

إن من أهم الأدوات التي يحتاجها الداعية في حياته في طريق الدعوة، الجرأة في مواجهة الناس، لأنه من غير هذه الأداة لا يمكن له تبليغ دعوة الله للناس، وإن من أهم واجبات البناة أن يربوا الدعاة على الجرأة وترك الخجل عند مواجهة الناس، وإن من العار على الدعاة أن يروا أهل الباطل يجرؤون في نشر باطلهم، بينما هم معهم الحق ويخجلون من نشره.

---

(١٥) حسن البنا مواقف في الدعوة والتربية: ص ٨١، ٨٢.

(١٦) سير أعلام النبلاء: ٤/ ٥٦٠.

لقد رأى إمام التابعين الحسن البصري أحد أبناء التابعين فقال له: (حدثنا يا غلام، فقال الغلام: إنا لم نبلغ هذا يا أبا سعيد، فقال الحسن: وأينا بلغ هذا، ودَّ الشيطان لو تمكن من هذه[١٧]، والله لولا ما أعقد الله على العلماء لم ننطق)[١٨].

لقد فطن الإمام البصري بسبب امتناع الغلام عن التحدث، فأرشده إلى هذا المدخل الشيطاني الكبير على الدعاة، حينما يقنعهم بأنهم ليسوا أهلاً للحديث، وبين له وجوب التبليغ، ولولا ذلك لكان أحب إلى البناة عدم النطق خشية الإعجاب بالنفس، وابتعاداً عن أذى الآخرين عند النصيحة.

فطنة البناة في بناء أنفسهم:

وكما أن هؤلاء البناة ديدنهم في تربية الدعاة، فإنهم لا يغفلون عن أنفسهم، ويطلبون من الله دوماً ألا يكلهم إلى أنفسهم طرفة عين، وما هذه الفطنة في تربية الدعاة إلا عادة استعملوها مع أنفسهم منذ البداية، وفطنوا لقدراتهم وملكاتهم، وإلى كل حرف وكلمة وعبارة كانوا يتلقونها على أيدي من بناهم من البناة.

وهذا الإمام ابن الجوزي يروي لنا قصة فطنته منذ أن كان في بدايات الطريق، عندما كان طالباً عند الإمام الأنماطي، فيقول: (لقيت عبدالوهاب الأنماطي، فكان على قانون السلف، لم يسمع في مجلسه غيبة، ولا كان يطلب أجراً على سماع الحديث، وكنت إذا قرأت عليه أحاديث الرقائق

---

(١٧) أي أن يترك الناس التناصح فيما بينهم بدعوى أنهم ليسوا أهلاً له.

(١٨) الزهد للإمام أحمد: ص ٢٦٨.

بكى واتصل بكاؤه، فكنت وأنا صغير السن حينئذ يعمل بكاؤه في قلبي، ويبني قواعد)[١٩].

إنها تلك القواعد الإيمانية والدعوية التي كانت تُبنى في نفسه بسبب فطنته في تربيتها، بينما يستمع لمثل هذا الكثير، ولكنها لم تُبن قواعد في نفوسهم تخرج لنا أمثال ابن الجوزي، ذلك لأن فطنتهم لم تكن مُنْصبَّة لبناء الآخرة كما كانت لبناء الدنيا وزخارفها.

الفطنة في الإسراع:

إنهم يركزون في تربيتهم للدعاة على أهمية الوقت، فالوقت كما تقول العرب: (كالسيف إن لم تقطعه قطعك)، وقطع الوقت هو إدارته، ومعنى إدارته استغلاله الاستغلال الأمثل، حيث إن الوقت لا يمكن التحكم فيه، لأنه يمضي ولا ينتظر أحداً كائناً من كان.

يقول الإمام ابن الجوزي: (الأيام صحائف الأعمال، فخلدوها أحسن الأعمال، الفرص تمر مر السحاب، والتواني من أخلاق الخوالف، من استوطأ مركب العجز عثر به، تزوج التواني الكسل فولد بينهما الخسرات)[٢٠].

وصاح الإمام البنا من بعده بأتباعه: (الوقت هو الحياة)، كل ذلك لتربيتهم على الإسراع، فلا وقت لمن أدرك أهميته، وتشرَّب حديث النبي ﷺ عندما قال: **«من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»**[٢١].

---

(١٩) صيد الخاطر: ١٤٠، ط. دار الفكر.

(٢٠) المدهش: ٢٨٢.

(٢١) رواه أبو نعيم في الحلية (ص. ج. ص ٦٢٢٢).

يقول الإمام المناوي : (معناه، من خاف ألزمه الخوف السلوك إلى الآخرة، والمبادرة بالعمل الصالح خوف القواطع والعوائق)(٢٢) .

لقد فطن الأستاذ مصطفى السباعي لصرخة الإمام البنا، ووجد صداها في نفسه، وسرت طبيعة الإسراع للآخرة في عروقه، فما كان يطيق البطيء الذي كان يعاتبه بقوله: (كيف يمكن أن نصطحب في الطريق، إذا كنتُ أطير برقاً وتسير سلحفاة، فإما أن أسبقك وإما أن تؤخرني، وكيف يمكن أن نعيش معاً وحرارتي كالنار، وبرودتك كالثلج، فإما أن أحرقك، وإما أن تجمدني)(٢٣) .

إنها طبيعة الإسراع التي تأنف المعايشة مع طبيعة الإبطاء، وإنها فطنة البناة في تربية الدعاة على هذه الطبيعة الرجولية، حيث قال تعالى:

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ ﴾ (يس: ٢٠).

الفطنة في الإنكار:

إنهم يتعلمون من القرآن الكريم فنون الفطنة في إنكار المنكر ، والذي يعطي نماذج كثيرة من خلال سوره وآياته، وذلك بتبشيع صورة المنكر، منها على سبيل المثال قوله تعالى في الذين يغتابون الناس:

﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ .

(الحجرات: ١٢).

---

(٢٢) فيض القدير : ٦/ ١٢٣ .

(٢٣) هكذا علمتني الحياة : ١٤٤ .

ومن فطنة النبي ﷺ في إنكاره للمنكر أنه لم يكن يتعرض لصاحب المنكر مباشرة، بل يستغل الظرف الزماني والمكاني، فيقول: (ما بال قوم كذا وكذا..) فيفهم صاحب المنكر أنه هو المقصود.

واغتاب رجل عند معروف الكرخي، فقال: (اذكر القطنْ إذا وضع على عينيك)[٢٤] إشارة إلى الموت.

ومن أجمل صور الفطنة في إنكار المنكر ما يرويه يعلى بن عبيد تلميذ الإمام سفيان الثوري ـ أحد عمالقة البناة ـ عندما التقى بعض من يربيهم من الدعاة وأراد أن ينكر عليهم خوضهم فيما لا ينفع في الحديث فقال لهم: (لو كان معكم من يرفع الحديث إلى السلطان، أكنتم تتكلمون بشيء؟

فقالوا: لا.

قال: فإن معكم من يرفع الحديث)[٢٥].

والفطنة في الإنكار مطلوبة لعدة أسباب منها:

١ ـ قبول النصيحة.

٢ ـ إبعاد صاحب المنكر عن الإحراج.

٣ ـ كلما اقترن الإنكار بالمثل والصورة كان أدعى للردع.

---

(٢٤) سير أعلام النبلاء: ٩/ ٣٤١.

(٢٥) سير أعلام النبلاء: ٧/ ٢٦٨.

الفطنة في كسب القلوب :

إنهم يسلكون كل طريق مشروع لكسب من يقومون ببنائهم من الدعاة، سواءً بالكلمة الطيبة، أو الثناء الحسن، أو التقدير، أو الزيارة، أو المساعدة عند الحاجة، أو الشفاعة الحسنة، وغيرها من وسائل الكسب، وإعطاء الهدايا وسيلة من هذه الوسائل الفعالة في كسب القلوب، لقول النبي ﷺ : **«تهادوا تحابوا»** (٢٦).

وكان الإمام أبو حنيفة أحد هؤلاء البناة الذين يهتمون اهتماماً خاصاً فيمن يدعوهم ويعلمهم حتى يكسب قلوبهم ليس بأخلاقه فحسب، بل بما يقوم به من وسائل تقربهم إليه، ومنها الهدية، حتى أن أبا يوسف ـ أحد هؤلاء الدعاة من طلبة العلم الذين كانوا يتلقون علمهم على يد الإمام ـ يتعجب من ذلك ويكون هذا العطاء سبباً في ثباته مع الإمام عندما حاول أبواه أن يصرفاه عن حلقة أبو حنيفة ليتفرغ إلى كسب الرزق لهما، حتى صار بعد ذلك علماً من أعلام العلم في دولة الرشيد.

وما كان الإمام أبو حنيفة يقتصر في ذلك على أصحابه فحسب، بل حتى على أهل العلم من القرناء أو غيرهم.

وهذا هو الإمام ابن عيينة يروي لنا عن هذه السجية في الإمام أبو حنيفة فيقول: (كان أبو حنيفة كثير الصلاة والصيام، كثير الصدقة، فكان كل مال يستفيده لا يدع منه شيئاً إلا أخرجه، ولقد وجه إليَّ بهدايا استوحشت من كثرتها، فشكوت ذلك إلى بعض أصحابه، فقال لي:

---

(٢٦) مسند أبي يعلى، وحسنه الألباني (ص.ج.ص ٣٠٠٤).

كيف لو رأيت هدايا بعث بها إلى سعيد بن أبي عروبة! وما كان أحداً من المحدثين إلا بره براً واسعاً)[٢٧] .

والكلمة الطيبة، والثناء المستحق من أبرز وسائل كسب القلوب التي من الواجب على المربي الذي يبني الدعاة الانتباه إليها، ولقد نبه العالم المجاهد الشيخ محمد سعيد العرفي عالم دير الزور، ونائبه السابق في مجلس النواب السوري، والذي نفاه الاحتلال الفرنسي، نبه الإمام البنا في زيارة له لهذا الأمر في كسب القلوب فقال له: (يا أخي سمٍّ، فرد عليه الإمام البنا: وما أسمي يا سيد محمد؟ فرد عليه: سمٍّ إخوانك وأصحابك ومنشآتك، قل إنك تشبه أبا بكر، ولهذا إنك تشبه عمر، فإن ذلك يبعث فيه الحمية، ويدفعهم إلى القدوة الحسنة، والأسوة الصالحة)[٢٨] .

فكما أن للهدية تأثير السحر في كسب القلوب، فإن الكلمة الطيبة والثناء الحق، والتشجيع المناسب لا تقل في تأثيرها عن الهدية في نفوس من تربيهم، بالرغم من أنها لا تكلف المربي شيئاً سوى فطنته لاختيار الوقت المناسب في استخدامها.

لون آخر من الكسب:

لا يمكن للمتربي أن يتلقى ممن يربيه، ويتأثر به حتى يحبه، ولذلك جعلها بعض البناة قاعدة ماضية في الدعوة (كسب القلوب مُقَدَّم على كسب المواقف)[٢٩]، فما فائدة التفوق العلمي دون مصاحبة ذلك بمعاملة

---

(٢٧) أخبار أبو حنيفة: ص ٥٠ .

(٢٨) مذكرات الدعوة والداعية: ص ٩٤ .

(٢٩) عبد البديع صقر ـ كتاب (كيف ندعو الناس؟) .

طيبة، وفطنة كسب قلوب من نقوم بتربيتهم، تكسر الجمود والرتابة، وتضفي جواً من المرح والبهجة، وتجديد النشاط، ليقوىٰ علىٰ ما هو أشد من أمور الدعوة.

يعلمنا الإمام الشافعي هذا اللون من الفطنة من خلال تلميذه الربيع ابن سليمان المرادي والذي كان يحبه ويفضله علىٰ الكثير من أتباعه، فقد دخل علىٰ الإمام الشافعي يوماً وهو مريض فقال له: (قوىٰ الله ضعفك)[٣٠]، فلم يفوّتها الإمام الشافعي له، وأراد استغلالها ليمازحه بالرغم مما هو فيه من المرض، فرد عليه: (لو قوىٰ ضعفي قتلني)[٣١]، فقال له الربيع: (والله ما أردتُ إلا الخير)، فرد عليه الإمام الشافعي ممازحاً، ومؤكداً محبته له، وثقته فيه: (أعلم أنك لو شتمتني لم ترد إلا الخير)[٣٢].

يغيب عن الكثير من البناة هذا اللون من الفطنة، إما استخفافاً به وبأهميته في البناء، وإما بسبب كثرة انشغالات التكاليف الدعوية، أو أن بعضهم يظن أن ذلك ليس سوىٰ من السمت الحسن والجدية التي يجب علىٰ المربي التخلق بها.

ولا أظن أن هناك من هو أتقىٰ من النبي ﷺ، ولا أكثر جدية منه، ومع ذلك فهو يذكرنا بأهمية هذا الأمر في تربية النفوس فيقول: «**إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً**»[٣٣]، علىٰ ألا يكون هذا الأمر هو السمت العام للمربي لئلا تنكسر هيبته، ويتجرأ عليه، وخير الأمور الوسط.

(٣٠ و٣١ و٣٢) طبقات الشافعية: ١/ ٢٦١.

(٣٣) رواه الطبراني وصححه الألباني (ص. ج. ص ٢٤٩٤).

الفطنة في متابعة المدعو :

لم يكن ثبات أبو يوسف مع أبي حنيفة بسبب المال الذي كان ينفقه عليه فحسب، بل كان بسبب المتابعة لجميع أحواله متابعة دقيقة دون أن يصرح له أبويوسف بشيء، ولكنها الفطنة التي تحلى بها الإمام أبو حنيفة في تربيته لأتباعه.

يحدثنا أبو يوسف عن هذه المتابعة والاهتمام من شيخه بعد أن صار علماً يقتدى به، فيقول: (كنتُ أطلب الحديث والفقه وأنا مقل، رث الحال، فجاء أبي يوماً وأنا عند أبي حنيفة، فانصرفت معه فقال: يا بني، لا تمدن رجلك مع أبي حنيفة، فإن أبا حنيفة خبزه مشوي، وأنت تحتاج إلى المعاش، فقصرت عن كثير من الطلب، وآثرت طاعة أبي، فتفقدني أبو حنيفة، وسأل عني، فجعلت أتعاهد مجلسه، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخري عنه قال لي: ما شغلك عنا؟ قلت: الشغل بالمعاش، وطاعة والدي، وجلست، فلما أردت الانصراف أومأ إليَّ، فجلست، فلما انصرف الناس دفع إليَّ صرة، وقال: استمتع بهذه، فنظرت فإذا فيها مائة درهم، فقال لي: الزم الحلقة، وإذا نفدت هذه فأعلمني! فلزمت الحلقة، فلما مضت مدة يسيرة دفع إليَّ مائة أخرى، ثم كان يتعاهدني، وما أعلمته بخلة قط، ولا أخبرته بنفاد شيء، وكان كأنه يخبر بنفادها، حتى استغنيت وتمولت)(٣٤).

وواضح من حديث أبو يوسف، أن تأثره لم يكن فقط بالمال الذي كان يغدقه عليه، بمقدار تأثره بالمعاهدة والمتابعة وأحواله حتى جعله

---

(٣٤) أخبار أبو حنيفة : ص ٩٢ .

يقول: (وما أعلمته بخلة قط، ولا أخبرته بنفاد شيء، وكان كأنه يُخبر بنفادها).

فالمربي الناجح لا ينتظر أن يخبره من يربيه بأحواله، بل إن فطنته تدعوه للشعور بأحوال من يربيهم، فيبادر لمساعدتهم ما أمكنه ذلك، وحتى لو لم ينجح في مساعدتهم فيكفي المتربي شعوره باهتمام مربيه، ليكون ذلك سبباً من أسباب ثباته على الحق.

يقول الأستاذ محمد قطب: (ينبغي أن يكون عند المربي المقدرة على الاهتمام بالآخرين، والاهتمام بأن يعطيهم ما عنده من الخير، وأما المتلقي فلا يمكن أن ينشرح صدره للتلقي من شخص يحس في أعماقه أنه لا يهتم به)(٣٥).

الفطنة في مراعاة المستوى الفكري:

الدعاة الذين يربونهم البناة كثيرون، ولأنهم بشر فإنهم يتفاوتون في الفهم والاستيعاب، وخلفياتهم الثقافية والاجتماعية، وبالتالي يصبح من الصعب تحديثهم، والتعامل معهم في التربية بأسلوب واحد، وبحديث واحد.

وهنا تبرز فطنة البناة في تربية الدعاة، وذلك باختيار الكلمة المناسبة للرجل المناسب، والأسلوب المناسب للرجل المناسب، وألا يخلط الحابل بالنابل، فلايخرج بنتيجة البتة.

---

(٣٥) منهج التربية الإسلامية: ٢/ ٤٩.

يقول الصحابي الجليل ابن مسعود : (ما حدثتُ قوماً حديثاً قط لم تبلغه عقولهم، إلا كان فتنة على بعضهم)[٣٦] .

وليس كل ما يُعلم يُقال، فإن ذلك من الرعونة، والحمق، فربما ترتب على ذلك فتنة كبيرة، وضياع للأوقات، ووضع الأمور في غير مواضعها، بالإضافة أن ذلك يعني التخبط في تربية الدعاة دونما تركيز تربوي، وبناء متأني.

يقول خالد بن يزيد بن المختار : (نكر الحديث الكذب فيه، وآفته النسيان، وإضاعته أن تُحدِّث به من ليس أهله)[٣٧] .

الفطنة في علاج العجب :

يحدث كثيراً بأن أحد الأفراد الذين يربيهم المربي متميزاً عن باقي الأفراد، سواءً للمستوى الاجتماعي أو الشهادة العلمية، أو مستوى العلم الشرعي أو الثقافي، وقد يظهر ذلك من خلال حديثه أو معاملته لأقرانه، أو مع شيخه، أو مع من هم خارج إطار الأقران. . على صورة الثناء على النفس، أو احتقار آراء الآخرين والتهوين من شأنها.

ولابد للمربي في مثل هذه الحالات من أن يكون فطناً في تربيته لمثل هذا الإنسان، وأن يرشده برفق عن هذا الداء العضال، منفرداً به وحده، حتى يكون أدعى للقبول.

وقد يستفحل هذا الأمر، وتتأصل هذه الصفة، فلا ينفع العلاج

---

(٣٦) جامع بيان العلم : ١/ ١٦٣ .

(٣٧) جامع بيان العلم : ١/ ١٣١ .

الانفـرادي لـها، ويضـطر المربي أن يكون العلاج علنياً، وإن كـان مخالفاً للأصـل، وهـو الانفراد.

ومما يرويه صاحب العقد في هذا الشأن أن (مقاتل بن سليمان قال وقد دخلته أبهة العلم: سلوني عما تحت العرش إلى أسفل الثرى، فقام إليه رجل من القوم فقال: ما نسألك عما تحت العرش ولا أسفل الثرى، ولكن نسألك عما كان في الأرض، وذكره الله في كتابه، أخبرني عن كلب أهل الكهف ما كان لونه؟ فأفحمه)(٣٨).

الفطنة في صبر البناة على الدعاة:

إن من حكمة الله العجيبة أن جعل الناس مختلفين في كل شيء، فلا تجد اثنان متطابقين في كل شيء، وهذا من عظيم خلقه وقدرته، وإن من بين الاختلاف اختلاف قدراتهم على الاستيعاب، فتجد من الناس من يستوعب ما يُقال للمرة الأولى، ومنهم من يحتاج إلى بعض الشرح، ومنهم إلى مزيد من الشرح، ومنهم إلى الإعادة تارة أخرى، ومنهم إلى الإعادة أكثر من مرة، ومنهم إذا أعدت له مرات ومرات فإنه لايستوعب ما يُقال.

ولكل مربٍ من البناة طاقة يتحمل بها ويصبر على الدعاة الذين يربيهم، وهم كذلك مختلفون فيما بينهم بهذه الطاقة، فمن البناة من يصبر على ضعف الدعاة أو قلة استيعابهم مرة أو مرتين أو ثلاثة، ومنهم أكثر من ذلك، ومنهم أقل.. وكلما صبر البناة على الدعاة وعلى ضعفهم، وقلة

---

(٣٨) العقد الفريد: ٢/ ٢١٨.

استيعابهم، ونقص خبرتهم، واجتهاداتهم الخاطئة، وتصرفاتهم غير الموزونة، كلما كان ذلك علامة على معدن أولئك البناة، وصلابتهم، وفهمهم للدعوة ومرادها.

ومن أبرز هؤلاء البناة أصحاب الجلد على من يربونهم الإمام الشافعي، الذي ضرب أروع الأمثلة في صبره على من يربيه، وفطنته في عدم إشعاره بضعف استيعابه ليصنع منه علماً من الأعلام.

فمما يرويه صاحب طبقات الشافعية أن (الربيع بن سليمان المرادي صاحب الشافعي، كان الشافعي يحبه، وقال له يوماً: يا ربيع لو أمكنني أني أطعمك العلم لأطعمتك، وقال القفال في فتاويه: كان الربيع بطيء الفهم، فكرر الشافعي عليه مسألة واحدة أربعين مرة فلم يفهم، وقام من المجلس حياءً، فدعاه الشافعي في خلوة، وكرر عليه حتى فهم، وكانت الرحلة في كتب الشافعي إليه[٣٩] من الآفاق نحو مائتي رجل، وقد كاشفه الشافعي بذلك حيث يقول له فيما روي عنه: أنت راوية كتبي)[٤٠].

يحتاج البناة في هذا العصر أن يتعلموا من الإمام الشافعي مراعاة الشعور وعدم الإحراج، وهذا النفس الطويل في بناء الرجال.

الفطنة في التخلص من المواقف:

(تقلد الكوفة رجل من قِبَل أبي جعفر المنصور فأراد أذى أبي حنيفة، فقال: والله لأسألنه في مسألة تكون سبباً لقتله! ثم أحضره على رؤوس

---

(٣٩) أي الربيع.

(٤٠) طبقات الشافعية: ١/ ٢٦٠.

الناس فقال: إن أمير المؤمنين يأمرني بضرب الأعناق، وسفك الدماء، وأخذ الأموال، وانتهاك المحارم، أفأطيعه في ذلك أم أعصيه؟

فقال له أبو حنيفة: ما يأمرك به أمير المؤمنين طاعة لله أم معصية؟

قال: لا.. بل طاعة لله.

فقال له أبو حنيفة: أطع أمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ في كل ما كان طاعة لله ولا تعصه)[41].

لم يكتف هذا المربي العريق بهذا الانتصار على الطاغية الذي أراد به شراً، بل أراد بفطنته أن يستفيد تلاميذه ويربيهم بمثل هذا الموقف، وأن تكون لهم صفة التخلص من المواقف المحرجة، فقال لهم بعد أن خرج معهم من الباب: (أراد الرجل أن يرهقنا فأرهقناه، فإذا أتتكم معضلة فاجعلوا جوابها منها)[42].

ذلك أن الداعية بسبب بروزه في المجتمع، ومعارضته للمناكر، وكثرة احتكاكه بطبقات المجتمع، فإنه يتعرض لشريحة من الناس لا همّ لها سوى إحراجه وإثبات ضعفه وكذبه، حسداً منها، وانتصاراً لمناكرها، والداعية الفطن هو الذي يستطيع التخلص من هذه المواقف الحرجة بآداب الإسلام، دون أن يكون فريسة (لاستفزازهم المتكرر)، وأن يُعلِّم الدعاة هذه الفطنة ويغرسها فيهم حتى تكون سلوكاً وجزءاً من شخصياتهم.

(٤١ و ٤٢) أخبار أبي حنيفة: ص ٦١، ٦٢.

الفطنة في التنبيه من الشهرة:

أكبر فتنة يتعرض لها البارزون من الدعاة هي الشهرة، وإقبال الناس عليهم، يستفتونهم، ويستمعون إلى خطبهم ومواعظهم، ويتناقلون أحاديثهم، أو مقالاتهم وكتبهم، فيتجمع الآلاف لاستماع دروسهم ومحاضراتهم، ويستنسخ الآلاف من أشرطة خطبهم، ويعرفهم الجميع في كل مكان يذهبون إليه، ويرى من التقدير ما لا يراه من لم يبتل بمثل هذه الشهرة، وقد يكون مقتل بعض الدعاة البارزين بمثل هذه الفتنة، فيسري في نفسه العجب، ثم يرى في نفسه أنه أفضل من الآخرين، ثم يحقر آراء المخالفين، ثم لا يتقبل نصح الناصحين، لأنه يظن أنه أعلى مرتبة من النصح والتوجيه... وهكذا يدخل الشيطان إلى قلبه ليفسده استغلالاً منه لفتنة الشهرة، وقلّ من ينجو من هذه الفتنة العظيمة التي لا يعرف عِظَمِها إلا من عاش فيها، وأمثال هؤلاء الدعاة يجب أن يفطنوا لذلك، فيربوا أنفسهم تربية تختلف عن الآخرين، لا يتهاونون معها، ويكثرون من تذكر صور التواضع والخمول، والخوف من عدم القبول، وكثرة التذلل لله، وإرجاع الفضل إليه في كل نعمة هو فيها، ولعله ينجو من شرر فتنة الشهرة.

والإمام سفيان الثوري كان من أبرز هؤلاء المشهورين من العلماء المربين، حتى أن بعض طلبة العلم كانوا يأتونه من المشرق والمغرب، بالرغم من صعوبة الملاحقة الأمنية التي كان يتعرض لها من قِبَل السلاطين والأمراء بسبب قوله الحق، ولأنه كان يعيش هذه المشاعر، ويتعرض لمثل هذه الفتنة لشهرته التي ملأت الآفاق بسبب علمه،

ومواقفه الشجاعة في قول الحق، كان يحرص على تنبيه من يربيهم من هذه الفتنة، وينقل عنه أحد أبرز تلامذته، وهو الإمام عبدالله ابن المبارك قوله: (قال لي سفيان الثوري: إياك والشهرة، فما أتيتُ أحداً إلا وقد نهى عن الشهرة)[٤٣].

نسأل الله العظيم أن يكفينا شرها.

فطنة الاهتمام بما هو أهم:

يهتم بعض الدعاة بالسؤال عن توافه الأمور، وينشغلون بالقيل والقال وكثرة السؤال عن افتراضات قد لا تقع، أو أمور من اللغو الذي نهينا عنه شرعاً ولا ينبني عليه عمل، بينما يتركون الأمور الأساسية من العلم، والتي يجب عليهم تعلمها أو هي من المستحبات التي تقربهم من ربهم سبحانه وتعالى. . ولقد اهتم الإمام أحمد بن حنبل في تربية هذا الصنف من الدعاة، وكان يوجههم الوجهة السليمة، وإلى العلم الذي ينفع بدلاً من تضييع أوقاتهم بما لا ينفع، فقد روى عنه أبو جعفر شامط القطيعي ـ أحد تلامذته ـ أنه دخل عليه فقال: (أتوضأ بماء النورة؟[٤٤]، فقال: ما أحب ذلك، فقال له: أتوضأ بماء الباقلاء؟ فقال: ما أحب ذلك، فقال: بماء الورد؟ قال: ما أحب ذلك، قال: فقمت، فتعلق بثوبي، ثم قال: ماذا تقول إذا دخلت المسجد؟ فسكتُ، فقال: وماذا تقول إذا خرجت من المسجد؟ فسكتُ، فقال: اذهب فتعلم هذا)[٤٥].

---

(٤٣) سير أعلام النبلاء: ٧/ ٢٦٠.

(٤٤) مادة للبناء تشبه الجبس.

(٤٥) طبقات الحنابلة: ١/ ٤١.

وهي فطنة لهذا الإمام، أدرك بعد استماعه لمثل هذه الأسئلة أن السائل لا يعلم الأمور الأولية فضلاً عن دقائق الأمور، وهي لفتة تربوية مؤثرة جعلت هذا الطالب لا ينسى مثل هذا الموقف، بل يرويه بكل افتخار عن شيخه الإمام أحمد، حتى لا يقع الآخرون بما وقع فيه.

* * *

المبحث الثالث

بِـرُّ المربـــين

مقدمـة:

جاء في المعجم الوسيط معنى كلمة البر: التوسع في الطاعة (وَبـرَّ فلان ربه: توسع في طاعته، وبَرَّ والديه بِرّاً: توسع في الإحسان إليهما ووصلهما فهو بار)[1] ولأن الوالدين هما أحق الناس بصحبة الإنسان، جاء الأمر ببرهما في الكتاب والسنة، وقرن الله عبادته ببرهما، وجعل رضاه مقترناً برضاهما، ذلك لما لهما من الفضل بعد الله في تربية الأبناء وتنشئتهم، والسهر عليهم، والإنفاق، وغيرها من الأمور التي يعجز عنها من البشر سواهما، ولأن البر هو التوسع في الإحسان لمن قدم معروفاً مميزاً كالوالدين، فإن أحق الناس بالبر بعد الوالدين هم المربون الذين يُعلِّمون الآخرين العلم والأخلاق، وهي مهمة تختلف عن مهمة العلماء، حيث إن العالم يعطي العلم لطالبه، وتنتهي مهمته عند هذا الحد[2]، بينما المربي يأخذ على عاتقه التعليم والتربية والمتابعة بغرس الأخلاق والسلوك الذي أمرنا به الله تعالى ورسوله ﷺ، وكان الناس في العصور الخيرة، وبخاصة الخلفاء والأمراء يستأجرون المربين لتربية أبنائهم بسبب كثرة انشغالاتهم في رعاية الرعية، وتلاشت مثل هذه الصنعة جيلاً بعد جيل،

---

(١) المعجم الوسيط: ١/ ٤٨.

(٢) كثير من العلماء كان يقوم بمهمة المربي كالأئمة الأربعة.

حتىٰ اختفت تماماً في هذا العصر، وأصبحت محصورة في الحركات الإسلامية، ومحاضنها التربوية، فالمربي في الحركة الإسلامية يأخذ علىٰ عاتقه مهمتان (التعليم والتربية).

وقد يأخذ منه هذا الجهد مع الفرد الواحد ما يزيد علىٰ الخمس سنوات، حتىٰ يستلم مجموعة أخرىٰ من الأفراد الذين يبدأ المشوار معهم.. هذا الجهد الكبير في التربية من هؤلاء المربين الربانيين في الماضي والحاضر، يستحق الإحسان والتوسع فيه، ليس من باب المكافأة بقدر ما هي تكملة للعملية التربوية، حيث يكون البر للمربين جزء من تربية الأفراد في الحركة الإسلامية علىٰ مجموعة أخرىٰ من الأخلاق والسلوك، كما أن عملية بر المربين لون من ألوان الوفاء لمن أسدىٰ إلينا معروفاً وأي معروف.. ولقد استعرت كلمة (بر) التي كادت أن تكون خاصة بالوالدين ها هنا لإعطاء هؤلاء المربين الذين يقومون بهذه المهمة العظيمة حقهم فيما يقومون به من جهد كبير، وصناعة رجال تقوم علىٰ أكتافهم مهمات تعجز عنها الجبال، حتىٰ ترىٰ الفرق بين من تربىٰ علىٰ أيدي العلماء والدعاة، وتلقىٰ منهم العلم والأخلاق، وبين من كانوا بعيداً عن التربية.

قال الإمام أبو علي الثقفي: (ومن لم يأخذ أدبه من آمرٍ له وناهٍ يريه عيوب أعماله، ورعونات نفسه لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات) (٣).

السيادة لمن يقتدي:

كثيرون هم الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فقد كانوا في عام الفتح فقط

---

(٣) طبقات الشافعية: ٢/ ١٧٣.

عشرة آلاف صحابي . . ولكن لماذا لم يبرز من هذا العدد الكبير الذي قد تجاوز هذا العدد حين وفاة النبي ﷺ إلا أقل من ألف منهم ؟

إنها سنة الله التي جعلت الناس يختلفون في همهم وهممهم وآلامهم وآمالهم، لذلك كانت حكمة الله البالغة التي جعلت من الجنة درجات، وليست درجة واحدة، وذلك بسبب تفاوت الهمم، فقد كان من الصحابة من لا يفارق النبي ﷺ البتة إلا إذا دخل بيته .

وكان منهم من يصاحبه حتى في خلواته، ويحمل ماءه عندما يقضي حاجته، وعند وضوئه، ومنهم من رآه في عمره مرة أو مرتين وروى حديثاً واحداً عنه، وبين هذا وهذا أصناف كثيرة، فأقرب الصحابة إليه وأكثرهم احتكاكاً به كان الخلفاء الراشدون، لذلك كانوا هم أبرز الناس، وكانوا هم السادة من بعده، لأنهم كانوا أكثر الناس أخذاً من علمه وأخلاقه، وأكثرهم فهماً لهذا الدين . . وكذلك من برز من التابعين وتابع التابعين، بالرغم من أعدادهم التي فاقت أعداد الصحابة، إنما برزوا وسادوا واتخذهم الناس قدوات بسبب احتكاكهم بعلماء الصحابة، ومن تبعهم .

فعلى مقدار الاحتكاك والاتباع من القدوات والمربين العلماء، على مقدار ما تحصل للتابعين من سيادة بين الدعاة، وبروز بين الناس من غير أن يطلبوا هذه السيادة أو ذلك البروز، ولكنها النتيجة الحتمية لذلك الاتباع والتعلق، لذلك كان الإمام الجيلاني يقول لأحد أتباعه من الدعاة : (تعلق بي حتى تعبر)[٤]، وكان ذلك التابع الذي يتربى على يد الشيخ لا يتقن السباحة، ولا يستطيع الاعتماد على نفسه في عبور هذا النهر أو البحر،

---

(٤) الفتح الرباني : ص ٤٠ .

وكأن المربي يحني نفسه له، ويقول له: (تعلق بي حتى تعبر)، فإذا ما وجد في نفسه زهواً، وظن أنه أصبح عالماً قبل الأوان ولم يعد يحتاج لعلم من رباه، فتركه ظاناً أنه يستطيع العبور من دونه قبل أن يتعلم فن العبور فإن مآله للغرق، هذا هو الدرس الأول الذي نتعلمه من الإمام القدوة الجيلاني، فلا سيادة إلا لمن يقتدي، وأول البر بالمربين هو الاقتداء والاتباع بما صح نقله عن القدوة الأول نبينا ﷺ.

لا تكن كالشاة:

لم يسطع نجم لعالم من علماء الدنيا، سواءً في الدين أو في علوم الدنيا، إلا كان من أبرز صفاته التفاعل مع ما يقرأ أو يسمع من العلم الذي برز فيه، هكذا كان الخالدون من الصحابة الكرام - رضي الله عنهم -، ما إن يسمعوا الكلمة من النبي ﷺ حتى يتفاعلوا معها بأحاسيسهم، ثم يتحول ذلك الإحساس إلى عمل وسلوك وترجمة واقعية لما سمعوه، فكم من الكلمات والسلوك يقوله ويفعله المربون الدعاة لأتباعهم، ولكن كم من هذه الكلمات والأفعال يتم التفاعل معها؟

لقد حز هذا الجمود والتبلد في الإحساس والتفاعل في نفس سيد التابعين الحسن البصري فقال لأحدهم: (لا تكن شاة الراعي أعقل منك تزجرها الصيحة، وتطردها الإشارة)[٥]، إن جمعاً كبيراً من أعداد الدعاة يدورون في دوائر الدعوة المباركة ويرتعون في محاضنها، ويتلقون أطنان الكلمات والعبارات التربوية، ولكنهم يأبون إلا أن تكون شاة الحسن البصري أفقه منهم، في جمود وتبلد في الحس، أقرب إلى الجماد منه إلى

---

(٥) الحسن البصري: ص ٤٧.

من تدب في أوصاله الحياة . . ومن الإمام البصري وشاته نتعلم الدرس الثاني في بر المربين عندما نتفاعل مع الكلمة، ونحولها إلى سلوك.

لا تكن لجوجاً:

وبخاصة فيما لا يريد المربي تبيانه، لأسباب هوَ يعلمها، وتخفى على ذلك الطالب الذي يستعجل بحماسه معرفة بعض الأمور التي لا يدركها، ويعلم المربي أنه لم يأت الأوان لتعلمها، فربما كان ضرر معرفتها أكثر من النفع، أو ربما لم يبلغ مستواه من الفهم ما يؤهله لفهمها، لذلك يؤجل إعلامه إياها، ولكنها العجلة التي تجعل بعض الدعاة يلح لمعرفة ما لم يعلم من أمور الدعوة، فإذا لم يعط ما يريد تمرد على شيخه، وترك الدعوة والدعاة، ويأليتهم يسلمون من لسانه بعد هجرهم، لقد اشترط الخضر عندما أراد أن يصحبه موسى عليه السلام بعدم المقاطعة والإلحاح قبل أن يبين له سر ما يقوم به من الأعمال، عندما قال:

﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ (الكهف).

ولكن موسى عليه السلام لم يلتزم بهذا الشرط واستمر في إلحاحه، عند كل أمر وفعل يقوم به من أراد اتباعه، حتى كان الفراق في نهاية الأمر، عندما قال الخضر:

﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾.

فكم من الخير نخسر عندما نستعجل الخطوات ونحاول القفز بدل الصعود المتدرج في مدارج السالكين !!

توقير المربين :

والتوقير جزء من البر والإحسان لمن يسدي إلينا هذا المعروف الكبير من العلم والتربية، وكما أن الإمام البخاري - رضي الله عنه - قد تربى على مجموعة من المربين العلماء، فإنه نقل هذا العلم والتربية لمجموعة أخرى من طلبة العلم، وقد لا يكون الإمام مسلم بن حجاج أحد الذين رباهم الإمام البخاري وعلَّمهم، إلا أننا نلاحظ الإمام مسلم كيف يبين هذا البر لمن يستحقه من العلماء المربين فنراه يلتقي الإمام البخاري، وعلى مرأى من الناس يقوم فيقبِّل بين عينيه ويقول: (دعني حتى أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين وسيد المحدثين، ويا طبيب الحديث في علله) (٦).

إننا لا ندعو إلى تقبيل أقدام المربين وأيديهم، ولكنها مبالغة في التكريم والإحسان لمن يستحق الإحسان والتكريم.

احفظوا هيبتهم :

يقول تعالى في كتابه الكريم :

﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) ﴾ (النور).

يقول سيد قطب في ظلاله: (فلابد من امتلاء القلوب بالتوقير لرسول الله ﷺ حتى تستشعر كل كلمة منه وكل توجيه، وهي لفتة

---

(٦) طبقات الشافعية : ٢ / ٩ .

ضرورية فلابد للمربى من وقار، ولابد للقائد من هيبة، وفرق بين أن يكون هو متواضعاً هيناً ليناً، وأن ينسوا هم أنه مربيهم فيدعوه دعاء بعضهم بعضاً. . يجب أن تبقى للمربي منزلة في نفوس من يربيهم، يرتفع بها عليهم في قرارة شعورهم، ويستحيون هم أن يتجاوزوا معها حدود التبجيل والتوقير) (٧)

يشير سيد ـ رحمه الله ـ في خاطرته وظلاله على الآية السابقة إلى سلوك بعض المربين أو المتعلمين عندما يجدون تواضعاً جماً من شيوخهم ومربيهم يتجاوزون معها حدود الأدب، فيتجرأون عليهم، ولا يعطوهم احترامهم الذي يستحقونه، وينسون في زحمة هذا التواضع والانبساط أنه مربيهم. يقول الماوردي : (وليحذر المتعلم البسط على من يعلمه وإن آنسه، والإدلال عليه وإن تقدمت صحبته) (٨) .

هكذا كانوا :

يصف ابن جماعة ما يجب على المتعلم مع من يعلمه من الآداب أثناء الدرس فيقول : (أن يجلس بين يدي الشيخ جلسة الأدب كما يجلس الصبي بين يدي المقرئ، أو متربعاً بتواضع وخضوع وسكون وخشوع ، ويصغي إلى الشيخ ناظراً إليه، ويُقْبِل بكليته عليه، متعقلاً لقوله، بحيث لا يحوجه إلى إعادة الكلام مرة ثانية، ولا يلتفت من غير ضرورة، ولا ينظر إلى يمينه أو شماله أو فوقه أو قدامه بغير حاجة، ولاسيما عند بحث له أو عند كلامه معه) (٩)

---

(٧) في ظلال القرآن : ٤ / ٢٥٣٥ .

(٨) أدب الدنيا والدين : ٨٦ .

(٩) تذكرة السامع : ص ٩٧، ٩٨ .

ويقول أحمد بن سنان : (كان عبدالرحمن بن مهدي لا يتحدث في مجلسه، ولا يبري قلم، ولا يقوم أحد، كأنما على رؤوسهم الطير أو كأنهم في صلاة) (١٠) .

إنها مجالس للتربية قبل أن تكون مدارس للتعليم، فكانوا يتعلمون الأدب والعلم معاً على أيدي المربين .

أنصتوا ولا تقاطعوا :

إنَّ من أبجديات التأدب مع المربي، ومن البر به عدم مقاطعته، والإنصات له حتى ينتهي مما يريد قوله، فقد يعلم المتربي بعض أو كل ما يقوله المربي، ولكن ليس من الأدب مقاطعته أو تبيين علمه بتلك المسألة . . وما أجمل ما روي عن أخلاق ابن وهب، وهو من كبار العلماء، حيث يقول : (إني لأسمع من الرجل الحديث قد سمعته قبل أن يجتمع أبواه فأنصت له كأني لم أسمعه) (١١) .

فإذا كان هذا الأدب من عالم كابن وهب، فما أحرى طلبة العلم والمتربين في المحاضن التربوية في الحركة الإسلامية بهذا الأدب .

إن شهوة المقاطعة قد تقطع حبل أفكار الشيخ المربي، وتنسيه ما كان يريد قوله، كما أن المقاطعة تخفف من حماس بقية طلبة العلم المتربين، إلا إذا طلب الشيخ أو رضي بالمقاطعة من أول الدرس .

يقول الإمام ابن الجوزي : (ومتى أشكل شيء من الحديث على

---

(١٠) التذكرة : جـ١، ص ٣٠٣ .

(١١) الآداب الشرعية : ٢/ ١٨٠ .

الطالب صبر حتى ينتهي الحديث، ثم يستفهم الشيخ بأدب ولطف، ولا يقطع عليه في وسط الحديث) (١٢) .

يروي أحد كبار العلماء من الذين تربوا على يد الإمام الشافعي، وهو الإمام المزني عن أدبه مع شيخه الشافعي فيقول: (كنت يوماً عنده إذ دخل عليه حفص الفرد فسأله عن مسائل كثيرة، فبينما الكلام يجري بينهما وقد دق حتى لا أفهمه، إذ التفت إليَّ الشافعي مسرعاً، فقال: يا مزني، فقلت: لبيك، قال: تدري ما قال حفص؟ قلت: لا، قال: خير لك ألا تدري) (١٣) .

كان من الممكن أن يدعوه الفضول، أو حب العلم، أن يقاطعهما، ويسألهما عما يتحدثان عنه، ولكنه لزم الصمت حتى لا يقطع عليهما، كما نلاحظ لفتة الإمام الشافعي لتلميذه المزني، وسؤاله إن كان يعلم ما يقول محدثه. . ثم التعليق على إجابة المزني (خير لك ألا تدري) تحتمل خوف الإمام الشافعي على تلميذه من تعلم علم ليس هذا أوانه، أو أنها مزحة على جوابه.

مُر التعلم:

المربون بشر، ولابد من أن يعي المتربي هذه البديهية بالرغم من بساطتها، ذلك أن استيعاب هذا الأمر وتذكره يجعل المتربي يدرك أن البشرية في المربي تبرز فيه أحياناً الغضب، والجفوة، والجفاف، والشدة،

---

(١٢) الآداب الشرعية: ٢/ ١٨٠ .

(١٣) طبقات الشافعية: ١/ ٢٤١ .

والنسيان، وضيق الصدر إلى آخر قائمة الصفات السلبية البشرية، وأنه لا يمكن أن يكون دائم الابتسامة واللين وسعة الصدر، وباقي الصفات الإيجابية، وإن كان يسعى لذلك، أو يغلب عليه ذلك، وعليه فلابد من أن يتوقع المتربي في أحضان الحركة الإسلامية وفي محاضنها التربوية، وأن يتهيأ أن يحدث له أحياناً ما يكره من مربيه، سواء ارتفاع نبرة الصوت، أو الزجر، أو تجهم الوجه، أو رد الاقتراح، أو الغلظة في المعاملة، وإن كان ذلك قليل.. لأن عدم توقع هذا الأمر يجعل البعض ينصدم عند أول ظهور لهذه الصفات من مربيه.. والإمام الشافعي، والذي تنقل بين عدد من المربين في حياته أدرك هذه الحقيقة، فأعطى زبدة تجربته لمن بعده من المتربين في هذا المضمار المبارك فقال:

اصبر على مرّ الجفا من مُعلمٍ

فإن رسوب العلم في نفراته

ومَنْ لم يذق مرّ التعلم ساعة

تجرعَ ذُل الجهل طوال حياته (١٤)

ولئن نفخ الشيطان في نفس ذلك الداعية الذي ذاق مر الجفا من مربيه بالثأر لكرامته، والوقوف أمام مربيه، ثم يزين له بعد تلك المواجهة الخروج والتمرد من دائرة الخير، فإنه يحرم نفسه من خير كثير، ويعرّض نفسه لمخاطر السقوط، والانتكاس من دائرة الالتزام بأبسط مستلزمات الإسلام، وهذا ذروة ما يتمناه الشيطان، ولئن اعتبر ذلك الداعية المتربي أن

---

(١٤) ديوان الشافعي: ص ٢٩، ط الجيل.

ما يلقاه أحياناً هوَ من الذل والإهانة وإن كان نادراً، فالإهانة وأنت داخل الصف، خيرٌ ألف مرة مما يعتبره عزاً وهو خارج الصف، بعيداً عن إخوانه، وأجواء الخير.

يقول الأصمعي: (مَنْ لم يحتمل ذل التعلم ساعة، بقي في ذل الجهل أبداً)(١٥).

والصبر على جفوة الشيخ يجعلها ابن جماعة من أبرز ما يتصف به طالب العلم والأخلاق على يد مربيه، حيث يقول في تذكرته: (أن يصبر على جفوة تصدر من شيخه، أو سوء خلق، ولا يصده ذلك عن ملازمته، وحسن عقيدته، ويتأول أفعاله التي يظهر أن الصواب خلافها على أحسن تأويل، ويبدأ هو عند جفوة الشيخ بالاعتذار)(١٦).

إلا أن البعض يستسلم لوساوس الشيطان، وينسى مداخله ودروبه، فيقنعه إبليس بعدم محبة المربي له، وأنه يضمر له العداوة وسوء القصد.

الأمر الذي لمسه الإمام الجيلاني مع أحد الذين يربيهم، فصاح فيه: (ويحك ما بيني وبينكم عداوة، غير أني أقول الحق، ولا أحابيك في دين الله عز وجل، قد تربيت على خشونة كلام المشايخ، وخشونة الغربة والفقر)(١٧).

ولا يستسلم لمثل هذه الوساوس الشيطانية إلا من قلت ثقته بمن يربيه، وبمجموعة الخير التي ينضم إليها، لذلك جعل الإمام البنا ـ رحمه

---

(١٥) أدب الإملاء والاستملاء: ص ١٤٥.

(١٦) تذكرة السامع: ص ٩١.

(١٧) الفتح الرباني: ٢٤.

الله ـ افتراض الخطأ فيه، والصواب مع الجماعة عند الاختلاف فيما يؤمر به من غير النصوص الشرعية جزء مهم من الثقة والتي اعتبرها ركن من أركان البيعة.

التهيؤ للاستماع:

من أكبر مصادر التلقي للعلم والتربية، اللقاء الجماعي واللقاء الفردي.. ولابد من أن يتهيأ المتربي لمثل هذه الجلسات، حتى يحصل على النفع الكامل منها، وأن يتخلص من كل الشواغل حتى لا يقلل ذلك من تحصيله العلمي والأخلاقي.

يقول ابن جماعة: (وينبغي أن يدخل على الشيخ أو يجلس عنده وقلبه فارغ من الشواغل له، وذهنه صاف، لا في حال نعاس، أو غضب، أو جوع شديد، أو عطش، أو نحو ذلك لينشرح صدره لما يقال ويعي ما يسمعه)(١٨).

لا يمكن للمربي أن يتفاعل في إلقاء موعظته، وتوجيهه، وأمامه من يتثاءب، أو من هو شارد الذهن، أو كثير الحركة والحديث مع القريب منه، كما لابد للمتربي من أن يهيئ نفسه للقاءات الفردية، فيؤدي ما طُلب منه من الواجبات، ويحضر ما يحتاجه من الأسئلة مدونة على ورقة، حتى يستفيد من الشيخ الفائدة القصوى.

تعظيم حرمة المربي:

من حق المربي على من يربيه، الدفاع عنه في غيبته، والإنكار على

---

(١٨) تذكرة السامع: ص٩٦.

من يقع في عرضه، وإن من الخيانة الرضا بما يقال في غيبته، والسكوت عن الدفاع، والإنكار عندما يقع الآخرون في سمعة الشيخ، ويستطيلون في عرضه وأخلاقه وسيرته، فمن أبجديات حق الشيخ المربي على من يربيه أن يعظّم حرمته.

يقول النبي ﷺ فيما رواه الإمام أحمد: «**من ذب عن عرض أخيه بالغيبة، كان حقاً على الله أن يعتقه من النار**»(١٩).

ويقول الرسول ﷺ فيما يرويه الإمام البيهقي: «**من رد عن عرض أخيه، كان له حجاباً من النار**»(٢٠).

وهذا عام في كل أخ مسلم، وحق الشيخ أوجب، لأنه يعلمه الدين، يقول ابن جماعة: (ومن ذلك أن يعظم حرمته، ويرد غيبته، ويغضب لها، فإن عجز عن ذلك قام وفارق ذلك المجلس)(٢١).

ومن قام بالواجب في الدفاع عن عرض شيخه ومن يربيه كان له ذلك النصيب العظيم في صون وجهه عن النار، يقول الإمام المناوي: (وذلك لأن عِرْض المؤمن كدمه، فمن هتك عرضه فكأنه سفك دمه، ومن عمل على صون عرضه، فكأنه صان دمه، فيجازى على ذلك بصونه عن النار يوم القيامة إن كان ممن استحق دخولها، وإلا كان زيادة رفعة في درجاته في الآخرة في الجنة)(٢٢).

---

(١٩) رواه الإمام أحمد وصححه الألباني (صح ج ص ٦٢٤٠).
(٢٠) رواه الإمام البيهقي وصححه الألباني (صح ج ص ٦٢٤٠).
(٢١) تذكرة السامع: ٩٠.
(٢٢) فيض القدير: ٦/ ١٣٥.

تواضع يولد عزاً :

لا مجال لعزة مصطنعة من المتربي، إذا ما أراد أن يتلقى العلم والتربية على يد من يربيه، فالحساسية السلبية المتجاوزة للحدود، تحرم المتربي من خير كثير، وربما استغلها إبليس في تنفيره عن الحق وأهله.

ومن لم يتواضع للمربي المعلم، ويأتي له متذللاً ليستفيد من علمه وخلقه، ويريد هو من المربي أن يتذلل له ويخضع، فلن يطيل كثيراً في رحاب العلم والدعوة.

وليتعلم الدعاة المتربون من أخلاق موسى عليه السلام الذي لم تمنعه مرتبة الرسالة من التواضع للعلماء، والخضوع لشروطهم، عندما طلب من الخضر اتباعه.. وهو يقول بكل تواضع للخضر:

﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾ (الكهف).

فهي وإن بدت في ظاهرها ذلاً وخضوعاً ولكنها في حقيقتها عزاً ورفعة.. يقول ابن جماعة: (ويعلم أن ذله لشيخه عز، وخضوعه له فخر، وتواضعه له رفعة)(٢٣).

وقد عوتب الإمام الشافعي على تواضعه لشيوخه ومربيه، فرد عليهم بقوله:

أهين لهم نفسي فهم يكرمونها

ولن تكرم النفس التي لا تهينها (٢٤)

(٢٣ و٢٤) تذكرة السامع: ص ٨٨.

يقول ابن جماعة : (وأخذ ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ مع جلالته ومرتبته بركاب زيد بن ثابت الأنصاري، وقال: هكذا أُمِرنا أن نفعل بعلمائنا).

وقال الغزالي : (لا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع) (٢٥) .

ومن عجائب ما روي عن الإمام أحمد في تواضعه لمن يأخذ منه علماً، وإن كان دونه في العلم، ما يرويه ابن مفلح في آدابه عن خلف الذي يقول: (جاءني أحمد بن حنبل يسمع حديث أبي عوانة، فاجتهدت أن أرفعه فأبى، وقال: لا أجلس إلا بين يديك، أُمِرْنا أن نتواضع لمن نتعلم منه)(٢٦).

ومما يؤكد أن التواضع للعلماء والمربين يزيد في المنزلة بين الناس ما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ بقوله: (لما قُبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هلم فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم اليوم كثير، قال: واعجباً لك يا بن عباس، أترى الناس يفتقرون إليك وفي الناس من أصحاب رسول الله ﷺ من فيهم؟ قال: فترك ذلك وأقبلت أنا أسأل أصحاب رسول الله ﷺ عن الحديث، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتي بابه وهو قائل فأتوسد ردائي على بابه، تسفي الريح عليَّ من التراب، فيخرج فيقول: يا بن عم رسول الله ﷺ: ما جاء بك؟ ألا أرسلت إليَّ فآتيك؟ فأقول: أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث، قال: فعاش ذلك الرجل الأنصاري حتى رآني، وقد اجتمع الناس حولي، فيقول: هذا الفتى كان أعقل مني) (٢٧) .

---

(٢٥) المرجع السابق.
(٢٦) الآداب الشرعية : ٢/ ٢٦ .
(٢٧) الآداب الشرعية : ٢/ ٢٦ .

نعم . . هذا هو العاقل الذي يتحمل كل (مظاهر الذل) في موازين أهل الدنيا، تجار الجدل والكلام الضائع ، ليرتقي سلالم العز والمجد في محاضن التربية، يقول عمر بن عثمان الجنزي :

(تواضع إذا ما طلبتَ العلومَ

تكن أكثر الناس علماً ونفعاً

وكل مكان أشد انخفاضاً

يرىٰ أكثر الأرض ماءً ومرعىٰ) (٢٨)

وجزاءً لهذا التواضع للعلم والعلماء والمربين يكافئ الله تعالىٰ هؤلاء بما أخبر عنه نبيه ﷺ : « **إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يطلب** » (٢٩).

إنه تكريم من الملائكة، ومنزلة ما بعدها منزلة لمن أهان نفسه في سبيل إرضاء الله تعالىٰ وتحصيل ما ينفعه من العلم والأخلاق ليزيد في عبوديته لخالقه سبحانه وتعالىٰ .

حتى يستأذنوا :

التربية عقد بين المربي والمتربي .

عقد تم بين طرفين، الأول قَبِل بتربية الطرف الثاني، والثاني قَبِل بشروط تربية الطرف الأول، والتي بمثابة الضمان لنجاح العملية التربوية

---

(٢٨) أدب الإملاء والاستملاء : ٤٤ .

(٢٩) رواه الطيالسي وصححه الألباني (ص ج ص ١٩٥٦) .

للطرف الثاني، ومن أبرز هذه الشروط الاستئذان، بالرغم من أنه خلق تلقائي من كل مستفيد لمن يأخذ الفائدة منه.

ومن أهم فوائد الاستئذان:

١ ـ المحافظة على وقت المربي، حيث إن المتربي عندما يذهب من غير استئذان، فإن ذلك يربك وقت المربي، وبرنامجه الذي صممه لتربية عدد من المتربين.

٢ ـ فوات بعض الأمور النافعة للمتربي، حيث يصبح أحياناً من الصعب إعادة بعض الدروس والفوائد التربوية، لارتباط ذلك ببعض المتربين الآخرين، ويضيق وقت المربي المشغول بأمور أخرى في الدعوة.

٣ ـ والاستئذان صورة من صور الضبط والجدية والالتزام، وعدمه لا ينم عن ذلك.

ولأهمية أمر الاستئذان ذكره الله تعالى في كتابه الكريم كأحد أهم صفات المؤمنين في الجماعة الإسلامية، يقول تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ (النور).

يقول سيد قطب معلقاً على هذه الآية: (والأمر الجامع الهام الذي يقتضي اشتراك الجماعة فيه، لرأي، أو حرب، أو عمل من الأعمال

العامة، فلا يذهب المؤمنون حتى يستأذنوا إمامهم، كي لا يصبح الأمر فوضى بلا وقار ولا نظام، وهؤلاء الذين يؤمنون هذا الإيمان ويلتزمون هذا الأدب، لا يستأذنون إلا وهم مضطرون، فلهم من إيمانهم ومن أدبهم عاصم ألا يتخلوا عن الأمر الجامع الذي يشغل بال الجماعة، ويستدعي تجمعها له) (٣٠).

مبالغة بالتبكير:

وبالرغم من أن صفة الاستئذان تدل على جدية المتربي وأدبه، وبره بمربيه، إلا أنها تحرم المتربي من بعض ما يتلقاه من أمور التربية، مما يجعل صفة التبكير للجلسات التربوية من أهم ما يجب أن يتصف به الدعاة المتربين، يقول الرسول ﷺ: «**اللهم بارك لأمتي في بكورها**»(٣١)، قال نافع: سألت ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ في قول النبي ﷺ: «**اللهم بارك لأمتي في بكورها**» فقال: في طلب العلم والصف الأول(٣٢).

لقد كان فحول العلماء ممن تربوا على أيدي جهابذة العلماء يبالغون في التبكير إلى مجالس العلم حتى أن جعفر بن درستويه يروي لنا قصته مع أصحابه بالتبكير فيقول: (كنا نأخذ المجلس في مجلس علي بن المديني وقت العصر اليوم لمجلس غد فنقعد طول الليل مخافة أن لا نلحق في الغد موضعاً نسمع فيه)(٣٣).

---

(٣٠) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٥٣٥.
(٣١) أدب الإملاء ـ العلمية: ١١١.
(٣٢) رواه الإمام أحمد وصححه الألباني (ص. ج. ص ١٣٠٠).
(٣٣) أدب الإملاء والاستملاء: ص ١١٢.

مما يدل على استشعارهم أهمية ما يتلقونه من دروس العلم والتربية، وإلا لما بالغوا بمثل هذا التبكير، فلا ينبغي للدعاة إلى الله الذين قبلوا التربية في محاضن الدعوة الإسلامية أن يتخلفوا أو يتأخروا عن دروس العلم التي يتلقون فيها العلم والتربية.

يروي لنا أحد أتباع الشيخ (عبد الصمد بن الفضل) صورة من الصور التربوية التي تتجلى فيها دقة المربي في تربية أتباعه على الأسس التربوية للدعاة في دعوتهم، فيقول: (كنا نسمع الحديث من عبدالصمد بن الفضل ببلخ[٣٤] وكان الباب مغلقاً دوننا، فجاء إنسان فقرع الباب وأعنف في القرع والدق، فقال عبدالصمد لواحد منا: قم فانظر إن كان من أصحاب الرأي فافتح له الباب، وإن كان من أصحاب الحديث فلا تفتح له، فقال له بعضهم: أليس صاحب الحديث أولى أن يفتح له الباب؟ فقال: لا، أصحاب الرأي أولى، لأن هذا عمل أصحاب الحديث فلم لم يبكر، وليس هو بعمل أصحاب الرأي، فيعذرون)[٣٥].

فالذين هم خارج صف الدعاة إلى الله، والذين لم يلزموا أنفسهم بالتربية في محاضن الدعوة، فلا نستطيع إلزامهم بتبكير أو بأي خلق من أخلاق التربية، أما الذين ألزموا أنفسهم وقبلوا دخول هذا الأمر فلا يليق بهم التأخر، وبخاصة إذا لم يكن لأمر طارئ، كما لا يناسب مع الأمانة التي يتدربون على حملها في مثل هذه الجلسات التربوية.

---

(٣٤) مدينة تقع في أفغانستان.

(٣٥) أدب الإملاء: ص ١٦٢.

إلزم غرسه :

تلك نصيحة غالية وجهها الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ للفاروق عندما كتبت معاهدة الحديبية، ورأى الفاروق فيها بعض الشروط المجحفة في حق الإسلام والمسلمين، فذهب يستشير أبي بكر في هذا الأمر، فعلّمه الصديق مبدأ من أهم المبادئ التي تقوم عليها الجماعة المسلمة، وأي مؤسسة ناجحة، ألا وهو (الطاعة) للقائد، ولكنها طاعة مبصرة وليست عمياء، طاعة نابعة من المحبة والثقة في قدرات القائد وإخلاصه، وحرصاً على ارتقاء المؤسسة إلى أعلى مراتب النجاح والإنجاز.

وليست طاعة يرى فيها المتربي الخطأ الواضح، أو ما يظنه خطأً فيسكت، بل ينصح، ويستفهم ضمن إطار الأدب وأخلاق المتربي مع مربيه، دون إعلان النصيحة أمام أفراد المؤسسة فيستضعف القائد المربي، ولا غيبة أو نجوى بعيداً عن علم القيادة والمربين، فتوغر الصدور، ويُساء الظن، وتتعثر المؤسسة في تحقيق أهدافها.

ولئن كانت حادثة الحديبية لم يظهر فيها اعتراض ذو أثر كبير بسبب وجود الرسول ﷺ بينهم، وحداثة عهد المسلمين بالإسلام، فإن حوادث الردة بعد موت الرسول ﷺ كانت فيها ردة الفعل أكبر بين الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، ولم يعترض الفاروق وحده على حروب المرتدين، بل شاركه معظم الصحابة ذلك الرأي، فكانت تربية الصديق المربي هذه المرة في تأصيل الطاعة ليست قاصرة على الفاروق، بل كانت للصحابة جميعاً عندما صرخ فيهم قائلاً: (والله لو منعوني عقال بعيرٍ كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه، لأقاتلن من فرق بين الزكاة والصلاة).

لقد تعلَّم الصديق والصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ جميعاً أهمية الطاعة للمربي من خلال تربية الرسول ﷺ المربي على آيات القرآن الكريم والتي يذكر فيه الله تعالى الكثير من صور الطاعة للمربي، والتي من أبرزها صورة طاعة جنود طالوت لأوامره بعدم الشرب من الماء، فكانت الفئة الطائعة هي التي صمدت أمام الأعداء عند النزال.. حيث يقول تعالى:

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ(٢٤٩) ﴾ (البقرة).

ثم تعلم الصحابة الكرام درساً عملياً قاسياً في معركة أحد، نتج عن عدم طاعة الرماة لأميرهم ضحايا من أبرز الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ، في وقت كانوا في أمس الحاجة إلى الفرد في تلك الجماعة الناشئة، وهذا الموقف وموقف الحديبية، وغيرها هي السر في انقياد الصحابة للصديق، وطاعتهم له في معارك الردة، ولم تكن هناك حركة عصيان تام، أو حركة احتجاج تطير بالخليفة، بالرغم من حرج الموقف، ومنطقية عدم المصادمة مع القبائل المرتدة في الميزان البشري، ولكنه النور الرباني الذي قذفه الله تعالى في قلب الصديق، فكان ينظر من خلاله، وكانت الصورة الرائعة لطاعة الجماعة للقائد، وكان النصر المؤزر للمسلمين، وكان النجاح المتوالي في جميع معارك المسلمين ومؤسساتهم الحديثة، لتوافر عنصر

الطاعة الرئيس في عملية البناء والنجاح، كما أنه من أبرز علامات الحب والثقة والبر لمن نتلقى على أيديهم العلم والتربية.

الوقت المناسب:

ومن البر بالمربين اختيار الوقت المناسب للحديث معهم، أو طلب العلم منهم، وعدم إزعاجهم في الأوقات الحرجة، أو في أوقات راحتهم، حتى وإن كان عن طريق الهاتف أو البيجر، وعدم الإلحاح في طلب المقابلة معهم إن أبدوا بعض العذر أو بدا من كلامهم ما يدل على العذر.. يقول ابن جماعة: (ولا يطلب من الشيخ إقراءه في وقت يشق عليه فيه، أو لم تجر عادته بالإقراء فيه، ولا يخترع عليه وقتاً خاصاً به دون غيره، وإن كان رئيساً كبيراً، لما فيه من الترفع والحمق على الشيخ والطلبة والعلم، وربما استحيا الشيخ منه فترك لأجله ما هو أهم عنده في ذلك الوقت، فلا يفلح الطالب، فإن بدأه الشيخ بوقت معين أو خاص بعذر عائق له عن الحضور مع الجماعة، أو لمصلحة رآها الشيخ فلا بأس بذلك)[٣٦].

الشكر والدعاء:

إن من أحق الناس بالشكر، هم أولئك الذين يبينون لنا الطريق إلى مرضاة الله والجنة، والذين ينبهونا من السبل الموصلة إلى غضب الله وناره، والذين يسهرون الليل، ويضحون بأوقاتهم من أجل رفعتنا في الدنيا والآخرة، هؤلاء المربين الذين تلقينا على أيديهم العلم والأخلاق، وأرضعونا أبجديات التصور الإسلامي الصحيح، وجعلوا منا شيئاً بعد أن

---

(٣٦) تذكرة السامع: ص ٩٦ و٩٧.

كنا على هامش الحياة، يستحقون منا الشكر والدعاء، بل هو أقل ما يمكن أن نقدم لهم، وأن يستمر المتربي بالدعاء له ما بقي في هذه الحياة، ويقرن الدعاء له مع والديه في الصلوات والخلوات، وألا ينسى فضله عليه ما بقي في هذه الحياة، حتى وإن اختلف يوماً معه أو مع جماعته، فليس من الوفاء وشيم الرجال نسيان من أسدوا إلينا هذا المعروف.

يقول ابن جماعة: (أن يشكر الشيخ على توقيفه على ما فيه فضيلة، وعلى توبيخه على ما فيه نقيصة، أو على كسل يعتريه، أو قصور يعانيه، أو غير ذلك مما في إيقافه عليه وتوبيخه وإرشاده وصلاحه، ويعد ذلك من الشيخ من نعم الله تعالى عليه، باعتناء الشيخ به، ونظره إليه، فإن ذلك أمثل إلى قلب الشيخ، وأبعث على الاعتناء بمصالحه)[٣٧].

خدمة المربي:

والشكر ليس كلاماً يُقال باللسان، إنما هو ترجمة عملية وقياماً بحق الشيخ، وخدمة له دون أن يطلب ذلك، أو يلمح.

يقول ابن جماعة: (أربعة لا يأنف الشريف منهن وإن كان أميراً: قيامه من مجلسه لأبيه، وخدمته للعالم يتعلم منه، والسؤال عن ما لا يعلم، وخدمته للضيف)[٣٨].

ثم يذكر ابن جماعة في نهاية حديثه صورة من أروع صور البر للمربين: (ولقد رأيت من يقوم بإطعام شيخه لكبر سنه)[٣٩].

---

(٣٧) تذكرة السامع، ص ٩٢ و٩٣.

(٣٨ و٣٩) تذكرة السامع: ص ١١٠.

لا ينظرون للسن :

يقول إسحاق بن راهويه : (كنا بمكة والشافعي بها وأحمد بن حنبل بها، فقال لي أحمد بن حنبل: يا أبا يعقوب جالس هذا الرجل - يعني الشافعي - قلت: ما أصنع به، وسنه قريب من سننا؟ أترك ابن عيينة والمقبري؟! فقال: ويحك ذاك يفوت، وذا لا يفوت فجالسته).

وهكذا هو شأن الداعية المخلص بما يقوم به من حق البر لمربيه، حتى وإن كان قريباً من سنه، فإخلاصه بطلب العلم والتربية يحطم حواجز السن، ومداخل الشيطان التي تدعوه لعدم البر والاحترام، أو التكبر من التلقي من الأقران.

لقد كان عم النبي ﷺ الحمزة - رضي الله عنه - يقول: (النبي أكبر مني، وأنا أسن منه) تلميحاً لعلو مقام النبوة وإن كان ابن أخيه ﷺ أصغر منه سناً.

مخاطبة المربي :

ومن بر المتربي لمربيه عدم مناداته باسمه، بل يناديه بما يوحي بالتقدير والاحترام والإجلال.

يقول الخطيب : (يقول أيها العالم، وأيها الحافظ، ونحو ذلك، وما تقولون في كذا، وما رأيكم في كذا، وشبه ذلك، ولا يسميه في غيبته أيضاً باسمه إلا مقروناً بما يشعر بتعظيمه، كقوله: قال الشيخ، أو الأستاذ كذا، وقال شيخنا، أو قال حجة الإسلام، أو نحو ذلك)(٤٠).

---

(٤٠) تذكرة السامع : ص ٨٩ .

وعندما ينزل الشيخ إلى من يربيه ويلاطفه، وربما يمزح معه لا يعني هذا أن يتجرأ المتربي على من يربيه فيناديه باسمه، أو بما لا يليق به، بالرغم من عدم طلب المربي لهذه الألقاب أو ذلك التعظيم، إلا أن حق المربي على من يربيه يقتضي مناداته بما يليق ويتناسب مع منزلته.

عدم إطالة المكث:

المربي له الكثير من المشاغل العلمية والدعوية، والأسرية، ويأخذ المتربون على يديه الكثير من وقته، وبالتالي فإن من البر له ألا يتجاوز المتربون الوقت الذي حدده لهم في المكث لدروس العلم والتربية، وأن يتذكروا أن له مشاغل أخرى وواجبات لابد من القيام بها، حتى إن تحرج هو من إبداء إيقاف الحديث، أو الاستئذان منهم.

يقول ابن جماعة: (ومتى دخل والشيخ وحده يصلي أو يذكر أو يكتب أو يطالع، فترك ذلك أو سكت ولم يبدأه بكلام أو بسط حديث فليسلم، ويخرج سريعاً، إلا أن يحثه الشيخ على المكث، وإذا سكت فلا يطيل، إلا أن يأمره بذلك)(٤١).

مَنْ بر شيخه بره من يربيه:

وهذه قاعدة تكاد أن تكون ثابتة، تماماً كما يحدث عندما يبر المرء والداه، فإن أبناءه من بعده يبروه، فالمتربي الذي يبر مربيه بهذه الأخلاق، ويتخلق معه تخلق الولد مع والديه، فإنه متى ما أصبح مربياً فإنه سينال من

---

(٤١) تذكرة السامع: ص ٩٥، ٩٦.

البر من المتربين على يديه بمثل ما بر به شيخه من قبل، وهذا ما أكده الشاعر عندما قال:

وقر مشايخ أهل العلم قاطبة

حتى تُوقَّر إن أفضى بك الكبر

واخدم أكابرهم حتى تنال به

مِثْلاً بمثل إذا ما شارف العمر(٤٢)

ولا يستغرب من أساء الأدب إلى مربيه، ولم يقم بما يليق به من البر أن يعامله المتربين على يديه بمثل ما كان يعامل به شيخه، ومن كان يتلقى التربية على أيديهم. . إنها قاعدة ماضية (مَنْ بَرّ شيخه بَرّهُ مَنْ يُربيه).

* * *

(٤٢) أدب الإملاء والاستملاء : ص ١٣٦ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة الشيخ أحمد القطان	٥
مقدمة المؤلف	٩
الجزء الأول	١٣
❖ **الصفة الأولى ـ القدوة الحسنة**	١٩
تعريف	٢٠
أ ـ أهمية القدوة	٢١
ب ـ شروط القدوة	٢٤
١ ـ الإيمان بالفكرة	٢٥
٢ ـ تعلم العلم	٢٦
٣ ـ حسن الخُلق	٢٦
٤ ـ موافقة العمل للقول	٢٦
٥ ـ عدم الانقطاع عن الأعمال	٢٧
٦ ـ التثبت من صحة النقول	٢٧
٧ ـ الابتعاد عن المباحات	٢٨
٨ ـ المحاسبة الدائمة	٣٠
جـ ـ مبطلات القدوة	٣٠

١ ـ مخالفة العمل للقول ٣٠
٢ ـ عدم الالتزام بالقول ٣٢
٣ ـ الزلل بجميع صوره ٣٤
٤ ـ الانتصار للنفس ٣٤
د ـ كيف تتم التربية بالقدوة ٣٥
١ ـ قوموا فانحروا ٣٥
٢ ـ إنها صفية ٣٦
٣ ـ أنا النبي لا كذب ٣٧
٤ ـ لم تراعوا ٣٩
٥ ـ كرهت أن يحسبني ٤٠
هـ ـ صفحات مملوءة بالقدوات ٤١
ـ لا يخاف إلا الله ٤١
ـ قدوات يموتون في حديدهم ٤١
ـ عز الخطيب وذل العلوي ٤٢
ـ درساً في الورع ٤٣
ـ الشافعي الصغير ٤٤
◆ الصفة الثانية ـ الرفق ٤٧
١ ـ ضرورة الرفق في حياة الداعية ٤٧
٢ ـ الرفق بأخذ هذا الدين ٤٨
٣ ـ الرفق بالحيوان ٥١
٤ ـ عندما تنضج الثمار ٥٤

٥ ـ مداراة وليست مداهنة ٥٥
٦ ـ الرفق بالتبليغ ٥٦
٧ ـ الرفق مع أهل الكتاب ٥٨
٨ ـ الرفق مع الجهال ٦٠
٩ ـ الرفق مع المبتدئ ٦٣
١٠ ـ الرفق بالتكاليف ٦٦
١١ ـ نتيجة الرفق ٦٧
أ ـ حب الناس للدعوة ٦٧
ب ـ عون الله ٦٨
جـ ـ دخول الخير ٦٨
د ـ دعوة الرسول ﷺ ٦٩
هـ ـ انتصار الدعوة ٦٩
◆ الصفة الثالثة ـ هواة تقوية القلوب ٧٣
١ ـ صفة القلب ٧٤
٢ ـ أنواع القلوب ٧٥
القسم الأول ـ البيضاء ٧٦
أ ـ القلوب المطمئنة ٧٧
ب ـ القلوب السليمة ٧٨
جـ ـ القلوب المنيبة ٧٩
د ـ القلوب الوجلة ٧٩
هـ ـ القلوب المربوطة ٨٠

و ـ القلوب المخبتة ٨٠
ز ـ القلوب الخاشعة ٨١
حـ القلوب المقشعرة اللينة ٨١
القسم الثاني ـ السوداء ٨٣
أ ـ القلوب الغليظة ٨٤
ب ـ القلوب الزائغة ٨٤
جـ القلوب الغافلة المغفلة ٨٥
د ـ القلوب القاسية ٨٦
هـ ـ القلوب المغلفة ٨٧
و ـ القلوب المريضة ٨٨
ز ـ القلوب المختومة ٨٩
حـ القلوب المطبوعة ٩٠
ط ـ القلوب المكنونة ٩١
ي ـ القلوب العمى ٩١
ق ـ القلوب المقفلة ٩٢
ل ـ القلوب اللاهية ٩٢
م ـ القلوب الزانية ٩٣
٣ ـ أسباب الأمراض ٩٤
أ ـ الشرك ٩٦
ب ـ حب الدنيا ٩٨
جـ مخالطة أصحاب البدع ٩٨

د ـ كثرة الضحك ١٠٠
هـ ـ كثرة الأكل ١٠٠
٤ ـ علاج أمراض القلوب ١٠٠
أ ـ القرآن الكريم ١٠٠
ب ـ تقبل الموعظة ١٠١
جـ ـ التوبة والاستغفار ١٠٢
د ـ التدبر والخشوع ١٠٣
هـ ـ الحياء ١٠٤
و ـ زكاة القلوب ١٠٤
ز ـ الشجاعة ١٠٥
٥ ـ الشيوخ يربون الهواة ١٠٥
أ ـ الإمام البصري ١٠٦
ب ـ الإمام الجيلاني ١٠٨
٦ ـ صفات هواة تقوية القلوب ١٠٩
أ ـ مخموم القلب صدوق اللسان ١٠٩
ب ـ الثقة والثبات ١١٠
جـ ـ الحكمة ١١٠
د ـ جلجلة الحديث ١١١
هـ ـ سليمان يجمل الصفات ١١٢
٧ ـ الهواة في الميدان ١١٣
ـ المجادلة تعظ عمر ١١٣

- يعصمك من يزيد ولن يعصمك يزيد ١١٤
- زروع قد دنا حصادها ١١٥
- ليلة تمخض بالقيامة ١١٦
- طول البقاء إلى فناء ١١٧
- الطائر المكسور ١١٧
- إن يقتلك الحق مت شهيداً ١١٨
- أولك نطفة مذرة ١١٩
٨- استكمل الشروط ١٢٠
❖ الصفة الرابعة- الشعور بمعية الله ١٢٥
- داعية من أولي العزم ١٢٦
- المربي الأول ١٢٩
- ابن مسعود الجاهر بالقرآن ١٣٠
- شهيد طاغية بني حنيفة ١٣٢
- إمام أهل الشام ١٣٣
- ابن أبي ذئب الإمام الثبت ١٣٤
- شيخ الإسلام ابن تيمية ١٣٥
- سلطان العلماء ١٣٦
الخاتمة ١٣٩

الجزء الثاني ١٤١

المقدمة ١٤٣

الفصل الأول ـ الحركة الدائبة ١٤٥
* أصل الحركات وأنواعها ١٤٩
أولاً : التحرك الخاطئ ١٥١
١ ـ يسارعون في الإثم ١٥٢
٢ ـ حركة المنافقين ١٥٣
٣ ـ الصبر على عبادة الطاغوت ١٥٤
٤ ـ الاختيال المرح ١٥٥
٥ ـ الهماز المشاء ١٥٥
ثانياً : التحرك السليم ١٥٧
ـ الصفة الأولى : معرفة الطريق ١٥٩
ـ الصفة الثانية : الهمة العالية ١٦١
ـ الصفة الثالثة : المسارعة في الخيرات ١٦٤
ـ الصفة الرابعة : سعي الرجال لطلب العلم ١٦٦
ـ الصفة الخامسة : سعي الرجال للاستجابة ١٦٩
ـ الصفة السادسة : الاهتمام بما يحدث للدعوة والدعاة ١٧٣
ـ الصفة السابعة : تكون هم الدعوة ١٧٥
ـ الصفة الثامنة : لا يعرفون الراحة ١٧٧
ـ الصفة التاسعة : يكرهون السكون والعجز ١٧٨
ـ الصفة العاشرة : خفيف النوم ١٨٠
ـ الصفة الحادية عشرة : الاستمرارية في الحركة ١٨١
* عوائق التحرك السليم ١٨٣

١ ـ حب الدنيا ١٨٤
٢ ـ استطالة الطريق ١٨٦
٣ ـ السكون والخمول ١٨٧
٤ ـ الجهل ١٩٠
٥ ـ العوائق الخارجية ١٩٠
* طرق تنمية الحركة الدائبة ١٩١
١ ـ التعرف على الأسماء والصفات ١٩٢
أ ـ الضار والنافع ١٩٢
ب ـ الخالق ١٩٣
جـ ـ العلي الأعلى ١٩٤
٢ ـ ملاحظة لمنة ١٩٥
٣ ـ تذكر لذنب ١٩٥
٤ ـ ملء الفراغ ١٩٧
٥ ـ استشعار الأجر ١٩٨
٦ ـ فقه العبادة ١٩٩
٧ ـ عدم تصديق المعوق والمبطئ ٢٠٠
* صور تعويق الحركة الدائبة ٢٠٣
أ ـ الشبهات ٢٠٣
ب ـ الإغراءات ٢٠٣
جـ ـ التضييق ٢٠٣
د ـ التهديد ٢٠٤

هـ ـ التعذيب ٢٠٤
و ـ القتل ٢٠٤
٨ ـ تذكر البرزخ واليوم الآخر ٢٠٥
الفصل الثاني ـ الثقة بالنصر ٢٠٧
* تحديد معنى النصر ٢١١
الصورة الأولى : انتصار الحركة الإسلامية الحديثة ٢١٤
الصورة الثانية : انتصار العقيدة ٢١٨
الصورة الثالثة : استشهاد الدعاة ٢٢١
الصورة الرابعة : هلاك الطغاة ٢٢٤
* مقومات الثقة بالنصر ٢٢٧
أولاً : معرفة طبيعة الطريق ٢٢٩
ـ طول الطريق ٢٣٠
ـ وعورة الطريق ٢٣٤
ـ الصبر على وعورة الطريق ٢٤١
ـ قلة السالكين ٢٤٤
ثانياً : الخلاص من اليأس ٢٤٧
العوامل المؤدية لليأس ٢٤٩
١ ـ التطبيق الخاطئ للإسلام ٢٤٩
٢ ـ سقوط بعض القيادات ٢٤٩
ـ التعلق بالأفراد ٢٥٠
ـ القفال والقروي ٢٥١

- البنا يعالج التعلق ٢٥١
٣ - استمرار المحنة ٢٥٣
٤ - قلة الأتباع وكثرة الخصوم ٢٥٣
اليأس وأخلاق المسلمين ٢٥٤
ثالثاً : هزيمة الباطل ٢٥٧
- ستغلبون وتحشرون ٢٥٨
- الباطل الزهوق ٢٥٩
- الفجر القادم ٢٥٩
رابعاً : الاستيقان من النصر ٢٦٢
- الاستيقان بالاستخلاف ٢٦٥
- شرط الاستخلاف ٢٦٨
- الاستيقان من التمكين ٢٧١
- البشارة بفتح أرض الفاتيكان ٢٧٢
خامساً : بين العمل والنتيجة ٢٧٥
- البنا ينبه أتباعه ٢٧٦
- سيد وأصحاب الأخدود ٢٧٧
- من كانت بيده فسيلة ٢٧٧
* كيف ننتصر ؟ ٢٧٩
الخطوة الأولى : التوكل على الله ٢٨١
الخطوة الثانية : إعداد العدة وبذل الأسباب ٢٨٣
- قلة تغلب الكثرة ٢٨٣

- انتصار ظاهره هزيمة ٢٨٤
- النصر السريع ٢٨٦
الخطوة الثالثة : معرفة الجاهلية ٢٨٧
- ما هي الجاهلية ؟ ٢٨٧
- معرفة سبيل المجرمين ٢٨٨
الخطوة الرابعة : ترك الوهن ٢٩٠
- الربيون ٢٩٠
- يألمون كما تألمون ٢٩١
- الله معكم ٢٩٢
الخطوة الخامسة : الشعور بالعلو ٢٩٤
الخطوة السادسة : الثبات ٢٩٦
- أسباب السقوط ٢٩٦
- نتائج السقوط ٢٩٨
- لنثبت على الطريق ٢٩٩
* أسباب تأخير النصر ٣٠١
* متى يتم النصر ؟ ٣٠٥
- العلامة الأولى : استنفاد كل الطاقة المدخرة ٣٠٦
- العلامة الثانية : بروز القلوب المتجردة ٣٠٨
- العلامة الثالثة : الثبات عند المحنة المزلزلة ٣٠٩
الخاتمة ٣١٢

الجزء الثالث ٣١٥
المبحث الأول : في حياة يوسف عليه السلام ٣١٧
مقدمة ٣١٧
الفتنة الأولى : مؤامرة الاغتيال ٣١٧
الفتنة الثانية : الإلقاء في الجُب ٣١٩
الفتنة الثالثة : الاستعباد ٣٢٠
الفتنة الرابعة : فتنة النساء ٣٢٠
الفتنة الخامسة : السجن ٣٢٤
الفتنة السادسة : الإطالة في السجن ٣٢٦
الفتنة السابعة : فتنة المنصب ٣٢٧
الخاتمة ٣٢٨
المبحث الثاني : فطنة البناة في تربية الدعاة ٣٣١
الغضب منبع الشرور ٣٣١
الفطنة في مخاطبة الناس ٣٣٢
الفطنة في التحفيز ٣٣٤
الفطنة في اكتشاف النبوغ ٣٣٥
الفطنة في تدارك الساقطين ٣٣٦
الفطنة في موعظة الآخرين ٣٣٧
فطنة التربية بالأحداث ٣٣٨
فطنة التربية على العمل ٣٤١
فطنة التربية على الإخلاص ٣٤٢

فطنة التربية على المواجهة ٣٤٤
فطنة البناة في بناء أنفسهم ٣٤٥
الفطنة في الإسراع ٣٤٦
الفطنة في الإنكار ٣٤٧
الفطنة في كسب القلوب ٣٤٩
لون آخر من الكسب ٣٥٠
الفطنة في متابعة المدعو ٣٥٢
الفطنة في مراعاة المستوى الفكري ٣٥٣
الفطنة في علاج العجب ٣٥٤
الفطنة في صبر البناة على الدعاة ٣٥٥
الفطنة في التخلص من المواقف ٣٥٦
الفطنة في التنبيه من الشهرة ٣٥٨
فطنة الاهتمام بما هوَ أهم ٣٥٩
المبحث الثالث: بِرُّ المربين ٣٦١
مقدمة ٣٦١
السيادة لمن يقتدي ٣٦٢
لا تكن كالشاة ٣٦٤
لا تكن لحوحاً ٣٦٥
توقير المربين ٣٦٦
احفظوا هيبتهم ٣٦٦
هكذا كانوا ٣٦٧

أنصتوا ولا تقاطعوا ٣٦٨
مر التعلم ٣٦٩
التهيؤ للاستماع ٣٧٢
تعظيم حرمة المربي ٣٧٢
تواضع يولد عزاً ٣٧٤
حتى يستأذنوا ٣٧٦
ومن أهم فوائد الاستئذان ٣٧٧
مبالغة بالتبكير ٣٧٨
إلزم غرسه ٣٨٠
الوقت المناسب ٣٨٢
الشكر والدعاء ٣٨٢
خدمة المربي ٣٨٣
لا ينظرون للسن ٣٨٤
مخاطبة المربي ٣٨٤
عدم إطالة المكث ٣٨٥
مَنْ بر شيخه بره من يربيه ٣٨٥

الفهرس ٣٨٧

* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com